



أحمد الطائفة

قواديت

أهل

المهروسة

الرواق للنشر والتوزيع

حواديت أهل المحروسة

أحمد الصايغ

الرواق للنشر والتوزيع

حواديت أهل المحروسة

أحمد الصايغ

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: محمد حسن

رقم الإيداع: 2021/28744


الترقيم الدولي: 978-977-824-125-9


جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

 alrewaqpublishing

 alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com



للنشر والتوزيع

مقدمة لا نهاية لها

هو كتابٌ في حُبِّ المحروسة وأهلها..

المحروسة برقة فاتن وضحكة سعاد ودلع هند رستم.. المحروسة برائحة كتب سور الأزبكية وشارع النبي دانيال وحديقة الأورمان والأندلس وتمثال سعد ودي ليسبس.. المحروسة بقصور العباسية وسور مجرى العيون وباب زويلة وبدائع البارون إمبان وبواكي العتبة وشجر الورد في الزمالك ومركب تتهادى على سطح النيل تحت شمس المغربية.. المحروسة بعقد الفلّ في الإشارة وكولونيا خمس خمسات وصابون نابلسي وشجرة اللباب وموآل عبد المطلب ومنديل الستّ وهزة تحية وزغرودة فرحانة في حفلة العندليب.. المحروسة بأنا قلبي إليك ميّال والحقني أوام الحقني وازيّك سلامات والأقصر بلدنا بلد سيّاح ولا مش أنا اللي أشكي واللييلة الكبيرة وحكيم عيون حضرتك.. المحروسة بعلي بابا والست مرجانة وأبو رجل مسلوخة والندّاهة وأودة الفيران ومنى وأحمد وجدو علي وساب مدرسته ورمى كراسته وقطتي صغيرة واسمها نميرة وألف ليلة وليلة ومسرور السيّاف والمعزة اللي بتضرب بالعكاز..

هو كتابٌ في حُبِّ المحروسة وأهلها..

المحروسة بشمسها وظلّها ونسمة هواء بعد العصرية وبلح زغلول وتبر سايل بين شطين وإنني أرجو مع اليوم غدًا وشط اسكندرية يا شط الغرام.. المحروسة بقبة الجامعة وحديقة جروبّي وبلكون في سينما أوديون وصوت الخال في دعاء الكروان ورقصة شويكار أمام فؤاد ومونولوجات شكوكو وشنب رشدي أباطة وواقعية الإمام وعبقرية الطيب وكلاييت شاهين ولا تطفئ الشمس لإحسان وحذاء الملك برباطه المحلول وحكايات التابعي في عشة رأس البرّ ومحمد أحمد بتاع الفول وحرافيش محفوظ في مقهى ريش والمطبخ الإيديال والحجلة والسبع طوبات وأوبرج الفيوم وقراندة سميراميس

والجاز بالكوبون وليلى بنت أكابر وأغنياء وفقراء وإسماعيل يس في الجيش والبحرية والبوليس الحربي.. المحروسة بصالون العقّاد وجامعة طه حسين وفكرة علي أمين وصراحة هيكل والضاحك الباكي لفكري أباطة ونصف كلمة أحمد رجب وكاريكاتير حجازي وحكايات رفعت إسماعيل وأدهم صبري ومغامرات لوزة نوسة تَخْتَخ عاطف مُحَبّ.. المحروسة بالمُصَوّر وروايات الهلال وحرיתי ونصف الدنيا لكل الدنيا تقرأ فيها وطبيبك الخاص وميكي ماوس قبل جريدة مصر الناطقة وممنوع إعطاء البقشيش وحاجة ساقعة بييس..

هو كتاب في حب المحروسة وأهلها..

المحروسة.. الله أكبر بسم الله بسم الله وخط بارليف وخرطومين ماء ولقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا ولقد قررت أن أتحنى وصاروخي الظافر والقاهر والعبقريات وخواطر الشعراوي ونور على نور وموسيقى العلم والإيمان ونادي السينما وبانوراما فرنسية وتاكسي السهرة ويا تليفزيون يا والسفرجي والجنائني وباقة ورد للهانم الكبيرة وزهرة بانسيه للهانم الصغيرة وقصريّة زرع في شبك المنور وعود ريحان في البدروم وماء ورد في صلاة الجمعة ودورق الليمون فيه مُكعّبات الثلج..

المحروسة بقاترينات قصر النيل وسكّة السلامة وزعقة شاويش المغربية وموضة البف والكابوريا والطرحة الاسبانيش والخمار والنّقاب ووزير الداخلية في مجلس الشعب: اقعدي يا... .. وفرقة البوليس في كُشك الموسيقى والباشا القائمقام ماشي قدام المحمل والبُمب والصواريخ وحرب أطاليا وهاتي فانوسك ياختي يا إحسان وآيس كريم كلوكلو..

هو كتاب في حُب مصر..

قد تستمر تلك المقدمة إلى ما لانهاية، فهي مقدمة عن حُبّ أبديّ قديم ومستمر.. هي مقدمة لكتاب أول يتحدث عن حكايات أشخاص من ملايين مرّوا تاركين بصماتٍ في تاريخ هذا البلد القديم كالدهر، هيئة كانت أو واضحة، ولكنّ كلًّا منهم ساعد في خلق

تاريخها، يحلو أو يقبُح، يبيّض أو يسودّ، أو حتى يستمر باللون الرّمادي. يأتي الغزاة ظانّين أن الأمور قد دانت لهم، ويزدادون يقينًا مع مرور السنين، أو حتى القرون، ثم ينهار بناؤهم الهش فجأةً كأنه لم يكن؛ كي تبقى مصر محروسةً بأهلها فقط، مشمولةً برحمة ربّها..

شخص كثيرة قد دخلت قائمة هذا الكتاب، وجمعت لها معلومات، وفتحت لها مصادر ومواقع، ثم مُحيت، وحل محلها آخرون، لا لشيءٍ إلا للهدف الذي بُنيت عليه فكرة الكتاب، وهي محاولة تقديم جزء من حكايات ثرية لمصريين مرّوا من هنا، تم ترتيب حكاياتهم بطريقة أبجدية، لا بأسلوب أكاديميٍّ بحث كما قدمت في العديد من كتب التاريخ، وإنما بأسلوب أدبي، قد يصل إلى درجة الأسلوب القصصي في بعض الفصول، مع خلق رغبة في البحث أكثر لمعرفة المزيد عنهم، باندلاً قُصارى الجهد للحفاظ على مصداقية تلك المعلومات، وعدم المساس بثابت التاريخ، وهي جريمة شنعاء - في رأيي - إن كانت مُتعمّدة..

على الصعيد الشخصي، فقد استمتعت كثيرًا بعملية البحث والتقصّي عنهم؛ مما أضفى إليّ مزيدًا من لذة المعرفة على مدار سنوات مضت في رحلة الكتابة، فهؤلاء الأشخاص، الذين تجمعهم فقط مصريّتهم، بعضهم معروف وبعضهم مغمور، ذوو سيرٍ محمودة أو مذمومة، قد مرّوا في حيواتهم بخبراتٍ ومواقف، ربما مرّ بها بعضنا أو أوشك، فقراءة سيرتهم، تُعدُّ بطريقة غير مباشرة خبراتٍ حياتية مهمة..

على جانبٍ آخر، فقد اخترت مُتعمّداً بعض الشخصيات الذين لم تكن حكاياتهم بالقدوة الحسنة، أو خانوا بلدهم التي لم تستحق منهم ذلك، وهذا شيء طبيعي، فكلنا أولاً وأخيراً بشر، نحمل في داخلنا الخير والشر، تهدينا ملائكة وتُضلُّنا شياطين، قد ينتصر جانبنا الحسن، أو يحدث نقيض ذلك، ولكن قصصهم استحققت أن تُذكر بين دفتي هذا الكتاب..

أخيرًا وليس آخرًا، فإن هذا هو الكتاب الأول من عدّة أجزاء لحكايات أهل المحروسة، أمل أن يسعفني الوقت فيتوالى صدورها في المستقبل القريب، وأن تنال نصيبًا وافرًا من النجاح والاستحسان..

أحمد الصايغ

٢٦ سبتمبر ٢٠٢١

قولوا لعين الشمس

إبراهيم الورداني
(١٨٨٦ - ٢٨ يونيو ١٩١٠)

لم تصل البلاد إلى هذا الحد من التوتر والاحتقان منذ الأيام القاسية التي حدثت فيها هوجة عرابي، ثم أعقبها الاحتلال البريطاني لمصر..

الجميع في حالة من الغضب الجامح، والنقاشات تحدث في المقاهي والمساجد والكنائس، بالإضافة إلى العديد من الأماكن التي تحتضن التجمعات السرية للطلبة والعمال والمنظمات الشبابية، التي تنادي بأهداف ثورية تتبع من إحساس عالٍ بالوطنية والقهر. مقال جريدة اللواء الذي نشره محمد بك فريد زعيم الحزب الوطني، خليفة خالد الذكّر مصطفى كامل، فجّر سخطًا كاملاً، وأقام الدنيا ولم يقعدّها على الاحتلال البريطاني وأعوانه من العملاء المصريين. الشعب الذي يُحصي السنين والأيام كي ينجو من سطوة احتلال بغيض يسيطر على كل شبر في البلاد، ويخنق اقتصادها بيدين ككلاّبتين من الحديد بسيطرته على قناة السويس التي حفرها المصريون بأيدي متعبة متشققة، ودُفن الكثير منهم أحياء تحت رمال الحفر، فوجئ بأن الحكومة المصرية قد وافقت على تمرير مشروع قانون بمدّ حق انتفاع شركة قناة السويس لأربعين عامًا أخرى، كي تنتهي في عام ٢٠٠٨؛ أي بعد قرابة قرن من الزمان في ذلك الوقت!

مشروع القانون هذا الذي اجتهد رئيس النظار بطرس باشا غالي في إخفاء تفاصيله عن الصحافة والحركة الوطنية؛ حتى يقوم بتمريره دون ضجة من الرأي العام المصري، فظل هذا المشروع محلّ تكتم مدة عام كامل، وقد اقترب من تحقيق غرضه، لولا أن استطاع محمد فريد الحصول على نسخة من مشروع القانون فقام بنشرها في أكتوبر ١٩٠٩، فبدأت

حملة من الحركة الشعبية، وعلى رأسها الحزب الوطني في تعبئة المصريين ضد هذا القانون..

نجحت الحركة في مسعاها، فلم يجد الخديو عبّاس حلمي سبيلاً إلا الموافقة على عرض مشروع القانون على الجمعية العمومية؛ لأخذ الرأي فيه في ١٠ فبراير ١٩١٠.

في الموعد المحدد، لم يُبدِ بطرس غالي أي إشارة ندم على ذلك المشروع، أو إنه وافق عليه مرغماً، بل وتمادى في غيّه، واتّهم أعضاء الجمعية العمومية بالغباء وقصر النظر، وأنه أدرى بمصلحة البلاد على التقيض منهم أجمعين. لم يَدِرْ أنه يضع منهاجاً للدكتاتوريين المصريين في تعاملهم مع فئات الشعب بأنهم أقل ذكاءً وخبرة، وسيستمر ذلك المنهاج طويلاً من بعده..

بين شباب الحزب الوطني الجالسين يتابعون في غضبٍ النقاشات المحتدمة حول مشروع القانون، جلس ذلك الشاب ذو الأربعة والعشرين عاماً في سكون، وعاصفة صامته تعتمل في داخله، وتزداد قوتها كلما استمع إلى الكلمات الوقحة التي يُلقيها بطرس غالي في وجه الحضور دون خوفٍ من رادعٍ أو عقاب..

شاب يُدعى إبراهيم الورداني..

طفل يتيم أوقعه الحظ الحسن في طريق ظفيل باشا، وهو أحد أقاربه من درجة بعيدة. لمح الباشا في العينين الصغيرتين ملامح ذكاء غير معتاد، فتكفّل برعايته ودراسته حتى حصل على البكالوريا بمجموع محترم، فابتعثه إلى سويسرا لدراسة علم الصيدلة، ومنها إلى بريطانيا من أجل إتمام دراسته العليا. لم يكتفِ بذلك، بل ابتاع له محلاً في حي عابدين ليتخذه صيدلية، ليبدأ إبراهيم أولى خطوات حياته القصيرة. انضم إلى الحزب الوطني، أقوى الأحزاب في ذلك الوقت، لينخرط في الحياة السياسية، ثم لجأ إلى جماعة وطنية سريّة اسمها جمعية اليد السوداء.

خُيالات مرّت أمام ناظرَي إبراهيم في تلك اللحظة، حتى توقفت عند مسدسه القابع في خزانة ملابسه. رَغماً عنه، وجد إبراهيم نفسه يبتسم، وراحة غريبة تشمل جسده كله..

لم تمض سوى عشرة أيام فقط، حتى أتى يوم ٢٠ فبراير، وفي تمام الساعة الواحدة ظهراً، تربص إبراهيم الورداني بالبasha أثناء خروجه من مبني وزارة الخارجية، متجهاً إلى سيارته، وكان برفقة حسين باشا رشدي ناظر الحقانية، وفتحي باشا زغلول، وعبد الخالق ثروت النائب العمومي. سار هؤلاء الثلاثة معه إلى سلم النُّظارة الخارجي الموصل إلى الحديقة حيث كانت تنتظره سيارته الخاصة. ودَّعه رفاقه، وكان حسين باشا رشدي يسير في مقدمتهم، يليه عبد الخالق باشا ثروت، ثم فتحي باشا زغلول، وعندما وصلوا إلى باب نظارة الحقانية سمعوا صوت إطلاق الرصاص فالتفتوا لاستطلاع الخبر فإذا بصوت يقول: (البasha)، ثم رأوا سيارة رئيس النظار لم تتحرك من مكانها. أسرعوا تجاه الحادث، فوجدوا بطرس باشا غالي مُلقى على ظهره وإحدى رجليه على درجة السيارة والسائق يحاول إنهاضه. أمسك الجنود بالجاني الذي انقضَّ على البasha بمسدس، وأطلق عليه ست رصاصات أصابت اثنتان منها رقبتة، وواحدة في كتفه اليسرى، وأخرى في جنبه الأيمن فسقط على الأرض والدم ينزف منه. أقتيد الورداني إلى قسم عابدين، بينما تم استدعاء رجال الإسعاف على وجه السرعة، ونقلوا بطرس غالي إلى مستشفى الدكتور ميلتون بباب اللوق، وفور وصول بطرس غالي إلى المستشفى اجتمع حوله ١٥ طبيباً من كبار الأطباء لإجراء جراحة له.

نُقِلَ عنه أنه قال، وهو على فراش الموت: «يعلم الله أنني ما أتيت أمراً يضرُّ بالبلاد. لقد رضيت باتفاقية السودان رغم أنفي، وما كان يمكن أن أعترض».

وأضاف: «ويُسندون إليّ حادث دنشواي، ولم أكن منها ولا هي مني، ولكنها أقوال سادت فأساءت. إن هي إلا غباوة ضعيف صارت، وقوة قدير بطشت، فتوسَّطت بينهما، كما توسط المُصلِح بين المتخاصمين، فنالنا من شرها ما نال».

وكذلك: «أما عن قانون المطبوعات فهذا عهد كونه لم ينفذ، وإنه من اختصاص نظارة الداخلية».

• «أما أعمالي في المحاكم، فليس فيها ما يؤخذ علي؛ لذلك تفضل عليّ المنتقدون، فضربوا عنها صفحًا؛ وكذلك مدارس المديریات وحضور النظار مجلس الشورى، وتبادل الآراء بين النظار والأعضاء... كلُّ على قدر وسعته واختياره وعلمه وفضله».

وأخيرًا «فليعلم الله والناس أنني ما أتيتُ في ذلك ما يضر بلادي».

وتوفي بطرس باشا غالي في الساعات الأولى من صباح يوم ٢١ فبراير ١٩١٠..

والحقيقة أنني أشكك في تلك الأقوال المنسوبة إليه، فلا هي طريقة تبرير لشخص آمن دومًا بأن أفعاله هي الصواب، ولا شيء غير الصواب، ولا هي فصاحة لسان مُحترِّص، يعلم أنه على شفا خطوات من أن يلقى ربه، وأكاد أجزم أن تلك التبريرات أطلقها مُحبُّوه علي لسانه بعد وفاته؛ لإبراء ذمته من اتهامات ظلت ملتصقة به حتى يومنا هذا..

رسميًا، دعا الخديو مجلس النظار إلى جلسة طارئة بقصر عابدين، تقرر فيها تعطيل نظارات الحكومة وجميع مصالحها والمدارس الأميرية إلى أجل غير مسمى، وأن تُنكس الأعلام على الثكنات العسكرية والأبنية الحكومية حدادًا على الباشا، الذي كان أول قبطي يحصل علي لقب الباشوية في القطر المصري..

خرج الجثمان في الساعة الحادية عشرة من باب اللوق في طريقه إلى الكنيسة المرقسية، ومنها إلى دير الأنبا رويس كمثوى أخير، وحُمِلَ على عربة تُجرُّ بثمانية جياد، خلفها اثنتا عشرة عربة تحمل أكاليل الأزهار. أغلقت البنوك والقنصليات أبوابها، وقرعت الكنائس أجراسها، وشيِّع الجثمان بواسطة العشرات من الباشوات والبكوات ومُوفد خاص من الخديو..

أظهر الورداني من الشجاعة أمام المُحقِّقين ما جعله يعترف فورًا بأنه أطلق النار على الباشا في يوم الأحد الساعة الواحدة إفرنجي مساءً، وعندما سُئل عن دوافعه، لم يتردد في الإجابة: «لأنه خائن للوطن، فهو كان رئيسًا لمحكمة دنشواي، ووقَّع اتفاقية السودان مع الإنجليز، وأعاد إصدار قانون المطبوعات، وعرضه لمشروع القنال الجديد، بالإضافة إلى إهانته للحركة الوطنية كلها في الجلسة السابقة للبرلمان».

أتبع الإنجليز سياسة فَرَّقْ تَسُدَّ الشهيرة التي اشتهر بها الاستعمار، فحاولوا إشاعة أن الورداني قتل بطرس غالي لأنه مسيحي الديانة. حاول المثقفون دحض هذه الافتراءات بكل قوتهم، ولكن هذا لم يمنع أنها صدقت من قبل بعض الفئات من الشعب، ودامت هذه الإشاعات حتى اندثرت تمامًا إبان ثورة المصريين في مارس ١٩١٩..

أحيل الورداني للمحاكمة في ٢١ أبريل ١٩١٠، ومثل أمام محكمة يرأسها بالطبع الإنجليزي «دوبر وجلي»، وكان من المحامين الذين حضروا للدفاع عن الورداني «أحمد لطفي السيد»، وقام النائب العام عبد الخالق ثروت بالتحقيق في القضية، وذكر في مرافعته أن الجريمة المنظورة أمام المحكمة هي جريمة سياسية وليست من الجنايات العادية، وأنها «بدعة ابتدعها الورداني بعد أن كان القطر المصري طاهرًا منها» ثم طالب بالإعدام للورداني. أرسلت المحكمة القضية إلى المفتي الشيخ بكري الصدفي لإبداء رأيه فيها، لكن المفتي أخذ بوجهة نظر الدفاع القائلة باختلال قُوى المتهم العقلية وضرورة إحالته إلى لجنة طبية لتقييم حالته، إلا أن المحكمة لم تهتم برأي المفتي، وكانت سابقة أن يعترض المفتي على حكم محكمة الجنايات برئاسة الإنجليزي «دولبر وجلي»، وسابقة أيضًا ألا تأخذ المحكمة برأي المفتي، وتعتبره رأيًا استشاريًا لا إلزاميًا. أُشيع وقتها أن المفتي رفض التصديق على حكم الإعدام؛ لأنه لا يجوز شرعًا قتل مسلم بيد إنجليزي كافر. في يوم ١٨ مايو ١٩١٠، أصدرت محكمة الجنايات حكمها بالإعدام على الورداني.

انتفض الشعب المصري، وخرجت بالفعل مظاهرات تندد بإعدام الورداني، بل شاركت في هذا بعض الجاليات الأوروبية في الإسكندرية، وأعدوا عريضةً ترفض ذلك الحكم الجائر. شعر الإنجليز مبكرًا بأن الأمور على وشك الخروج عن السيطرة، فأحكموا قبضة الأمن، ومنعوا تداول صورة الورداني التي انتشرت في البيوت والمقاهي، فتحول تدريجيًا إلى بطل شعبي، وقدوة بين بني جيله في القضاء على الظلم، وقيل أن هذا القرار سري حتى يوليو ١٩٥٢.

المتأمل في صورة الورداني الوحيدة، والمتواجدة بقليل من البحث على شبكة الإنترنت، يستطيع إعطاء الحكومة كثيرًا من العذر في منع تداول صورته. في الصورة التي يشوبها لون أصفر قديم، تظهر ملامح لوجه شابٍ يبتسم في سخرية، كأنه يوشك على إخراج لسانه في تشفٍّ واضح. تصفيفة شعر بعناية كبيرة، ربطة عنق أنيقة، يدلان على يُسر الحال، وسلامة الأصل. شارب رفيع لا يتصل طرفاه، وعينان ضيقتان، بهما الكثير من الذكاء والفطنة، لا يمكن سبر أغوار نفسه بسهولة، إلا ما أراد هو شخصيًا الإفصاح عنه..

ابتدع الخيال الشعبي المصري أهزوجةً تقول: «قولوا لعين الشمس ما تحماشي.. لحسن غزال البر صابح ماشي» في ليلة إعدام إبراهيم الورداني في ٢٨ يونيو ١٩١٠، وبقيت خالدة في ذاكرة هذا الشعب، حتى استخدمها الشاعر مجدي نجيب، وكان مُعتقلًا سياسيًا، في مطلع أغنية غنّتها شادية في الستينيات بتصرُّف بسيط..

كُلُّ شَيْءٍ بِقِضَاءِ

إبراهيم ناجي

(٣١ من ديسمبر ١٨٩٨ - ٢٧ من مارس ١٩٥٣)

لندن.. مدينة الضباب.. ثلاثينيات القرن العشرين..

البرود الإنجليزي الشهير يسيطر على كل شيء، وجوه المارة، الشوارع النظيفة التي تُبللها زخات مطر منذ الصباح، السيارات السوداء اللامعة.. كل ذلك كان يُطبق على صدره الضيق بشدة. لا يحب ضباب لندن، ولا يعشق الإنجليزي بعُنجهيَّتهم الزائفة، وشعورهم أنهم أفضل من الجميع. روحه الرقيقة القلقة لا تستطيع أن تتناسى ما يفعله جنود الاحتلال في بلده البعيد خلف البحر. كان حزينًا يكاد الاكتئاب يقتله قتلاً مما لاقاه ممن يدعون أنفسهم بقامات الأدب العربي. لا يدري لِمَ واجهوه بكل هذا العنف والنقد الظالم من وجهة نظره. العقاد ذو اللغة الصعبة التي لا تصل إلى عامة الناس ببساطة، والآخر طه حسين الذي لم يسلم أحد من سهام أقلامه التي لا يدخرها في جرح مشاعر الآخرين بكل قسوة..

فجأة، لا يدري ماذا حدث. صرير الإطارات الحاد، صوت مكابح سيارة قريبة، صيحات إنجليزية مُحذرة، ثم ألم حاد في جانبه الأيسر، تلاه ظلام دامس..

المحفَّة المعدنية ذات العجلات تحمل جسده الواهن المصاب، وتعبُر به بسرعة ممرات مستشفى سان جورج العتيق نحو حجرة العمليات. الطبيب يقف عاجزاً أمام الإصابات الخطيرة في عظام الساق ومفصل الحوض، يُخبره بكلمات مهتزة أن الوضع صعب، ولكنه سيحاول بذل قصارى جهده. يقضي وقتًا طويلاً في العمليات، والنتيجة كما يخبره الطبيب: عاهة مستديمة في الساق، ولن يعود للسير بصورة طبيعية ما تبقى له من حياة..

ولكن تلك الروح الحالمة لن يُكَبَّلها جسد واهن؛ لأن إرادته تتجاوز قوتها كل التوقعات..

ثلاثة أشهر كاملة قضاها داخل جدران المستشفى كأنه أسير، استجابته لجلسات العلاج الطبيعي أدهشت الأطباء الإنجليز. وجدوا تحسُّنًا ملحوظًا في حالته، حتى إنه قد عاد كما كان بعد عدة أعوام قليلة..

لكن تلك الفترة لم تمرَّ مَرَّ الكرام، راجع فيها الشاب أحلامه وطموحاته عدة مرات، وأعاد تسوية حساباته، قبل أن يصل إلى قرار صادم أثار ضجة شديدة في الوسط الأدبي..
فقد قرر اعتزال الشعر تمامًا.. وإلى الأبد..

الشاب الذي بدأ في كتابة الشعر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وكان له دور مهم في سياق حركة الرومانسية في الشعر العربي التي اقترنت بمدرسة «أبولو» الشعرية في القرن الماضي، ونهل من الثقافة العربية القديمة فدرس العَرُوض والقوافي. قرأ دواوين المتنبي وابن الرومي وأبي نواس وغيرهم من فحول الشعر العربي، كما نهل من الثقافة الغربية، فقرأ قصائد شيلي وبايرون وغيره من شعراء الرومانسية الغربية، ذلك الشاب قرر التخلّي عن كل ما حققه، وقال للشعر هذا فراقٌ بيني وبينك.

شَعَرَ طه حسين بتأنيب شديد للضمير، فمثلما يدري أنه كان أحد الأسباب الرئيسة لاعتزال طبيب الأمراض الباطنية للشعر، حين واجه صدور ديوانه الأول «وراء الغمام» بنقد شديد ووصف شعر إبراهيم ناجي بأنه شعر صالونات لا يحتمل أن يخرج إلى الخلاء فيأخذه البرد من جوانبه، كان يعرف أيضًا أنه شاعر من العيار الثقيل، وإن اختلفت مذاهبها وأفكارهما الشعرية، وأن اعتزاله الشعر خسارة كبيرة للشعر المصري والعربي. وقع طه حسين بين شِقِّي الرَّحَى، فلا هو يريد أن يكون السبب في اعتزال الشاب الشعر، ويحمل وزر ذلك، كما أنه لا يستطيع التراجع عن النقد الذي وجَّهه إليه من قبل، وإلا ضرب قلمه ومصادقته في مقتل..

اعتصر الرجل الكفيف ذو البصيرة الثاقبة تلافيف مُخّه، قبل أن يخرج بكلمات هي للذهب أقرب، ضرب بها عشرات العصافير بحصاةٍ صغيرة. كتب طه حسين في صحيفة الوادي: لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجي يعلن زهده في الشعر لأنني قدّرت إن كان شاعرًا حقًا فسيعود إلى الشعر إن راضيًا وإن كارهًا سواء ألحّث عليه في النقد أو رفقت به، وإن لم يكن شاعرًا فليس على الشعر بأس في أن ينصرف عنه ويزهد فيه.

كان لهذا التحريض أثر السحر عند الشاب فأنحلت عقده وعاد إلى الشعر بقوة، فأصدر ديوانه الثاني «ليالي القاهرة» عام ١٩٤٤. والحقيقة أن الفترة التي اعتزل فيها الشعر لم تكن فترة خمول تام، بل اتجه فيها نحو ترجمة النصوص الغربية، فترجم أغاني شكسبير، ومسرحية «الجريمة والعقاب» لدستويشسكي، ومسرحية «الموت في إجازة»، كما كتب العديد من الدراسات في القصة والأدب العربي وعلم النفس، وأصدر مجموعة قصصية بعنوان: «الحقني يا دكتور».

تزوج إبراهيم ناجي من سامية كريمة اللواء محمد سامي أمين حكمدار القاهرة في ذلك الوقت وعاش معها قصة حب هادئة؛ وخاصةً في السنوات الخمس الأولى للزواج، وفيها كتب أجمل القصائد وكانت بعنوان: «إلى سين»، قبل أن تفاجئه الحياة بحجر عثرة جديد..

في ذلك اليوم الشتوي البعيد، لاحت غمامات كثيفة في السماء، وأنذرت بهطول الأمطار؛ مما دفعه للالتجاء إلى محل جروبّي الشهير في ميدان طلعت حرب، وطلب كوبًا ساخنًا من الشيكولاتة اللذيذة، وأخذ يحتسيه في هدوء وببطء كعادته، قبل أن يسمع صوتًا أنثويًا ناعمًا يقول بلكنة فرنسية واضحة: دكتور ناجي؟!

السؤال الذي كان يحمل من الدهشة والتعجب أكثر مما يحمل من الاستفهام، دفعه للنظر بتمعن في وجه صاحبه الذي اختفى جزئيًا وراء قبعة سوداء أنيقة ألقت بظلالها فوقه. في البداية، لم يستطع التعرف إليها، وبحث عن ذلك الوجه وسط ذاكرته المثقلة بالمشكلات وسيدات المجتمع، بحكم عمله طبيبًا لنقابة السينمائيين والفنانين، فلم يجد له شبيهًا، وعندما سألت ثانية: ألا تعرفني؟

اللقاء العابر الذي لم يدم سوى عدة دقائق، ولم يتكرر بعدها أبدًا، كان إيذانًا بانطلاق عاصفة من الذكريات اقتلعتة من هدوئه اقتلاعًا..

سنوات طويلة قد مرّت على ذكريات شبرا الصغرى الجميلة. العائلات السبع الغنية التي شيدت بيوتًا متجاورة أشبه بالقصور تتسم بالأناقة والبساطة على الطريقة العصرية في ذلك الوقت. أسموها «مدينة الأحلام». هناك، كان حُلْم صغير يكبر بين ذلك الفتى النحيل من عائلة ناجي، وتلك الفتاة التي لا تجيد العربية في البيت القريب ابنة عائلة «الطوير». صلة القرابة التي تربط بين العائلتين ساعدت على تقاربهما، وقد نشأت بينهما حالة من الوُد؛ خاصة من جانب إبراهيم، استحوذت على روحه، وجعلت مَلَكَةَ الشعر تمسّه بطرف رُمحها المسحور، فنطق بالشعر دُررًا، وبنى من الخيال قصورًا لا تقبل أن تُنقض..

ماذا كان اسم الفتاة؟ اختلفت الأقاويل ولم تُحسم.. قيل عَفَّت محمود الطوير وقيل عنايات محمود الطوير..

مرت السنوات كالنسيمة، والحب يتملّك من القلب الصغير أكثر فأكثر. مع دخوله مدرسة الطب شعر أنه قد اقترب من حلمه المؤجل، ولم يَدِرْ أنه معلق بسرابٍ واهٍ، وأن الفتاة لم تستطع الانتظار أكثر، ففوجئ بزغاريد الفرحة تنطلق من البيت المجاور معلنة كابوسًا يتحقق..

كانت قصة عادية، تتكرر آلاف المرات في المدينة الواحدة، وستظل في طور التكرار حتى تملّ الشمس البزوغ من الشرق..

ولكن إبراهيم ناجي لم يكن رجلًا عاديًا، يطوي أحزانه بالنسيان، وأبت روحه المرهفة إلا أن تُمجّد آلامها التي لازمته طوال حياته، وتُخلد قصتهما في رائعته الأطلال التي أكسبتها أمُّ كُثُوم ألقًا وخلودًا دائمين..

أهداها كتابه «رسالة الحياة» بالإضافة إلى ديوانه «ليالي القاهرة». وكان الإهداء، في المرّتين، مموّهاً بذكر «الصديق الحبيب ع. م.» و«صديقي ع. م.»؛ ما حفز دارسي الشاعر وشعره بمحاولة الكشف عن هذا الصديق الحبيب، حتّى ظنّه بعضهم الشّاعر المهندس علي محمود طه رفيق ناجي وصديقه. كان إهداء «رسالة الحياة»: «إلى الصديق الحبيب ع. م. أيّها الصديق الكريم، كيف أؤدي لك بعض فضلك عليّ؟ أتذكر كيف كتبت هذه الرسائل؟ كتبت بوحيك وتمّت في ظلال صحبتك، فمنك وإليك مرجع هذه الكلمات. أيّها الصديق، لقد رضيت أن يتوّج حرفان من اسمك كتابي هذا، وحسبي شرفاً وحسبي مدى العمر سعادة وهناء». وكان إهداء «ليالي القاهرة»: «إلى صديقي ع. م. الذي ندّى الزّاهر الذّابل من خمائل الماضي، وأنبت في روض الحاضر زهوراً نديّة مخضلة بالأمل والحياة. إليه أقدم ما أوحى به إليّ».

أما قصيدته «الأطلال»، دُرّة أعماله، وهي من ديوان «ليالي القاهرة»، فالأكثر لا يعرفون منها سوى الأبيات التي غنّتها أم كلثوم عام ١٩٦٦، في حين أنّها طويلة في اثنين وثلاثين مقطعاً رباعياً ومقطعين في ثلاثيّات، فيكون عدد أبياتها مائة وأربعة وثلاثين، وربّما وُصفت لطولها هذا، بالملحمة. أمّا ما غنّته أمّ كلثوم منها، وهو أشدّها أسراً، فأبيات مُصطفاة، كما كان ديدنها، عددها خمسة وعشرون؛ بدأتها بمطلع الأطلال:

يا فؤادي رحم الله الهوى

كان صرحاً من خيالٍ فهوى.

وأنتها بالمقطع التاسع والعشرين كلّهُ:

يا حبيبي كلّ شيءٍ بقضاء

ما بأيدينا خُلقنا تعساء

ربّما تجمعنا أقدارنا

ذات يوم بعدما عزَّ اللقاء

فإذا أنكـر خـلُّ خـلِّه

وتلاقينا لقاء الغرباء

ومضى كلُّ إلى غايته

لا تقل شئنا فإن الحظَّ شاء

ولالأطلال حكاية وجب ذكرها. فقد أثارت اهتمام أم كلثوم عام ١٩٦٢ بعد وفاة ناجي، فطلبت من رياض السنباطي تلحينها، والتقى الاثنان في جلسات عمل حدَّدا فيها الأبيات التي سَتَغَنِّي، كما تمَّ الاتفاق على دمج بعض الأبيات من قصيدة الوداع وهو الجزء الممتدُّ من «هل رأى الحب سُكاري» حتى «وإذا الأحباب كُـلُّ في طريق». كما عدَّلا المطلع من «يا فؤادي رحم الله الهوى» إلى «يا فؤادي لا تَسَلْ أين الهوى»، وبعد الانتهاء من هذا العمل انتقل السنباطي إلى مرحلة التلحين.

جلسات طويلة جمعت كُـلًّا من أم كلثوم ورياض السنباطي وكانا على انسجام تام في ما يخصُّ اللحن والأداء، وبدأت الصحف تتناقل أخبار ومراحل التقدُّم على العمل الجديد. وكان العالم العربي بأسره ينتظر تاريخ الحفل الذي حدَّد في أكتوبر سنة ١٩٦٣، لكن وقع ما لم يكن في الحسبان وشبَّ نزاع بين الاثنين على قفلة الأغنية وهو المقطع الأخير، الذي فضَّلت أم كلثوم أن تكون طبقتة منخفضة ورفضت أن تغنيه في الطبقة العالية، فغضب السنباطي ورفض تدخُّلها في تفاصيل عمله كما كانت تفعل مع الآخرين..

انعزل السنباطي في بيته شهرًا بعد هذا الخلاف، ورفض كل محاولات الصلح ولجأت أم كلثوم في النهاية إلى وساطة الموسيقار عبده صالح، فأعلمه الملحن أنه لن يغيِّر القفلة وإن أصرت، فهو سيعتذر عن تلحين القصيدة ولتجد لها ملحنًا آخر، وأكَّد له أنه خبير بصوتها وأنه متأكَّد من مقدرتها على غناء أصعب من ذلك. لم تجد أم كلثوم خيارًا غير الخضوع

وخرجت الأطلال إلى الوجود سنة ١٩٦٦ لتلقى ترحيبًا غير مسبوق؛ وخاصة تلك «القفلة»
المتنازع بشأنها والتي كان الجمهور يطالبها بترديدها مرات ومرات..

عاش ناجي حياته باحثًا عن المرأة الملهمة التي تُخرج ما بداخله من قصائد وكانت أبواب
قلبه مفتوحة لملهماته ليلاً ونهارًا. كُنَّ يتوافدن عليه كما تتوافد القصائد على أوراقه التي
يكتبها لهنَّ إعجابًا وعشقًا في جمالهن أو فنهن. وفي عام ١٩٢٨، شاهد الفنانة زينب صدقي
وهي تؤدي دور ليلي في مسرحية مجنون ليلي لأمير الشعراء أحمد شوقي، وكانت آنذاك
مريضة فعالجها حتى تماثلت للشفاء ولم يستطع أن يخفي إعجابه الشديد بفنّها فكتب فيها
قصيدة وداع المريض. كما أن الفنانة زوزو ماضي كانت ملهمته في قصيدة «صخرة
المكس». تعرّف إلى الفنانة سامية جمال التي طلبت منه أن يصفها فصاغ قصيدته (بالله
مالي ومالك)، وقد أعجب بالفنانة القديرة أمينة رزق، وهذا الإعجاب لم يتجاوز حدود
الإعجاب بقدرتها الفنية وكانت ملهمته في قصيدة (نفرتيني الجديدة)..

حتى وفاته كانت درامية مثلما كانت حياته، فقد تُوفي في يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ من
مارس عام ١٩٥٣ الساعة ١١ صباحًا في عيادته، حيث وضع أذنه على صدر أحد المرضى
وسقط فجأة في أثناء فحصه..

من عجائب المصادفات أنه قبل وفاته وصف في بعض مقالاته موت ستالين وزكي مبارك،
وشعر أنه سيموت بنفس الطريقة، وخلال أسبوع. وقد أخبر زوجته: لقد أصبت بذبحة
مرتين، واستطعت أن أنقذ نفسي، ولكن الذبحة الثالثة لن أستطيع أن أمرّ منها بسلام،
وتُوفي في نفس الأسبوع.

خلف الميكروفون أكاذيب

أحمد سعيد

(٨ من سبتمبر ١٩٢٥ - ٤ من يونيو ٢٠١٨)

١٦ من مايو ١٩٦٧

استند بظهره إلى مقعده، وحاول إغلاق عينيه لدقائق معدودة. أراد القليل من الراحة كي يواصل عمله الدؤوب على نفس المنوال. خاصمه النوم في الفترة الأخيرة، وصار يقضي أكثر أوقاته في مكتبه في مبنى ماسبيرو العملاق، ربما كان ذلك بفعل فناجين القهوة المتتالية، أو نتيجة لأعصابه الملتهبة دومًا كحال مصر ومعظم البلدان العربية في ذلك الوقت..

أقلقت راحته طرقات الباب التي حملت إليه صديقًا قديمًا قبل أن يكون مبعوثًا رسميًا. رحب بحسني عبد المجيد أحد مديري مكتب المشير عبد الحكيم عامر، وكان مسئولاً عن الاتصال بالإعلام. شعر أن وراء تلك الزيارة أكثر من الصداقة، فسأله: ما الأخبار يا حسني؟

• ألم تبلغك الرئاسة بعد؟

• بيم؟

أجابه: المفروض أن تكون جاهزًا ليلة ٢٥ أو ٢٦ مايو. سنهاجم عدونا.

في ذلك الوقت، كانت كلمة العدو في أي وطن عربي تعني الصهاينة وليس إلا، والحقيقة أن العبارة أثلجت صدر أحمد سعيد، وأثارت حماسه أكثر بكثير من أن تثير قلقه. كانت معركة الحسم كما قال عبد الناصر هي كل ما يشغل البال. المعركة التي

تُنتهي أسطورة إسرائيل إلى الأبد، وتعيد للفلسطينيين أرضهم المسلوبة منذ سبعة عشر عامًا.

لم تكن هناك ذرّة واحدة من الشك في قدرة الجيش المصري على دحر الجيش الإسرائيلي. شوارع القاهرة تزدان بالاستعراضات العسكرية من مشاة ومدفعية. الثقة في النصر عارمة، والشعب يعدُّ نفسه للاحتفال. في الصفوف الأمامية في سيناء، استقر في قرارة نفوس الضباط والجنود أن الحرب المرتقبة ما هي إلا نزهة، ختامها النصر الذي تأخر منذ معركة ١٩٤٨، وغنيمتها عشرات السبايا من مُجنّذات جيش الاحتلال الفاتنات، والتي تناقلت الصحف المصرية صورًا لهنَّ بالبكيني، وأطلقت على جيشهن لقب جيش العاهرات..

لم يكتفِ الإذاعي المخضرم بما أبلغه به حسني عبد المجيد، فبمجرد مغادرته، أسرع بالاتصال بمحمد فائق وزير الإعلام؛ ليسأله عن صحة ذلك الخبر، وعندما تبيّن منه وضع خُطّته، وكوّن عدة فرق، الأولى بقيادة جلال معوض، والثانية بقيادة فاروق خورشيد، والثالثة بقيادة سيد الغضبان. الفرق كلها لها مهام عدة، من أهمّها وجودها في مواقع بديلة لو تم ضرب المبنى الرئيس للإذاعة والتلفزيون.

في ٢٢ مايو، تسارعت الأحداث بعنف مع قرار عبد الناصر بغلق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، وأذاع عبد الحكيم عامر بيانًا من سبع نقاط، أهمّها منع عبور أي سفينة إسرائيلية في خليج العقبة وفي قناة السويس.

اعتبر أحمد سعيد نفسه دومًا واحدًا من جنود عبد الناصر الأوفياء، وإن كان قد تخلّى عن المقاومة وحمل السلاح الذي مارسهما ببسالة إبّان انضمامه إلى الفدائيين في مدن القناة، إلا أن فاعليّته كانت أقوى ألف مرة أمام ميكروفونه المعدني عظيم التأثير. كل ذلك شحذ همّته مع تصاعد الأحداث واقتراب الحُلْم..

منتصف ليل ٢٦ مايو ١٩٦٧

الإذاعة تبدو كخليّة نحل، والكل قد أنهى استعداداته الأخيرة. لم يحتمل الجلوس خلف مكتبه، فظل قريبًا من سلاحه الخطير برفقة نائبه كمال إسماعيل. رنّ جرس الهاتف فانتفض جسده رغماً عنه. أثاره صوت حسني مرة أخرى يقول بصوتٍ خالٍ من الانفعال: الغِ كل شيء.

سأله متعجبًا: ولكن لماذا؟

- هناك قوى سياسية خارجية أوقفت هجومنا.
- تأجيل أم إلغاء؟
- إلغاء يا سعيد... إلغاء نهائي.

لا مزيدَ من الجدل، ولا محلّ لأسئلةٍ ستبقى معلقة في الفراغ بلا إجابة. ألغى كل شيء، بما فيها المحطات الخمس البديلة التي أنشأها. ما زال لا يشعر بالراحة. اتصل بمحمد فائق فلم يُجب هاتفه.

في الصباح، توجه إلى مكتبه فوجده، حكى له كل ما حدث، وراقب اندهاشه في تعجّب. كان يأمل أن يجد عنده إجابات وافية، فلم يجد إلا الحيرة. وعده بتقضي الحقائق، وإطلاعه على كل جديد. عاود الاتصال به بعد ساعة، وقال له: يا أحمد افتح على الآخر، العملية أصبحت سياسية، وهناك مبعوث أمريكي قادم إلى مصر، وهناك وفد مصري برئاسة زكريا محيي الدين سوف يذهب إلى أمريكا لتهدئة الموقف وبحث إغلاق خليج العقبة.

سأله: إذًا لماذا نبدأ الحملة؟!

كان رده غريبًا، قال: افتح «بلّف».

بلّف بالإنجليزية «BLUFF» تعني التمويه، وهي في الإعلام التجريبي تفيد تضخيم موقف والإيهام بوقوعه، وهي سلاح إعلامي خطير لأنه ذو حدّين، قد ينقلب على

صاحبه وبالأ.

فتح أحمد سعيد أكبر «بلف» في تاريخ مصر الحديث ابتداء من ٢٧ مايو حتى ٥ يونيه، غرق فيه الجميع، ولم يكن آخرهم أحمد سعيد نفسه..

أوقعت إسرائيل رءوس السلطة المصرية في شَرَك تمويه شديد البراعة، وبينت لهم أنها غير مستعدة تمامًا للحرب، فوقع فيه القادة بسهولة، بل وأعدوا العدة للاحتفال في خطوات اعتُبرت بعدها رمزًا للخيانة والإهمال والاستهتار بعدو لم يكن يومًا هيئًا.

في خطوة غريبة ومحيرة في آن واحد، تم الإعداد لإقامة حفل للترفيه عن الطيارين في أكبر قاعدة جوية وهي قاعدة أنشاص العسكرية، وكان من المفترض أن يكون ذلك في الأول من يونيه، ولكن تم تأجيله بلا مبرر معروف إلى ٤ يونيه، ليقتضي أكثر من ثلاثمائة ضابط ليلة المعركة في سهرة راقصة حتى شروق الشمس!

الموسيقار صلاح عرّام، قائد الفرقة الموسيقية الذهبية روى أن الحفل أُقيم في قاعدة أنشاص ببليبس، وكنا قد أُخطرنا بواسطة مكتب عبد الحميد الحديدي رئيس الإذاعة وقتها - وهو والد الإعلامية لميس الحديدي - بأننا كَفْتَانِين يجب أن نكون أكثر وطنيةً من رجل الشارع الذي يتبرع بدمه للاستعداد للمعركة. تقرر إقامة حفل للترفيه عن الطيارين، فأجريت الاستعدادات اللازمة له. في يوم ٤ يونيه فوجئت باستدعائي بصورة عاجلة، وطلب مني السفر إلى قاعدة أنشاص العسكرية ببليبس لإحياء الحفل، مع التنبيه عليّ أن تنتهي جميع فقرات البرنامج الأول من الحفل في تمام الواحدة صباحًا، وكان من المقرر أن يلحق بنا عبد الحلیم حافظ لأنه كان منشغلاً بأعمال أخرى؛ ليبدأ فقرته الغنائية الختامية للحفل، وعندما وصلنا وجدت قائد القاعدة منشغلاً بشرح الطائرات للفنانين، وشاهدنا الصاروخ (الظافر) الذي يدمر هدفه بعد إطلاقه في ظرف ٤٠ ثانية، والصاروخ (القاهر) الذي يصيب في ٨٠ ثانية، ف شعرنا حينها أن الحرب لن تستغرق أكثر من ساعة ونصف من الزمن على أكثر تقدير. وجدنا أن المسرح قد أُقيم على حَمَام سباحة، وقبل أن نبدأ صعد أحد الضباط

على خشبة المسرح موجهاً لنا تحذيره بأنه حال سماعنا لأصوات غارة جوية وإطلاق أضواء باللون الأحمر فعلينا أن نسرع إلى المخبأ، وصرح لنا إنهم يتوقعون حدوث غارات جوية أو تحرك عسكري، وأطلعنا الضابط على مكان المخبأ. هذا ما حدث بالفعل قبل منتصف الليل، فأسرعنا إلى المخبأ، ولكن ما هي إلا دقائق وأخرجونا منه وأخبرونا أن طائرتين إسرائيليتين أغارتا على العريش والقائد أسقط إحدهما في البحر والثانية هربت. خلال هذه الفترة، علمنا أن سكرتارية عبد الحليم حافظ اتصلت بالقاعدة واعتذرت عن حضوره الحفل، ووصلت إشارة للفرقة الموسيقاة أن تُطيل من زمن فقرتنا الغنائية لتأخذ وقت عبد الحليم، وكان معنا فقرات إلقاء نكات ومنولوجات لأحمد غانم وفقرات راقصة أحييتها الراقصة زينات علوي، وكانت المرة الأولى التي يتم فيها وضع فقرات رقص شرقي بحفلات الجيش. انتهى الحفل في الثالثة والنصف صباحاً، وحينها انتهى إرسال الإذاعة المباشر، وجدنا بعض الضباط يطالبوننا بالبقاء ومواصلة الغناء لأنهم لم يحضروا الحفل نتيجة تغيير النوبتجيات، ولم يكن أمامنا بُدٌ إلا الانصياع لمطالبهم، ولم نعد إلى منازلنا إلا في الثامنة صباحاً.

بعد دقائق من انتهاء الحفل المُريب ورحيل الفنانين إلى القاهرة، كانت الطائرات الإسرائيلية تحلق فوق قاعدة أنشاص الجوية، وتدكُّها بالقنابل الثقيلة والصواريخ حتى تمت تسويتها بالأرض!

الإثنين ٥ يونيو ١٩٦٧

لم يعد بحاجة إلى فنجان القهوة الصباحي المعتاد..

الأدرينالين الذي يتدفق في عروقه مع انطلاق صفارات الإنذار في القاهرة في تمام التاسعة صباحاً جعل أعصابه على حافة الاشتعال. ها قد حانت اللحظة المنتظرة منذ زمن بعيد. انتظرها منذ انتهاء معارك السويس بهزيمة عسكرية واضحة ونصر سياسي. فعلها الإسرائيليون بغنائهم وبادروا بهجوم لا يعرفون أن ختامه فيه نهايتهم

ونهاية أساطيرهم المزعومة. كيف ظن هؤلاء أن بمقدورهم مواجهة أكبر وأقوى الجيوش العربية بعدده وعتاده!

ارتعشت أصابعه الممسكة بالبيان العسكري الذي تسلمه حالاً من قيادة القوات المسلحة، جرت عيناه فوق السطور تقرؤها بسرعة، وقال من أعماقه، وهو يزفر زفرةً شديدة الحرارة: الله أكبر.

ثم اتجه إلى الاستوديو، متخذاً مقعده، ناظرًا بعينين حالمتين إلى ميكروفونه المُحَبَّب إليه. انتظر إشارة الاستعداد من رجاله، وحانت منه التفاتة إلى ساعة الحائط الكبيرة المعلقة تشير عقاربها إلى الحادية عشرة ظهرًا. التقط نفسًا عميقًا. يعرف أنه أمام لحظة تاريخية فارقة في تاريخه وتاريخ الأمة العربية كلها، ثم قال بصوته القوي، الذي أثار دومًا الحماسة في نفوس مائة مليون عربي من المحيط إلى الخليج: إذاعة صوت العرب من القاهرة.

ثم بدأ يتلو البيان الأول: «توغَّلت قواتنا المسلحة بعد معارك عنيفة اليوم في داخل الأراضي المحتلة من فلسطين، وذلك بعد أن تمكَّنت قواتنا من القضاء علي هجوم للعدو على منطقة الكونتلا قام به مستخدمًا لواءً كاملًا من المشاة ومجموعة كبيرة من الدبابات. وبعد أن تمكنت قواتنا من القضاء علي هجوم العدو، تسلَّمت زمام المبادرة وتوغلت في الأراضي التي يحتلها العدو من فلسطين»....

أتم إذاعة البيان الأول، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى أتى البيان الثاني: «نجحنا في إسقاط ثلاثٍ وأربعين طائرة إسرائيلية»..

والثالث: «ثلاثون طائرة»..

الحقيقة الأولى أن معدل إسقاط الطائرات الإسرائيلية في البيانات العسكرية المصرية كان هزليًا إلى أبعد حد، ولم يكن خاضعًا لأبسط قواعد العقل والمنطق،

فكانت تسقط بأسرع ما يستطيع المذيع أن يتلو من بلاغات عسكرية مفبركة. والحقيقة الثانية أن التاريخ ظلم كثيرًا مؤلف تلك البيانات العسكرية صاحب العقلية الفذة والمخ الألمعي، فلم يذكر اسمه، وإن ذكر اسمه لاستحق أن يُكتب عنه كتاب كامل لا مجرد عدة صفحات..

ارتجل أحمد سعيد الأنبا وأدعى أن أم كلثوم ستقوم بإقامة حفل غنائي في تل أبيب الأسبوع القادم بعد وصول الجيوش العربية إلى أبوابها. نبأ كهذا اتخذه الإسرائيليون بعدها أداةً للسخرية من المصريين، بل أذاعوا في إذاعاتهم لاستقبال أم كلثوم هناك، لتقوم بالغناء لخمسة آلاف وخمسمائة أسير مصري في معتقل عتليت القاسي..

في الساعة ٥:١١ صباح ٥ يونيه، جاء أحد المراقبين في أقسام الاستماع السياسي في حالٍ من الانفعال والهستيريا وهو يبكي ويقول: ماذا تذيعون؟، كل وكالات الأنباء تقول إن الجيش الإسرائيلي ضربنا، وبدأ يخرق سيناء، ويذيعون أشياء مخالفة لكل بلاغاتنا الحربية. ناول الرجل أحمد سعيد ورقةً من الاستماع، فوجد فيها موقفًا متناقضًا تمامًا. رفع السماعه وكلم القيادة، فلم يجد ردًا إلا من القيادة العسكرية لمكتب المشير فقط، قال له: الوكالات تقول كذا... كذا. رد عليه شخص يُدعى طنطاوي وقال باقتضاب: «لا تصدق».

قال له: هناك تناقض، قُل لي الحقيقة.

• أنا أمامي خطة شحن منطقة وهذه بيانات غرفة العمليات ولا أستطيع أن أُغَيِّر فيها حرفًا، قانونًا لا أستطيع.

* أنا أعلم ذلك، وأعرف أن عقوبتها الإعدام. الأمر ليس فيه هزل كل ما أريده أن أفهم، أنا أخاطب جنودًا وشعبًا وملايين عربية فلا بد أن أعلم ماذا أقول، وماذا يسمع الشعب الآن من المحطات الأجنبية حتى أستطيع أن أخاطبه.

• أنا لا أفهم في عملكم، أنا أعرف فقط ما يأتي إليّ، وأنا أيضًا أبلغت الصحف بذلك.

لم يستطع أحمد سعيد أن يستخرج من طنطاوي هذا ردًا قاطعًا، وأدرك أن الجميع في حال تخبط، والكل يفعل ما يحلو له. عند العصر امتنعت صوت العرب عن إذاعة البيانات العسكرية، ولم تُذع البيان الرابع. المفاجأة أن أحدًا لم يكلمه ولم يسأله لماذا لم يُذع البيان رقم أربعة. هذه التصريحات أقرّها أحمد سعيد نفسه، ولكن الإعلامي السيد الغضبان أكد أن البيانات قد أُذيعت جميعها، بما فيها البيان رقم ٤، وأن أحدًا لم يكن باستطاعته منع إذاعة أي بيان عسكري في هذا التوقيت العصيب.

لم أتمكن من التحقق من صحة أيّ من الروايتين..

رفع سعيد السماعة التي تصله بالوزير فائق، فقال له: ليس عندي أي تعليمات، وأخبره: أنا محتار مثلك. طالبه سعيد بالتحدّث إلى سامي شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر، فأعاد الوزير الكرة إليه: أليس لديك خط مباشر معه؟، كلّمه أنت. أخبره سعيد أنه يحاول أن يكلمه، ولكن البلد كلها مرتبكة، خناقة في القيادة، الرئيس في أسوأ حال. الجميع في اضطراب. لم يصل إلى سامي إلا قرابة منتصف الليل. أخبره أن الموقف متناقض، وما معه من بيانات يختلف عما تذيعه وكالات الأنباء.

أجاب ببرود: أي وكالات؟

- كلها... بي بي سي من لندن والشرق الأقصى من قبرص، وطبعًا الإذاعات الإسرائيلية الناطقة بالعربية تُمجّد بالانتصار الكاسح.
- لا تقلق. القيادة العسكرية هي التي تتولى الموقف الآن.

قال بسخريةٍ مريرة: ومن الذي كان يتولّاه قبل ذلك؟!

لم يتلقَ إجابة، ولم يكن ينتظرها. شعر أن لا قدرة لديه على العودة إلى منزله، فاتصل بزوجته هاتفياً ليخبرها أنه سيقضي الليلة في الإذاعة. أخبرته بصوت يقطر فرحًا أن

لا مشكلة في ذلك، وأنها تعلم أنه كان ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي نذيق فيه إسرائيل هزيمة نكراء كتلك. أنهى المكالمة دون أن يُعقَّب، وألقى بجسده على أريكة غير مريحة، إلا أن أعصابه أبثَّ إلا أن تقضي ليلتها على موقدٍ من نار..

في الصباح، كان أحمد سعيد قد اتخذ قرارًا لم يندم عليه قطَّ بعدها.. سيواصل ما بدأ، وبرر ذلك لنفسه بعدة أسباب: أولها المحافظة على الروح القتالية للجنود. ثانيًا: المحافظة على روح الصمود لدى الشعب وحتى لا يحدث نوع من التمزق والضياع حتى تظهر الحقيقة، وبالتعبير الشعبي حتى يظهر لذلك البلد صاحب؛ خصوصًا أن الوضع كان مأساويًا: جنود مهلهلون في سيناء وجيش مُعادٍ بدأ يحتل القدس والمسجد الأقصى وغزة والعريش. الجميع من حولك ينهار. وفي وسط كل ذلك يأتي بيان من القيادة العسكرية بتوجيه نداء إلى الوحدات التي دخلت إسرائيل بأن تعود، وبالسؤال عن هذه القوات علم أن الخطة المصرية في حال هجوم إسرائيل أن يتسلل ألفان من جنود الصاعقة؛ للقيام بعمليات تخريبية داخل إسرائيل لتدمير خطوط الإمداد الإسرائيلية، وأن يتعاملوا مع فلسطينيين لتأمين تلك المسألة.

طلب منه أن يوجه نداءات لسوريا - التي لم تكن دخلت بعد في المعركة - شعبًا وحكومةً وجيشًا للدخول للتخفيف عن الجبهة المصرية، فخاضت سوريا اشتباكات متأخرة أدت إلى احتلال الجولان.

ثالث الأسباب أن القيادة العسكرية في ٦ يونيو طالبت بتشديد الحملة لأن قواتنا تتمركز في الخط الدفاعي الثاني عند الممرات، وهذا يعني أن الأمل لا يزال موجودًا، إلا أن كل شيء انتهى يوم الخميس بأسر اللواء صلاح ياقوت قائد اللواء ١٢٧ بعد معركة مدرعات ضارية، وأمر موشيه ديان بضرب القوات الملتحمة بالطائرات. بعدها صدر قرار وقف إطلاق النار الذي كان يُفترض أن يصدر يوم الثلاثاء، ورفضته حكومتا مصر وإسرائيل في هذا الوقت، ولم تكن القوات الإسرائيلية وصلت إلى قناة السويس ولا حتى إلى الممرات..

غرفة مراقبة الأخبار تلقت خبراً من القيادة العامة يفيد بأن الرئيس جمال عبد الناصر يريد إلقاء خطاب من منزله بمنشية البكري. ذهب جلال معوض إلى منزل الرئيس، وأذاعت صوت العرب تنويهاً عن الانتقال قريباً إلى إذاعة خارجية لبث خطابٍ مهمٍّ للرئيس عبد الناصر.

الجميع أصغى بكل جوارحه للخطاب حتى وصل عبد الناصر للفقرة التي أعلن فيها التنحي عن الرئاسة واختياره زكريا محيي الدين ليخلفه، ولم يكن أحد يعلم فحوى الخطاب الذي صاغه محمد حسنين هيكل. عند هذا الحد ساد الوجوم، وأجهش الكثيرون بالبكاء، وجاء صوت جلال معوض، وهو يحاول إنهاء الإذاعة الخارجية متحشراً وانفجر في البكاء، ولم يستطع أن يكمل حديثه. ساد صمتٌ عميقٌ وتعامل الجميع بالإشارة والعبرات تخنقهم.. وتم بثّ مارشات عسكرية.

قام مدير الإذاعة عبد الحميد الحديدي بالاتصال بقسم التنسيق والمكتبات، وهو مصدر جميع المواد المسجلة، وكان يرأسه بدوي الغنّام، وطلب منه أن يرسل إلى الاستوديو جميع الأناشيد والأغنيات التي تتحدث عن مصر وشعب مصر، ويتم رفع الأغاني التي تحتوي اسم عبد الناصر.

أحمد سعيد وقتها كان برفقة نائبه كمال إسماعيل باستوديو المونتاج، ولم يتقبل فكرة رفع الأغاني التي تحمل اسم الرئيس، فقام بالاتصال ببدوي الغنّام، وطالبه بإرسال الأناشيد الناصرية؛ وبخاصة أغنية «يا حبيب الملايين». كان بداخله شبه يقين أن المسألة كلها بلّف bluff «آخر، وقال لسيد الغضبان: الراجل راجع راجع إحنا بقى يا أبو السيد هنذيع نداءات نرفض فيها التنحي ونطالب بضرورة عودة الرئيس.. وطبعاً الرئيس هيرجع هيرجع ويبقى إحنا ساهمنا في عودته.

رفض زملاؤه هذا المنطق وأخبروه أن الموقف الحساس لا يحتمل مثل هذا التشويش، وأن الحديدي هو صاحب السلطة الأعلى، على أن يقتصر البث على الأناشيد التي تتحدث عن مصر وشعب مصر وأن على الجميع أن يلتزم بهذا. كانت تلك هي المرة الأولى طوال أربعة عشر عامًا قضاها في الإذاعة التي يشعر فيها أحمد سعيد أن البساط قد سُحب من تحت قدميه، وأنه فجأة لم يعد الأمر الناهي في صوت العرب. دخل في سورة غضب عنيفة، وغادر الإذاعة ولم يعد..

بعد مغادرته المبنى، عرف قسم الأخبار خبر احتمال حضور المشير عبد الحكيم عامر إلى الإذاعة لإلقاء بيان مهم بدوره. حاول الحديدي الاتصال بشعراوي جمعة وزير الداخلية لإرسال تعزيزات لحراسة ماسبيرو، إلا أنه أخبره بأن الشرطة الآن ليس بمقدورها حماية المبنى ومنع دخول المشير ورجاله..

حسب تصريحات السيد الغضبان، فإن فاروق خورشيد اقترح استقبال المشير بالاستوديو ويقدمه المذيع بشكل عادي، وفي الوقت نفسه يتم توصيل ستوديو آخر بغرفة التحكم المركزي، ويتم بث مارشات عسكرية على الهواء مباشرة، بينما يتم فصل الاستوديو الذي يذيع منه المشير بيانه عن الهواء، ويسمع البيان داخليًا فقط من خلال مكبرات الصوت الموجودة بغرفة المراقبة الملحقة بالاستوديو؛ حتى يطمئن مرافقو المشير إلى أن البيان تتم إذاعته فعلاً. كان الأمر يمكن ببساطة أن ينفذ بعد إلقاء البيان؛ خاصة لو اتصل أي إنسان من أعوان المشير به وكان يتابع بيانه من أي جهاز راديو، ولكنهم أقرّوا أنه الحل الوحيد المتاح أمامهم، وأن يبقى الأمر سرًا بينهم ويتم إخفاؤه عن الجميع بمن فيهم الحديدي رئيس الإذاعة وعلي خشبة وكيل وزارة الإعلام.

ولكن في النهاية لسبب غير معلوم، لم يحضر المشير عامر ومرة الليلة بسلام، ولم يعرف أحد أبدًا ماذا كان ينوي أن يقول في خطابه الخطير..

دعا الوزير محمد فائق إلى اجتماع عاجل جمعه بمعظم قيادات الإذاعة، وفي مقدمتهم المذيع الأشهر ورئيسا إذاعتي البرنامج العام وصوت الشعب، بالإضافة إلى عبد الحميد الحديدي. كان يبدو وكأنه ينتزع صوته انتزاعًا من أعماق سحيقة، غارقًا في بحار من المرارة والأسى: لقد قبلت مصر قرار وقف إطلاق النار.

كان الجميع يعلم ذلك الخبر، وما كان قبول مصر لذلك القرار إلا محاولة لتقليل الخسائر الفادحة التي مُنيت بها، وحقق دماء روت آلاف الكيلومترات من رمال سيناء. كان قبول المهزوم لا من بيده مقاليد أمره. أكمل الوزير: أمامنا سنوات صعبة لإعادة بناء القوات المسلحة لخوض معركة لا مناص من خوضها لتحرير الأرض.

وأضاف أن بناء القوات المسلحة سوف يستغرق بضع سنين، ولا بدَّ أن نبدأ من الآن في تعديل نغمة الخطاب الحماسي حتى لا تُبقي الجماهير في حالة توتر لفترات طويلة، فنحن بحاجة ماسّة إلى أن تبدأ الجماهير في عمل جاد وفي جو هادئ بعيدًا عن التوتر.. ولهذا فقد اتخذ قراره بفصل الموجات لتعود كل إذاعة لبث برامجها العادية، مع مراعاة أهمية التركيز على ابتكار برامج تتحدث عن كفاح الشعوب وصمودها في ساعات الخطر والإصرار على التحرير.

لم يَرُق الحديث لأحمد سعيد الذي اعترض قائلاً بعصبية: كيف تريدني أن أتحدث، وكأن شيئًا لم يحدث، ونكسة لم ندُق مرارتها جميعا. كنت دومًا صوت مصر لنشر الحماس في كل بلاد العرب.. لا أستطيع أن أفقد ثقة الجماهير العربية فيّ، وأنا من أدعو دائمًا إلى استمرار النضال، والجهد في سبيل القضية.

رد الوزير فائق محاولًا تمالك أعصابه: استمرار النضال مطلوب يا أحمد، بل هو أمر ضروري لكن العبارات التي تُصاغ بها الدعوة لاستمرار النضال ومخاطبة العقل بأسلوب منطقي ونبرة هادئة، هي الطريق الأمثل لكسب ثقة الجماهير وإقناعها بالاستعداد لنضال طويل الأمد، وليس معركة قريبة.

ابتلع المذيع لسانه وآثر الصمت، وإن لم يقتنع بهذا المنطق. وانتظر حتى انفضَّ الاجتماع من دون تعقيب آخر. ما إن وجد نفسه أمام ميكروفونه الأثير حتى استعاد صوته قوته المعهودة وانطلق يقول، إن الهزيمة تتمركز في أسباب سياسية وعسكرية وعالمية وأيضًا شعبية، حيث تتصل بمسئولية الجماهير عن كل الثغرات التنظيمية والحكومية وأيضًا الممارسة الديمقراطية، والتي نفذت منها وبسرعة مذهلة قاسية كل العناصر التي فرضت النكسة. وطالب الجماهير بأن تتحمل مسؤوليتها فوق الحطام، داخل قصر كل حاكم وإمام وخلف كل مسئول، مؤكدًا أن الأمر يتعلق بمصير مائة مليون عربي قبل أن يكون مصير مجموعة من الحكام والمسؤولين.

لم يتوقع أبدًا أن تصريحاته في تلك الليلة ستكون القشة التي قصمت ظهر البعير، وأن النظام وجد أخيرًا كبش فداء لتهدئة غضب شعب بأكمله، ولم يتوان أبدًا عن التضحية برجلٍ كان بوقه الإعلامي لمدة أربعة عشر عامًا على رأس إذاعة صوت العرب. عندما استدعاه الوزير محمد فائق في الصباح وأبلغه بأنه في إجازة مفتوحة من أجل تهدئة أعصابه، وهو قول لطيف لمعنى إبعاده عن ميكروفونه. لم يتقبل أحمد سعيد الأمر كما كان متوقعًا، فثار ثورة عارمة، وتشدق فمه بهجوم شديد على العمل الإعلامي والوزير ومَن يرأسونه، وقال بعبارات حادة اللفظ إنه لم يعد يُشرفه الاستمرار في العمل إذا كان الهدف مواصلة التمويه على الناس وعدم كشف الحقائق.

قرر وزير الإعلام قبول الاستقالة وإنهاء عقد أحمد سعيد.. وتم اختيار «محمد عروق»، أحد الرواد الأوائل بصوت العرب ليشغل منصب مدير إذاعة صوت العرب.

بإرادته أو مرغماً، ابتعد أحمد سعيد عن العمل الإعلامي في الخمسين عامًا التالية، إلا فيما ندر، وكان ثقافة الشعب وتوجهاته هي من تعطي المرء قيمته، وتختلف القيمة باختلاف التوقيت الذي يتم الحكم عليه فيه. على الرغم من أخطائه الكارثية فإن أحدًا لا يستطيع أن يتناسى أن الراديو كان يُدعى بين العامة بصندوق أحمد سعيد،

وأن البسطاء كانوا عندما يبتاعون جهازا جديداً يسألون البائع «بيذيع أحمد سعيد ولا لأ؟».

إنشاء إذاعة صوت العرب، كان في الأساس مقترحاً لجهاز المخابرات العامة وليس للإذاعة المصرية، حيث تقرر إنشاء أول جهاز للمخابرات في مصر في يناير ١٩٥٣، وتم تكليف البكباشي زكريا محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة آنذاك بالإشراف على الجهاز. احتاج الجهاز بوقاً إعلامياً للدعاية لحركة يوليو من ناحية، والوصول إلى قلب كل بيت عربي من ناحية أخرى لبث أفكارٍ قومية حددها النظام. أوكل إلى الشاعر صالح جودت في البداية رئاستها، ولكنه عجز عن تأدية الغرض الذي أنشئت الإذاعة من أجله. كان المطلوب شخصيةً إذاعيةً تبث الحماس الوطني والقومي في قلوب المستمعين، لكن جودت كان ذا شخصية هادئة، ولم يلبّ الغرض المطلوب، وعندها كلف أحمد سعيد بتلك المهمة، فترجع على عرش الإذاعة الأقوى لسنواتٍ طويلة حتى سقوطه بذلك الشكل المدوّي.

كتب جملة: صوت العرب ينادي أمة العرب من قلب القاهرة، وطلب من المذيع حسني الحديدي قراءتها بصوته، وحققت نجاحاً كبيراً رغم أنها جملة قصيرة ولكنها حملت معنىً كبيراً.

كان لأجهزة الإعلام الناصرية تأثيرٌ كبيرٌ حيث ارتفع بثُّ إذاعة صوت العرب من نصف ساعة فقط إلى ٢٤ ساعة يومياً، ولم يكن ذلك غريباً، حيث أدّى نجاح الإذاعة هذا دوراً في دعم ثورة المغرب؛ ومن ثمّ إشعال ثورة الجزائر حتى صياغة بيانها الأول.

في عام ١٩٦٥، رفضت الحكومة البريطانية دخوله بلادها مع الوفد المصري المسافر إلى لندن وطلبت من الرئيس عبد الناصر رفع اسمه من قائمة الوفد، وذلك بسبب توجيه تهمة التحريض على قتل الجنود البريطانيين في عدن إليه. رفض عبد الناصر ذلك، وشارفت الزيارة برُمّتها على الإلغاء إلى أن احتوى هارولد ويلسن الأزمة بإلقاء خطابٍ في مجلس العموم البريطاني..

رحل أحمد سعيد في عام ٢٠١٨، ولكن ذكراه تصرُّ أن تتجدد كل عام عندما يحل يوم ٥
يونيه..

إنهم بعمر أحفادي

أحمد مستجير

(١ من ديسمبر ١٩٣٤ - ١٦ من أغسطس ٢٠٠٦)

أثراك قد مررت يوماً بأحد الأسواق، ونظرت نحو ثمار يانعة من الطماطم ثم هزّزت رأسك برضا، وأنت تغمم: محصول الطماطم جيد هذا العام.

ثم تخرج عملات قليلة من جيبك تناولها للبائع، وتغادر قانعاً لتأكلها هنيئاً مريئاً..

فاعلم - عزيزي - أنك ما كنت بقادر على شراء تلك الثمار التي تُشكّل ركناً أساسياً من وجبات كل بيت مصري إلا بواسطة هذا الرجل..

الدكتور أحمد مستجير مصطفى.. العالم الشاعر.. ورائد الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجيا في مصر والعالم العربي.. من مواليد قرية الصلاحات مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية، التحق بمدرسة المطرية دقهلية، وفي العاشرة من عمره وقعت حادثة ربما أسهمت في تشكيل شخصية الطفل البريء.. فقد قام شفيق أفندي مدرس اللغة الإنجليزية بنهر صديقه يوسف شطا، وتعنيفه عندما أخطأ في إجابة أحد الأسئلة وزجره قائلاً: «روح مُوت». مضت ثلاثة أيام، ولم يظهر يوسف، وفي اليوم الرابع وصله خبر موته. أيقن الصبي مستجير أن شفيق أفندي قد قتل صديقه فبكى بحُرقة، وقرر أن يكتب خطاباً لأحمد ماهر باشا رئيس الوزراء شاكياً هذا القاتل. حاول الناظر إثناءه عن قراره حتى رضخ إلا أنه لم يقتنع أبداً. في جنازة صديقه كانت السماء تمطر، وشارك الطفل السماء في بكائها على يوسف، وسمات الإنسانية تتشكّل في مُحيّاه وتصرفاته رويداً رويداً..

التحق مستجير بعدها بالمدرسة الثانوية، وهناك تأثر بمعلم الأحياء «خليل أفندي» أيُّما تأثر، وقام بترسيخ عدة معتقدات في وجدانه أسهمت في دخوله كلية الزراعة - وكان يُطلق عليها كلية الفلاحين - التي تخرج فيها معلمه..

التحق أحمد مستجير بكلية الزراعة وفيها افتتن بأستاذه في الكلية «عبد الحليم الطوبجي» أستاذ علم الوراثة، فسلك ذات مسلكه، وبلغت ثقة «الطوبجي» في مستجير الطالب أنه لما احتاج أن يكتب مُذكرةً للطلاب، ولم يكن وقته يسمح بذلك، أعطى الطلاب ما كتبه أحمد في المحاضرات..

بدأ مستجير حياته العملية بالعمل كمهندس في الإصلاح الزراعي، ويذكر أنه أثناء إشرافه على الأرض الزراعية في عزبة «الربعمية» المجاورة لقريته لفت نظره طفل يجمع القطن، يقول إنه: «قرأ في وجهه وجه مصر؛ بهجة غامرة، وحزن بعيد وغامض وعميق»، فأعطاه قرشين، بعدها جاء مفتش من القاهرة، وعلم ما فعله مستجير فعنّفه وأوصاه أن يعامل الفلاحين بقسوة حتى يهابوه، ليلتها لم يَنمَ وكتب في مفكرته: «هل تستلزم الوظيفة الجديدة قتل الإنسان داخلي؟.. هل يستكثرون أن يحظى الفلاح مني ببسمة؟ يكرهون أن يُربّت إنسان علي كتف إنسان، أمن أجل ١٥ جنيهاً أحتاجها يقتلون فيّ الإنسان؟»، ومن فوره ترك مستجير العمل الذي لم يستمر سوى ٥٥ يومًا فقط..

التحق مستجير بالمركز القومي للبحوث عام ١٩٥٥، وحصل على الماجستير في تربية الدواجن من كلية الزراعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥٨ ليعمل معيدًا بنفس الكلية. في هذه الفترة عرف من خلال قراءاته «ألان روبرتسون» أستاذ علم الوراثة البريطاني، فراسله وطلب منه مساعدته للالتحاق بمعهد الوراثة جامعة إدنبره فقد كان مُحبًا للعلم بلا كلل ولا ملل؛ ولذلك عندما أتاه الرد بالموافقة، أسرع بإنهاء إجراءات السفر ليحصل في عام ١٩٦١ على دبلوم وراثة الحيوان بتقدير امتياز؛ مما لفت إليه الأنظار بشدة فقد كان الباحث الأول الذي استطاع أن ينجح بذلك التقدير في تاريخ المعهد. بدأ العمل للدكتوراه في وراثة العشائر مع أستاذه وحصل عليها عام ١٩٦٣، وعنه يقول مستجير: «ذلك الرجل الذي سافرت

كي أتلمذ على يديه، أصبح عندي بعد أن عرفته، المثال الحق لرجل العلم! تواضعًا وحُبًا للخير، كان أذكى مَنْ قابلت في حياتي».

استمرت علاقة مستجير بأستاذه حتى وفاة البروفسير في أغسطس ١٩٩٠، وحين عاد بعدها بسنواتٍ طوالٍ إلى إدنبره مع زوجته، وقاما بزيارة منزل أستاذه، وعرف من زوجته قصة موته الميلودرامية حين كان يلقي بمحاضرتة وفجأة صمت وصرخ في الحضور: من أنتم؟ وأين أنا؟، وانقلب طفلاً يتصرف برعونة الصغار وحمقهم، فقد أُصيب بمرض وراثي خطير، بكى أمام زوجة أستاذه، وصرخ مردداً كلمات قصيدة فاروق شوشة: كم أنت قاسٍ أيها الموت.. كم أنت قاسٍ أيها الموت..

فى إحدى رحلاته على الطريق الصحراوي الرابط بين القاهرة والإسكندرية لاحظ كثافة الغاب والبوص في الملاحات ونُموه برغم نسبة الملح المرتفعة، فلمعت في ذهنه الفكرة التي تُنفذ في الفيوم بإمكانية زراعة القمح والأرز في الأرض المالحة بالتهجين الخصري مع الغاب، وحلمه الذي أراد تنفيذه بأسرع وقت هو إثراء الفول البلدي بحمض الميثيونين الأميني لتقرب قيمته الغذائية من اللحم؛ أي أنه يريد تحويل مائدة الغلابة والحرافيش إلى سُفرة البهوات والمستورين، وكان من أحلامه أيضًا إدخال جين مقاومة فيروس الالتهاب الكبدي أكبر عدوّ لأبناء النيل إلى الموز، وغيرها من الأحلام التي هاجسها الوحيد فقراء هذا الوطن الذي يتخلى عنهم الجميع بمن فيهم العلماء..

لم تكن فكرة زراعة الأرز بالتهجين وليدة اللحظة، بل كان عقله الراقد أسفل شعر أشيب بلون نقاء قلبه يبحث منذ فترة عن حلٍّ للأزمات الزراعية التي تواجه مصر؛ خاصة وأن أمريكا قد قامت باستحداث نوع من البذور لا قدرة له على إعادة الاستنبات.. أي أن هذا يحرم الفلاح المصري من حقه الأزلي في الاحتفاظ ببعض البذور من أجل زراعة الأرز في عام موسمي قادم.. وأطلق مستجير على تلك البذور لقب «بذور الشيطان»..

لم تكن الهندسة الوراثية هي كل ما يشغل عقل العالم العظيم.. كان أديبًا وشاعرًا ومفكرًا وباحثًا لغويًا بارعًا بالإضافة إلى علمه البديع.. وكان قبل كل ذلك إنسانًا.. أول قصيدة قام

بكتابتها كاملة كانت في عام ١٩٥٤ بعنوان: «غداً نلتقي» التي قرأها أمام الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، فاستوقفه في المنتصف مُخبراً إياه بكلمات مقتضبة «مَنْ كتب تلك الكلمات شاعر بحق»..

تزوج مستجير من سيدة نمساوية عام ١٩٦٥، ويعترف أنها قد ظلت عميدة حياته كلها لمدة ٣٥ عاماً - كان ذلك الحديث عام ٢٠٠٠ -، ولديه ثلاثة أبناء؛ الأولى مروة حاصلة على درجة الدكتوراه في البيولوجيا الجزيئية في الهندسة الوراثية، ساهمت مع فريق علمي في اكتشاف جين سرطان المثانة في قبيئاً، ويتنبأ لها الكثيرون بأن تكون خليفة والدها، أما ابنته سلمى فهي حاصلة على ماجستير في اللغة الألمانية من جامعة قبيئاً، وابنه طارق مهندس حاصل على الماجستير، ويعمل في مجال الكمبيوتر..

عمل مستجير مدرساً بكلية الزراعة جامعة القاهرة سنة ١٩٦٤، ثم أستاذاً مساعداً عام ١٩٧١، ثم أستاذاً سنة ١٩٧٤، ثم أصبح عميداً للكلية من سنة ١٩٨٦ إلى سنة ١٩٩٥، ثم أستاذاً متفرغاً بها حتى الوفاة، كما أنه كان عضواً في ١٢ هيئة وجمعية علمية وثقافية، منها: مجمع الخالدين، والجمعية المصرية لعلوم الإنتاج الحيواني، والجمعية المصرية للعلوم الوراثية، واتحاد الكتاب، ولجنة المُعجم العربي الزراعي، ومَجْمَع اللغة العربية بالقاهرة..

لأحمد مستجير العديد من الكتب في شتى المجالات، فكُتِب في التحسين الوراثي الحيواني، كتب مترجمة في العلوم والفلسفة، وكتب مترجمة في الأدب بالإضافة إلى كتب أدبية من واقع تأليفه هو..

حصل أحمد مستجير على عدة جوائز:

- جائزة الدولة التشجيعية للعلوم الزراعية ١٩٧٤.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٧٤.
- جائزة أفضل ترجمة علمية ١٩٩٣.
- جائزة الإبداع العلمي ١٩٩٥.

- جائزة أفضل كتاب علمي لعام ١٩٩٦.
- جائزة الدولة التقديرية للعلوم الزراعية لعام ١٩٩٦.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (للمرة الثانية) ١٩٩٦.
- جائزة أفضل كتاب لعام ١٩٩٩.
- جائزة أفضل عمل ثقافي لعام ٢٠٠٠.
- جائزة مبارك للعلوم التكنولوجية المتقدمة (وهي أعلى وسام علمي) لعام ٢٠٠١.
- جائزة أفضل كتاب من معرض القاهرة الدولي للكتاب لعام ٢٠٠٣.

وكما كانت حياته حافلة، أبى أن يفارق الحياة إلا بنهاية درامية عسيرة.. فقد واكب العدوان الإسرائيلي الظالم على بيروت، وشاهد بعينه المئات من الأطفال الصغار يسقطون أرضاً بفعل أسلحة متطورة يقف وراءها جندي جبان، فانقبض القلب العجوز بشدة، واعتصره الألم، وهتف بابنه طارق: إنهم بعمر أحفادي يا طارق.. إنهم بعمر أحفادي..

كانت هذه الكلمات هي كلماته الأخيرة أصيب بعدها بجُلطة دماغية نُقل على أثرها إلى المستشفى، وأودع على أحد أسرة وحدة العناية المركّزة بأحد المستشفيات النمساوية الكبرى. رفض العقل المتيمّ بالإنسانية، المُحبّ للخير، العودة إلى ذلك العالم الدموي المفزع، فغادرت الروح الطاهرة في هدوء وسكينة إلى ربّ رحيم يوم ١٦ أغسطس ٢٠٠٦. دُفن جثمانه بعدها بخمسة أيام في الأرض التي عشقها.. أرض مصر..

قُرَّة عَيْنِ لِي وَلَكَ

أَسِيَّة بنت مُزاحِم

(القرن الخامس عشر قبل الميلاد)

«رأيتُ حُلْمًا أريد منكم تأويله إن كنتم على ذلك قادرين.»

بادرهم مزاحم بجملته فالتفت المُفسِّرون يتبادلون النظرات فيما بينهم، ثم استجمع أحدهم شجاعته، وهو يقول: لعله خيرٌ أيها السيد الشريف.

ابتلع لُعبه بصعوبة، ثم بدأ يقصُّ حلمه: رأيت فيما يرى النائم، كأن شجرة خضراء تخرج من ظهري، فإذا بغرابٍ شرسٍ قد انقضَّ عليها، وقال: أنا صاحب هذه الشجرة.. ما رأيكم أيها المفسرون؟

أوماً كبيرهم برأسه، ثم جمع بقية المفسرين. تداولوا الأمر بينهم في سرعة، ثم تنحى كبيرهم قائلاً: مما أوتينا من حكمة.. نرى أنك سترزق بجارية حسناء صديقة، وتكون عند رجل كافر، وترزق الشهادة..

وَجَلَّ قلب مُزاحِم عند سماعه تلك الكلمات خاصة أن زوجته كانت حُبلى، وقد تزوجا في ليلةٍ اقترن فيها سعد الكواكب بالزُّهرة حسبما أفاد المُنجِّمون. وضعت امرأته فتاة جميلة أسماها «إيست نفرت»، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرنا أن اسمها آسيَّة..

كبرت آسيَّة وكانت فتاة جميلة طيبة مِعطاءة، تُعرف بالخير والكرم. وُصِفَ جمال الفتاة لفرعون، فطلبها للزواج، فرفض أبوها بحجة صِغَر سنِّها، برغم بلوغها سن العشرين عامًا، وهو عمر كبير للزواج في ذلك الزمان. كذَّب فرعون، فقال أبوها: اجعل لها مهرًا، فأبى

فرعون. تلّظف أهل الوساطة بفرعون إلى أن أرسل إليها خُلعةً ومهراً، فأبت، فتلطفوا بها من جديد لأجل مداهنة فرعون، وقالوا لها: أنت على دينك وهو على دينه. كانت آسية تدين بدين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم جميعاً السلام.

في نَسبها تقول المراجع إنها آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان ملكاً لمصر في عهد يوسف - عليه السلام - . أمهرها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب، ومثلها من الفضة، وبنى لها قبةً عظيمة، وجعل لها من الجواري الكثير، وأمر بذبح البقر والغنم فلما صارت عند فرعون دخل عليها، وهمَّ بها، فلم يقدر على ذلك. استمرَّ حاله معها حتى يئس، فرضي بالنظر إليها فحَسب. كلما رأى جمالها الذي يملكه، ولا يقدر على شَمِّ عبيره، امتلأ قلبه بالحسرة..

عاشت آسية حياة مُرفهة وسط القصور والحدائق، مُرفلة في النعيم ومنتمة بجواريتها وحاشيتها، مؤمنة برب يوسف ويعقوب، كافرة بفرعون وعمله وجنوده، وإن كتمت إيمانها خوفاً من بطشه. حظيت بحب طوائف الشعب كافةً بعكس زوجها الذي ظلم بني إسرائيل طويلاً، وكانوا يقومون بأحقر الأعمال وأدناها، وسادت الطَّبَقِيَّة بين الناس..

لم يُرزق فرعون بذكرٍ على الرغم من تعدُّ زيجاته، وأثار ذلك مخاوفه من ضياع مُلكه؛ خاصةً بعد حُلْمه الشهير المفزع، والذي فسره له كهنته على أن غلاماً من بني إسرائيل سيظهر، وستكون نهايته على يديه. اتخذ فرعون قراراً قاسياً، فأمر بذبح كل ذكرٍ يُولد لبني إسرائيل. أمر العسس والقوابل بالطواف والمرور على بيوت بني إسرائيل، ومراقبة كل امرأة حُبلى حتى تلد، فإذا ولدت ذكراً ذبحوه، وإذا وضعت أنثى تركوها. تناقص عدد بني إسرائيل، فاشتكى كهنة فرعون من أنه إذا استمر هذا التناقص، فقد يأتي يوم يضطر فيه المصريون إلى القيام بأعمال الخدمة وغيرها من الأعمال الحقيرة التي وُكِّلت إلى بني إسرائيل، فقرَّر أن يتم الذبح عامًا ويتوقف عامًا..

حملت يوكابد أم موسى بهارون، ووضعت في عام المسامحة من الذبح، ثم حملت في موسى في عام الذبح. ضاقت أمه به ذرعاً، واحتترزت من بداية حملها، فلبست الفُضفاض

من الثياب حتى لا تظهر عليها علامات الحمل حتى تنجبه.. استطاعت أم موسى أن تخفيه بعدها فترةً إلى أن شعرت بالخطر يقترب منها ومن رضيعها..

سمعت يوكابد صوتًا قويًا يتردد في رأسها، يأمرها أن تُرضعه، فتضعه في صندوق مغلق، فتلقيه في النيل الذي كان قريبًا من منزلها.. ارتجف قلبها بشدة وهي تشعر أن ابنها قد ضاع منها إلى الأبد. كانت تعلم أن ذلك الصوت أقوى من ألا تنصاع لأمره، ولكن خوفها كان غريزيًا. من جديد أوحى إليها أن تطمئن، وأنه سيعود إليها كي تقرّ عينها..

كان في قصر فرعون بستان يصله فرع من النهر الكبير زاده بهاء، فخرجت الجوارى إليه ليغتسلن فيه. ولدهشتهن وجدن تابوتًا تحمله صفحة الماء في لطف، كأن النهر ذاته مأمور أن يشملها بالرعاية. أخذنه وظنن أن فيه مالا فحملنه على حالته حتى أدخلنه إلى آسية، فلما فتحت رأت فيه غلامًا، وقعت في محبة جمال مَحِيَّاه على الفور، فرحمته وتعلقت به..

ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»: أن الجوارى التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعه بين يدي امرأة فرعون آسية، فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بالأنوار النبوية، فلما وقع نظرها عليه أحبته حبًا شديدًا..

لما علم المأمورون بالقتل بأن في قصر الملك غلامًا، استأذنوه بأن يدخلوا قصره ويقتلوه، فاستوهبته السيدة المؤمنة منه ودافعت عنه وقالت: «قُرَّةٌ عَيْنٍ لِي وَوَلَدٌ»..

قلب فرعون الصلد يتهشم تحت نظرات عيني آسية الجميلتين الراجيتين، وكان هذا حاله معها على الدوام. تجاوز عن قتل الرضيع، ووافق أن يُبقيه وتربيته آسية بنفسها بين جنبات القصر الملكي؛ أي بمعنى أدق بين ألد أعداء دين الله في ذلك الوقت..

نما الطفل الصغير حتى أتى يوم، ووضعه فرعون في حجره يلعبه، فيقوم الطفل بجذب لحية فرعون بقوة فيشتاط غيظًا. كان سريع الغضب فأمر بقتل موسى، فُتسرع آسية

وتذكّره بأنه طفل لا يقصد، وتقترح عليه بعمل اختبار صغير لاختبار فهمه وعقله. أمر بأن يوضع أمام موسى الجَمْر والثَّمَر، فامتدت يداً الطفل الصغير نحو التمر، إلا أن الله تعالى يرسل جبريل، فيضرب يده كي تقع على الجمر ويضعها في فمه الصغير، فيحترق طرف لسانه فيصبح من بعدها أثلغ، فأنقذ تدبير الله حياة الطفل موسى..

كبر موسى بعدها، وغادر قصر فرعون، وفرَّ صوب مَدِين هَرَبًا من بطشه، ثم أوحى إليه الله ما أوحى، وشد عضده بالرسالة وبأخيه هارون، وأمره أن يعود إلى فرعون وأن يدعوه للإيمان بالله الواحد القهار، وبألاً يشرك به شيئاً. على الرغم من كفر فرعون، واستهزائه بالرسول، فإن آسية قد أدركت أن ما أنزل على موسى هو الحق، وأن ما يدعو إليه فرعون هو الباطل الذي يقود إلى الهلاك..

استمر الحال بأسية فترة ترى وتسمع ما يعانیه المؤمنون بالله، ويحترق قلبها حزناً على ما يلاقونه حتى تقع واقعة ماشطة ابنة فرعون، فتقلب حياتها رأساً على عقب، وقد آن لها أن تجهر بدينها..

وتلك الماشطة ما هي إلا امرأة سالحة عاشت هي وزوجها في ظل مُلك فرعون، زوجها مقرب من فرعون وكان يُدعى حزقيل، وهي خادمة ومُربّية لبنات فرعون، فمَرَّ الله عليهما بالإيمان. علم فرعون بإيمان زوجها فقتله، وظلت هي تعمل في بيت فرعون في كتمان ووَجَل، تمشط شعور بنات فرعون، وتنفق على أولادها الخمسة.. تطعمهم وترعاهم..

فبينما هي تمسّط ابنة فرعون ذات يوم، إذا بالمشط يسقط من يدها، فقالت بتلقائية مثلما نفعل: بسم الله، فسألته ابنة فرعون: الله.. أبي؟

فصاحت الماشطة بابنة فرعون: كلاً.. بل الله.. ربّي.. وربُّك.. وربُّ أبيك.

فتعجبت البنت أن يُعبد غير أبيها، وأسرعت لأبيها تخبره، فعجب أن يوجد في قصره من يُعبد غيره..

فدعا بها، وسألها: مَنْ رَبُّكَ؟

فقالت وقد فاض بها: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فأمرها بالرجوع عن دينها، وحبسها، وضربها، فلم ترجع عن دينها.. فأمر فرعون بقدر من نحاس، ثم ملئت بالزيت.. ثم أُحمي.. حتى غلا..

أوقفها أمام القدر.. فلما رأت العذاب.. أيقنت أنما هي نفس واحدة تخرج وتلقى الله تعالى.. كتم فرعون ذهوله من ثباتها، ولكن نفسه صوّرت له أن لا سبيل لحفظ هيئته أمام حاشيته إلا تحطيم إيمانها، مهما كانت الطريقة. كان يعلم أن أحبّ الناس إليها أولادها الخمسة.. الأيتام الذين تكدح من أجلهم، فأراد أن يزيد من عذابها، فأحضر الأطفال الخمسة.. تدور أعينهم من شدة الخوف، ولا يدرون إلى أيّ عذابٍ يُساقون..

لما رأوا أمّهم تعلقوا بها يبكون، فانكبّت عليهم تُقبّلهم وتبكي.. وأخذت رضيعها الجائع فضمّته إليها.. وألقمته تديها تطعمه..

فلما رأى فرعون هذا، أمر بأكبرهم، فجره الجنود جرّاً ودفعوه إلى الزيت المغلي، والغلام يصيح بأمه ويستغيث، ويسترحم الجنود محاولاً الفكّك من بين أيديهم الغليظة، ويتوسل إلى فرعون محاولاً استعطاف قلبٍ لا يعرف للرحمة سبيلاً..

ينادي الطفل إخوته الصغار، ويضرب الجنود بيديه الصغيرتين، وهم يصفعونه ويدفعونه، وأمه تنظر إليه بحُرقةٍ لا تدري ماذا تفعل، وما هي إلا لحظات حتى ألقى الطفل في الزيت، والأم تنتحب وتنظر، وإخوته يغطون أعينهم بأكفّهم الصغيرة، محاولين ألا يروا عذاب أخيهم، حتى ذاب لحمه عن جسمه النحيل، وطفت عظامه بيضاء فوق الزيت، فنظر إليها فرعون وأمرها بالكفر بالله فأبت..

غضب فرعون وأمر بولدها الثاني، فسُحب من بين أحضانها وهو يبكي ويستغيث، وما هي إلا لحظات حتى ألقى في الزيت، وهي تنظر، حتى طفت عظامه بيضاء، واختلطت بعظام

أخيه، والأم ثابتة على دينها موقنةً بقاء ربّها..

ثم أمر فرعون بالولد الثالث فسُحب، وقُرّب إلى القدر المغلي ثم حُمل وغُيّب في الزيت، فأصابه مثلهم. أمر فرعون أن يُطرح الرابع في الزيت، فأقبل الجنود إليه، وكان صغيرًا قد تعلق بثوب أمه، فلما جذبته الجنود، بكى وانطرح على قدمي أمه ودموعه تجري على رجليها، وهي تحاول أن تحمله مع أخيه وأن تودعه وتقبّله وتشم رائحة جسده مرةً أخيرةً قبل أن يفارقها، فحالوا بينه وبينها، وحملوه من ذراعيه الصغيرتين، وهو يتوسل بهمهماتٍ غير مفهومة..

وما هي إلا لحظات حتى غرق في الزيت المغلي، وغاب الجسد وانقطع الصوت الباكي، وشمّت الأم رائحة اللحم ثم نظرت إلى عظامه، وقد رحل عنها إلى دارٍ أحقّ..

جاهدت كي تتجلّد وتتماسك، فالتفتوا إليها، وتدافعوا عليها منتزعين الخامس الرضيع من بين يديها، وكانت قد ألقمته ثديها، فلما انثزع منها، صرخ الصغير وبكت هي، فلما رأى الله تعالى ذلّها وانكسارها وفجيعتها بولدها، أنطق الصبي في مهده وقال لها: يا أمّاه اصبري فإنك على الحق.

ثم انقطع صوته عنها وغُيّب داخل القدر مع إخوته..

كانت تستطيع أن تحوّل بين أطفالها وبين هذا العذاب، بكلمة كفر واحدة تُسمعها لفرعون، لكنها علمت أن ما عند الله خيرٌ وأبقى..

ثم لما لم يتبقّ سواها، أقبلوا عليها كالكلاب الضارية، ودفعوها إلى القدر، فالتفتت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجة.

فصاح بها وقال: ما حاجتك أيتها الكافرة؟

ف قالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي فتدفنهما في قبر واحد.

قال في ضيقٍ: سأفعل.

أغمضت عينيها بعد كلمته، وألقت في القدر، فاحترق جسدها الطاهر وطفت عظامها..
أسية الناظرة من كوة في قصر فرعون تتابع في حسرةٍ ما لحق بأختها المؤمنة، وكيف
تُعذب وتُقتل، وهى صابرة متمسكة بإيمانها برّبها، فلم يفتّ هذا الإرهاب الوحشي في
عضدها، وازداد إيمانها برّبها..

وبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون، وجعل يخبرها في شماتة وزهو بخبر امرأة حزقيل،
وما صنع بها، وكيف عذبها، وكيف قتلها. نظرت إليه في ثبات المؤمن الواثق من معية الله
تعالى وهي تقول: ويل لك يا فرعون! ما أجراك على الله!

هتف مصدومًا: أي إله.. لا يوجد إله غيري.. أجننت يا امرأة أو أصابك الخرف؟!!

فقلت: ما بي من جنّة، ولكني آمنت بالله ربي وربك ورب العالمين.

لم يتمالك أعصابه، وكاد أن يفتك بها، ثم تذكّر أنها هي المقربة إلى قلبه، فتركها، ثم دعا
أمّها، وقال لها: ابنتك قد أخذها الجنون الذي أخذ الماشطة.

خلت بها أمّها، وألحت عليها في الرجوع عما قالت، فأبت أن تكفر بعد إيمانها، فقد أدركت
أن الدنيا مهما طال نعيمها فهي إلى زوال. استعصمت أسية بالله تعالى تستمد منه العون
والثبات..

تأكّد فرعون من صدق عزمها، وأنها لن تعود إليه، وقد كفرت به، وهو القائل «أنا ربكم
الأعلى». أتوه بها، فمدّت بين يديه علي لوح، وربّطت يداها وقدمها في أوتادٍ من حديد،
وأمر بضربها فضربت، حتى بدأت الدماء تسيل من جسدها، واللحم ينسلخ عن عظامها،
فلما اشتدّ عليها العذاب، وعاينت الموت، رفعت بصرها إلى السماء وقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي

عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ [سورة
التحریم، الآية: ١١].

وارتفعت دعوتها إلى السماء، فيقول ابن كثير: فكشف الله لها عن بيتها في الجنة..

فتبسمت، ولم يتورع فرعون الذي أحبها وهام بها عن قتلها عندما تأكد من إيمانها بالله
وكفرها به، فقد وصلت وإياه إلى المفاضلة بين الحياة ونعيمها الزائل، أو الموت والعذاب
في سبيل ما عرفت من الحق، فاختارت الأخيرة راضية غير يائسة من رحمة ربها..

حَسْبُنَا أَنْ تَلَّكَ الْمَرْأَةُ الْمِصْرِيَّةَ الْقَوِيَّةَ، الْمَسْلَمَةَ بِقِضَاءِ اللَّهِ، جَاءَ اسْمُهَا مَقْرُونًا مَعَ مَرْيَمَ ابْنَةِ
عِمْرَانَ وَخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ
وَأَرْضَاهُنَّ -، كخير نساء العالمين..

رضي الله عن آسية بنت مزاحم المؤمنة المخلصة التي احتضنت موسى عليه السلام،
ورعته في طفولته وصباه، والتي اختارها رب العالمين كي تكون إحدى زوجات نبيه محمد
- صلى الله عليه وسلم - في الجنة..

قُدَيْسُ المِقَاوِمَةِ

بِنِيَامِينَ

(٥٩٠ - ٣ من يناير ٦٦٣)

استغلَّ المُلْتَمُّ ظلامَ الليلة التي اختفى فيها القمر وراء السُّحُب. الرياحُ الشديدة والبرودة القارصة تشيان بمطرٍ قريب. قدماه تتركان آثارًا في الوحل المترسب من أمطار الليالي السابقة، ولكنَّ حذاءه الغليظة ساعدته على تحطيه، والاقتراب من ذلك السور الحجري المنخفض، فتجاوزه بوثة رشيقة، ليصبح داخل نطاق المبنى الفقير المُكوّن من طابق واحد. توقف لحظات ليتيقن أنه لم يسمعه أحد. دنا متسللاً من إحدى النوافذ التي التمع من خلفها ضوء شمعات يتراقص رقصاتٍ حزينة. أزاح الغبار المُتكتّف بقماش كُمَّه، وأصق عينيه بالزجاج طمعًا في رؤية أوضح.

شملته قُشْعْرِبِرَةٌ منتصرة عندما وقعت عيناه عليه غارقًا في قراءة كتاب عتيق عملاق، مستبصرًا بضوء بسيط، ويتعاطى مشروبًا ساخنًا يتعالى منه البخار. لم يكن ليخطئ معرفته أبدًا على الرغم أنه لم يره إلا مرتين أو ثلاثًا خلال زيارته القديمة للإسكندرية مع والده الذي كان متدينًا تقيًا، ولكن صورته قد انطبعت في مُخَيَّلَتِهِ لم يستطع الزمن محوها. لم يكن يحتاج لأكثر من تلك النظرة كي يتأكد أنه قد بلغ مبتغاه. تراجع في حذر من حيث أتى وعيناه تذرعان الأرجاء ليطمئن..

للظلام الأعيبه. كان قد اقترب كثيرًا من السور، حينما دهس بحذائه الضخمة ذيل هرة ناعسة، فأطلقت الأخيرة مواءً طويلًا عاليًا كأنها تُحتضر. أسرع الخُطَا ولكن بحذر. المواء وصل إلى مسامع الجِراء المُعدّة للحراسة، فلبت النداء كأي جرو يحترم قوانين الطبيعة الأم، وردت ببُباحٍ كثيفٍ لا ينقطع يجعل الموتى يتململون في قبورهم. سرعان ما امتلأت

الساحة بالرهبان والشَّمَّاسين الذين أدركوا بسهولة أن مواء القطة كان رحمة من السماء كي يفتكوا بالملثم قبل فراره..

أصرَّ الأب أن يقابله بنفسه نقيضًا لنصائح أعوانه. كانوا قد قيدوه بالحبال في مقعده المُعدَّ من الخوص، وأزاحوا اللثام عن وجهه، فبدت ملامحه التي لفتحها شمس الصعيد الحارقة. سَحَب البابا بنيامين مقعدًا، وجلس بالقرب منه حتى شعر كلاهما بسخونة أنفاس الآخر، وقال الأب بصوت هادئ: أنت مصري؟

أجابه بإيماءة من رأسه، فنكَّس البابا رأسه ثواني في أسى، قبل أن يسأله: وماذا أردت يا بُني؟

لم يُجبه، ولم يُعد البابا سؤاله، بل سأله سؤالًا جديدًا: أتعرف من أنا يا بني؟

أجاب أخيرًا: أجل، أعرفك جيدًا.

- أنت مؤمن؟
- كلاً، ولكن أبي وإخوته كانوا كذلك.
- ولمَ لمَ تؤمن؟
- وهل نفعهم إيمانهم بشيء؟

ارتجَّ البابا في مقعده، ولم يُجب، في حين استدرك الرجل مُغاضبًا: هل سد الإيمان جوع بطونهم، هل ستر أجسادهم من البرد، هل آمنهم بطش البيزنطيين؟.. هل نجَّك أنت من عذابهم؟

أراد بنيامين أن يسمعه للآخر، فاستزاده بنظرة من عينيه: ها أنت مختبئ في مكان ناءٍ وسط هضاب الصحراء، لا تدري أيُّهم أكثر بك رافة، جنود المُقوقس أم حيواناتها الضارية؟.. ليتته كان شبيهًا بكاتدرائيتك العظيمة في الإسكندرية، أو كنائس الرب التي شيدها أسلافك في شتى ربوع القطر. أتدري ماذا حلَّ بالكنائس والبيع التي

أنفقتم في سبيلها الكثير من أقواتنا أثناء اختبائك هنا كالجُرُذ.. هدمها المقوقس
وعاث في الأرض فسادًا، تمامًا كما فعل الفُرس عبدة النار.. أي إله تريدني أن أؤمن به،
إلهك أم إله هؤلاء أم إله أولئك؟.

- الإله يا بُني الذي خلقتني هؤلاء وخلق أولئك، والذي هو في السماء يسمع ويرى،
ويعرف يقينًا من هو العبد المؤمن فيبتيه ليختبره، ويعرف يقينًا من هو العبد الذي
غادر حظائره فيمده في طغيانه وغروره ثم يُنزل عليه غضبه.
- وفيَم نفع هذا الإله أبي، وقد قُتل غيلة وغدرًا يحسب أنه شهيدٌ في سبيل دينه،
واستولى الجنود على كل محتويات محلّه قبل أن يُحيلوه أنقاضًا، وألقوني مع أمي
في العراء دون ملجأ يأوينا؟... وفيَم نفعك أنت، وقد هربت ومعك أساقتك خوفًا
ورهبًا، واحتميت في ذلك البيت الذي لا يرقى أن يكون ديرًا، محاطًا بكتب عتيقة،
ومتدثرًا برداءٍ خفيفٍ لا يحميك صهد النهار أو برودة الليل؟
- اختبأنا لنحفظ الدين الحق من الضياع، لا خوفًا من المقوقس وجنوده.
- الدين الحق... هذا هو العبث ذاته... القوي يضطهد الضعيف دومًا... طبيعة واحدة أم
طبيعتان... خلقيدونيون وغير خلقيدونيين... هُراء. لو انقلب ميزان القوى لاضطهدت
أنت وأتباعك أتباع الكنيسة البيزنطية كما فعلوا. مالنا نحن بكل هذا، لا نفهم شيئًا مما
تختلفون حوله... ضرائب تزيد وفقر مُدقع، والمصريون دومًا بين شقي الرّحى، لا
يرحمهم أحد.. أوذينا من قبل أن تأتونا، ومن بعد ما أتيتم.

الحديث الكثير المندفع جعل حلقة جافًا، ورآه بنيامين يجفف شفثيه بلسانه، فصبَّ
بعضًا من الماء في وعاء، وناوله إياه، فتجرّعه في سرعة حتى ارتوى، فعاد بنيامين
إلى مقعده، وتحدث بصوتٍ هادي: يُحزنني عدم إيمانك، وتُسعدني ثقافتك
ومحاولتك للفهم.

نظر إليه الرجل نظرة خافية، ثم ابتسم في استخفافٍ ساخرٍ دون أن ينطق بحرف،
فقال البابا: مَنْ استأجرك يا بُني؟

- لم يستأجرني أحد... الأقاويل تتردد كثيرًا حول هذا البيت المنعزل، وبعض العامة استطاعوا رؤية شماسيك يقضون حاجياتهم في الأسواق، ثم يروحون ويجيئون إليه. تحرّبت وراقبت.. ثم تبعتهم إلى هنا.. أدركت ببعض الحنكة أن تجمّعهم هذا مريب، وأنهم قطعًا أشبه بشغالات النحل تحوم حول ملكتها. كنت موقنًا بأن البابا الهارب من بطش المقوقس منذ عدة سنوات لا بُدَّ وأنه يختبئ هنا، وها قد صدق حدسي.. تخيّل المكافأة التي كنت سأحصل عليها من الروم، إن لم أقع في يد رجالك.
- ما ظنُّك فيّ؟
- شاب فقير تربّع على مقعدٍ يفوقه حجمًا، ووجد نفسه غير قادر على حماية المؤمنين به، فآثر الهرب تاركًا إياهم في العراء؛ خوفًا على حياته من البيزنطيين، لعلَّ يأتي محتل آخر فيطرده المحتل الأول.

مال بنيامين إلى الأمام، وقال: تخيّل يا صديقي، هذا إن سمحت لي بشرف صداقتك، أنك على الدفة المقابلة تمامًا للصواب.

ثم استطرد: ما كنت يومًا فقيرًا، بل كنت من أسرة فاحشة الثراء في بلدة برشوط بالبحيرة، وبعدها آلت إليّ كل ثرواتهم، بعث كل شيء، واتجهت للرهبانية على يد راهبٍ شيخ، كان اسمه ثيونس. تعلمت منه الكهنوتية والرهبانية، وسقاني من عصارة إيمانه وتقواه. لازمته حتى انتقل إلى أمجاد الرب السماوية. الربُّ أعدني لأقود سفينة الإيمان، وحتى حين ضاقت حلقاتها، واشتد الكرب، لم يتركني وحيدًا في مواجهة الطاغية المقوقس، بل أرسل إليّ ملكًا، ليوحي إليّ بأن عصرا جديدًا من الظلم على وشك البدء، وإن لم أنجُ بحياتي، وحياة رهباني، ربما يضيع هذا الدين إلى الأبد. كُتب علينا أن نصمد، حتى تأتينا النجاة من حيث لا ندري.

- تصمد حتى يأتي محتل آخر، من الممكن أن يفعل بنا فظائع أشد وأقسى.
- أتقصد الفرس؟ لا أعتقد أنهم سيكررون محاولة غزو مصر من جديد بعد انتصار الروم عليهم.

• اخرج من قمقمك أيها العبد المؤمن. العرب قد دخلوا سيناء.

تراجع بنيامين في دهشة حقيقية، مكرراً: العرب؟ ومال العرب بنا؟

أطلق الشاب قهقهة عالية، وهو يسأله: ألم تسمع عن الرجل الذي ظهر في بلاد العرب مُدَّعِيًا النبوة؟

• بلى، بلغتني مثل هذه الأخبار من أحد التجار منذ عدة سنوات، ولكن... ألم تقتله قبائل العرب؟

• نعم، لم يقتلوه، بل انتصر عليهم، وادّعى هو الآخر أن دينه هو الحق، يغيث الملهوف، وينصر الضعيف، ويمحق العبودية... كثيرٌ من هذا الهُراء وكأنه قادر على إصلاح العصا العوجاء... يقولون إنه استطاع نشر هذا الدين حتى آمنت به معظم قبائل العرب، وجاء خليفة له من بعده، كان صاحباً له، بدأ غزو بلاد العراق والشام، ثم لحق بصاحبه، فجاء ثالثهما، الذي أرسل جيشاً لغزو بلادنا.

اتسعت عينا بنيامين في محجريهما، وهو يستمع إلى كل هذا الكَمِّ من الأخبار الجديدة عليه تماماً، حتى وصل إلى الجزء الخاص بفتح مصر، فصاح في حماس: أحقاً ما تقول يا فتى؟

• وهل أنت سعيد لهذه الدرجة؟ هل تظن أن راكبي الإبل هؤلاء قادرون علي هزيمة جحافل جيوش الروم؟ حتى وإن صدق ظنك، سنستبدل مُحْتَلًا بمحتلّ.

• كلاً ورب العالمين، أنت لا تعرف العرب مثلما أعرفهم، إنهم قوم يدينون بالقوة والكرامة، وإن سلطت السيوف على رقابهم، فما بالك وقد اتبعوا دينًا يحثهم على مكارم الأخلاق مثلما تقول.

أطرق قليلاً مفكراً، ونظرات الفتى ترقب ماذا سيقول، قبل أن يرفع رأسه متحدثاً في تودة، وكأنه يحسب وقع كلماته: أيها الشاب.. كنت تنوي الوشاية بمكاني للروم، أليس

كذلك؟

أوما الفتى برأسه إيجابًا، فاستدرك البابا الحكيم: هل كان ذلك لثأر شخصي بينك وبينني، أم رغبة في المال؟

- مالي أنا بك؟... المال بالطبع.
- إذن سأعرض عليك عرضًا يُرضيك ويُرضيني.

نجح البابا في استمالة الشاب إليه، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من إفشاء مكانه، وعلى الرغم من اعتراض المحيطين به، ومطالبتهم بقتله، درءًا للمخاطر، فإنه أصرَّ على رأيه، وكان كالعادة صاحب الكلمة الأخيرة. أصبح الشاب عينًا للبابا خارج أسوار الدير المنزوي، ينقل إليه آخر الأخبار عن تقدم جيوش المسلمين بقيادة الفاتح عمرو بن العاص، وكيف يستعد جيش المقوقس لمجابهته، نظير بضع عملات نقدية كل حين وآخر، جمعها من تبرعات المؤمنين الأتقياء. لم يُثر الشاب الشكوك، وقد عُرف عنه عداؤه الواضح للكنيسة الأرثوذكسية، بل واستطاع التقرب إلى بعض جنود الروم، واتخاذهم أصدقاء..

صدق حدس البابا بنيامين الحكيم، فبعدما تجاوز جيش عمرو بن العاص سيناء مرورًا بالعريش والفرما، متبعًا نفس المسار الذي اتخذته الإسكندر الأكبر في فتحه لمصر قبل عدة قرون، اتجه صوب حصن بابليون في بلبيس، وكان أقوى الحصون البيزنطية في هذا الوقت، وبدأ في حصاره دون إراقة أي دماء. كان ذلك في عام 6٤١م، واستمر الحصار سبعة أشهر كاملة حتى سقط الحصن. اختار ابن العاص مكانًا صحراويًا يُعدُّ عسكريًا موقعًا استراتيجيًا جويًا شمالي حصن بابليون، وأقام فيه مدينة الفسطاط، كأول مدينة إسلامية في مصر، فوق عدة تلال يحدوها جبل المقطم شرقًا، وخلفه الصحراء التي يجيد فيها العرب الكرّ والفرّ والحرب، والنيل غربًا، ومخاضة بركة الحبش جنوبًا، وهما مانعان طبيعيان..

الأخبار تتوالى على البابا بنيامين من الشاب المُلثم، فتارةً هروب المقوقس، وسقوط حصون أخرى في الدلتا والصعيد تارةً أخرى، حتى أتت الطامة الكبرى للبيزنطيين بسقوط العاصمة الإسكندرية، معلناً نهاية العصر البيزنطي في مصر، وبداية العصر الإسلامي..

نودي في البلاد بدخول الإسلام، فأمن به معظم أهل مصر، واختار الباقون البقاء على دينهم دون أن يمسه جيش المسلمين بمكروه، على أن يدفعوا الجزية، ما لم يكونوا من الأطفال أو الشيوخ أو النساء. شعر المصريون أخيراً بأنهم قد استعادوا جزءاً من حريتهم وكرامتهم، على الرغم من أنهم لم يتولوا حكم بلادهم، ولكن الوالي الجديد للبلاد نجح في فرض حالة من العدل والرحمة بين أصحاب الديانات الإبراهيمية الثلاث، وأزاح عن رقابهم أطواق الفرس والروم التي كَبَلَّتْهم طويلاً..

دخل الشاب الملثم في الدين الجديد، واتخذ لنفسه اسم محمود تيمناً بنبي الإسلام، وإن لم يمنعه ذلك من ممارسة عمله الذي داوم عليه لوقتٍ طويل. فرح بنيامين بإيمانه على الرغم أنه لم يعد لكنيستته، ولكنه قبل جبهته، وهو يقول: كلنا عبادٌ لله يا فتى.

جاءت اللحظة الحاسمة التي انتظرها البابا طويلاً، حين كتب عمرو بن العاص صكاً بالأمان نشره في جميع أنحاء مصر، دعا فيه البابا بنيامين إلى العودة لكرسيه، وأمنه على حياته فظهر البابا، وذهب إلى عمرو بن العاص الذي احتفى به، وردّه إلى مركزه عزيز الجانب موفور الكرامة. بدأ البابا في استرداد الإبراشيات التي أخذها الفُرس، وعمّر الكثير من الأديرة في وادي النطرون بعد خرابها، وجمع إليها رهبانها الباقين المُشْتَتين. تملّكت الرغبة من بنيامين في إعادة تعمير كنيسة مارمرقس بالإسكندرية، ولكن وافته المنيّة في ٨ من طوبة ٣٧٨ للشهداء، الموافق ٣ من يناير ٦٦٣م بعد حياةٍ حافلة..

صُراعٌ وعُزلةٌ

عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق
السيوطي (٣ من أكتوبر ١٤٤٥ - ١٧ من أكتوبر
١٥٠٥)

خفق وميض لهب المسراج لحظة، ثم عاد إلى توهجه المعتاد. نظر نحوه في ضيق، ونظرة سخط تلتع في عينيه لائماً إياه على قطع حبل أفكاره الممتد بلا توقف. غمس ريشته في محبرته الكبيرة، وأراد العودة لاستكمال ما بدأه، ولكن ذهنه كان قد شرد، فزفر في بطنه، ثم قام من مقعده، واتجه نحو النافذة ناظراً عبر حُصَّاص مشربيته إلى الخارج..

كان المنزل الجميل يقع بجزيرة الروضة، مُطلًا على مقياس النيل في موقعه القديم في ذلك الحين. حرَّم على نفسه الاستمتاع بكل ذلك، وارتاح إلى رهبانيتها التي ابتدعها بنفسه..

في ذلك الوقت لم يكن قد بلغ من العمر أزدله، بل كان قد تجاوز الأربعين ببضعة أعوام قليلة. ما كان اعتزاله الحياة وتحاشيه الخلق إلا غضبًا منهم وسخطًا عليهم واحتجاجًا على معاملتهم وعدم تقديرهم له. اعتزلهم وعكف على الكتابة حتى تجاوزت مؤلفاته الستمائة كتاب، ولو وُزع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليوم الواحد ٤٠ ورقة، على أن القسم الأكبر من تأليفه كان جمعًا وتلخيصًا وتذييلًا على مؤلفات غيره، أما نصيبه من الإبداع الذاتي فجد قليل..

حتى هذا الرقم (٦٠٠ كتاب)، ليس مؤكدًا ودقيقًا، وتضادت فيه الأقاويل مثلما تضادت الأقاويل عن جلال الدين السيوطي نفسه، فعدَّ له تلميذه عبد القادر الشاذلي في كتاب «بهجة الحافظين بترجمة حافظ العصر جلال الدين» ٥٢٤ عنوانًا، بينما ذُكر في كتاب

«مكتبة جلال السيوطي» ٧٢٥ عنوانًا. أعدَّ أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني دليلًا لمخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، أوردوا فيه ٩٨١ عنوانًا ما بين مخطوط ومطبوع ومجهول المكان أو مفقود، فهو دليل لمؤلفاته لا لمخطوطاته فحسب، وهذا الرقم فيه الكثير من المكررات التي خفيت عليهما لكونهما يجمعان لا يحققان..

سقطت الخلافة العباسية في بغداد عام ٥٦٦هـ، الموافق عام ١٢٥٨م في أيدي المغول وتحطم معها كل شيء، بدءًا من النظام السياسي الذي سقط، والخليفة الذي قُتل، وانتهاءً بمكتبة بغداد العظمى التي أُقيت في نهر دجلة. في أقصى الغرب زالت دولة الإسلام بالأندلس بعد سقوط غرناطة عام ٥٨٩٧هـ، الموافق عام ١٤٩٢م، ثم جاءت معها محاكم التفتيش لتقضي على البقية الباقية من مسلميه، ويحرق رهبان هذه المحاكم مكتبة الإسلام العامرة هناك. بدا المشهد وكأن المغول والمسيحيين يطوون سجادة الإسلام من خريطة العالم، غير أن هذه الهزة السياسية العنيفة واكبها صعود ثقافي وعلمي للمسلمين، حيث ظهر عصر الموسوعات الضخمة في العلوم والفنون والآداب، والذي استمر أكثر من قرن ونصف القرن..

على الرغم من عزلته الاختيارية، فإن العالم الفقيه كان يشعر دومًا بمرارة في حلقه، وغصة تمنعه من التنفس بحرية. ودَّ لو شعر بتقدير من الناس، أو بمقدار ضئيل من حُسن المعاملة، ولكنه ووجه بانتقادات حادة مستمرة من علماء عصره، الذي واكب فترة من أعلى فترات ازدهار المجتمع العلمي الثقافي، وانحطاط الجانبين: الاقتصادي والأخلاقي على النقيض..

على الجانب الاقتصادي، فقد أدى اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح عبر أفريقيا إلى تحوُّل معظم سبل التجارة عن مصر والشام؛ مما أدَّى إلى اختلال رهيب بين ميزانَي الواردات والمدفوعات بالمفهوم الاقتصادي الحالي؛ خاصةً أن دولة المماليك كانت بالغة البذخ والإنفاق، وكانوا ينعمون بفخامة القصور ورفعة الحفلات ورُقي الملابس والأطعمة، التي لم يتخيل أحدهم قط أثناء تعرية النحاس لجسده في أسواق العبيد وبيعه بثمنٍ بخس، أن تكون تلك مكانته وسط الملوك والأمراء. كان سوء مآل البلاد دومًا إلى

أزمات اقتصادية طاحنة، يحلُّ فيها البلاء على المصريين الزَّرَاع البسطاء، بينما يرفل السلاطين والولاة في نعيم ما نهبتة أيديهم حتى إنهم كانوا يمتلكون خزانات للأموال عُرفت باسم خزانة الخاص، في الوقت الذي يعاني فيه بيت مال المسلمين الخواء..

شهدت الصناعات في ذلك الوقت تقدماً كبيراً، وكان أكثرها ازدهاراً - كحالٍ مصر دوماً - هي صناعة النسيج وكانت تُدعى «طِرَاز»، وإن لم يمنع ذلك باقي الصناعات من تحسن واضح، مثل صناعة السجّاد وصناعة الزجاج والتكفيت، وهو تطعيم الأواني والأباريق والأدوات المعدنية بالمعادن النفيسة - غالبًا الفضة وأحيانًا الذهب - واشتهر صنّاع القاهرة كثيرًا بتلك الصناعات المتطلبة مهارة يدوية عالية وذوقًا رفيعًا..

على الجانب العلمي الثقافي، فعلى الرغم من أصول المماليك غير العربية سواء أكانوا من المماليك البحرية أم البرجية، فإنهم اهتموا باللغة العربية وعلومها اهتمامًا بالغًا، واهتموا بحُسن الخط والفقه وازداد نور الأزهر بريقًا ولمعًا على العالم الإسلامي، وارتفع مشايخ الفقهاء الأربعة؛ المالكي والحنبلي والحنفي والشافعي، إلى مصافِّ كبار العلماء، فقدَّسهم المماليك حتى وصلوا في بعض الأحيان إلى تقبيل الأيدي لنيل الرضا والبركة، وإضفاء مزيد من الشرعية الزائفة لحكمهم. ساعد ذلك الرياء على تسرُّب الفساد إلى نفوس هؤلاء العلماء، حفاظًا على مكانتهم وأرواحهم فبالغ بعضهم في محاباة السلاطين والولاة، وتطويع أمور الدين كما يشاءون، حتى فاض الكيل مرارًا بالمصريين الذين حاولوا الثورة على الظلم والاستبداد فقمعتهم أسلحة الحرس الباطشة، وسحلتهم أحذيثهم الثقيلة..

هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين خن الخضيرى الأسيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي. وُلِد في القاهرة سنة ٨٤٩هـ ونشأ فيها، ثم رحل إلى الشام واليمن والحجاز والمغرب والهند، ثم عاد إلى مصر واستقر فيها حتى وفاته، نشأ السيوطي يتيمًا، حيث تُوفِّي والده وهو في السادسة من عمره، واتجه إلى حفظ القرآن وأتمّه قبل أن يتم الثامنة من عمره، كما حفظ بعض الكتب؛ مثل: العمدة، وألفية ابن مالك، ومناهج الفقه والأصول، وكان محلَّ رعاية وعناية العديد من العلماء من رفاق أبيه، حيث

كان والده من العلماء الصالحين ذوي المكانة العالية والرفيعة، وكان العديد من أبناء الوجهاء والعلماء يتلقون العلم على يديه. بدأ بطلب العلم سنة ٥٨٦٤هـ، ودرس الفقه والنحو والفرائض، وقبل أن يمضي عامين أُجيز بتدريس اللغة العربية، وألّف كتابه الأول: شرح الاستعاذة والبسملة، وهو في السابعة عشرة من عمره، وجلس السيوطي مع ١٥٠ شيخًا، وكان منهجه في الجلوس إلى المشايخ أن يختار شيخًا واحدًا يجلس إليه، وإذا تُوفي انتقل إلى غيره..

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عددٍ من علماء عصره، أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي اتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه..

لم يقف السيوطي مكتوف الأيدي أمام تلك الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة، وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألّف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها «مقامة الكاوي في الرد على السخاوي» نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام، وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له من اعتداء في الخانقاه البيبرسية، أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألّف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها المقامة اللؤلؤية، ورسالة «التنفييس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس».

كان عالمًا ذا ثقل علمي رفيع، ولكنه عانى دومًا من عقدة الاضطهاد، والشعور بأنه كان يستحق المزيد من التقدير والقرب من ولاة الأمور..

تنبّه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوّبوه إلى هذا العالم الجليل من سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد أن يسترضيه، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرّغه للعبادة والتأليف.

تمنى السيوطي أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة لعلمه الغزير، فيقول: «إني ترجّيت من نِعَم الله وفضله أن أكون المبعوث علي هذه المائة؛ لانفرادي عليها بالتبحّر في أنواع العلوم». وهذا لَعَمري قول عجيب!!

يبقى «تفسير الجلالين» أشهر كتبه على الإطلاق، وهو مختصر في تفسير القرآن. أَلَّفَ القسم الأول منه جلال الدين المحلي حيث بدأ بالتفسير من سورة الكهف حتى سورة الناس إضافةً إلى سورة الفاتحة، ولم يُمهله القَدْر، فتُوِّفِي المحلي سنة ٨٦٤ هـ قبل أن يكمل باقي التفسير. أخذ على عاتقه السيوطي إكمال التفسير، فابتدأ بتفسير سورة البقرة حتى آخر سورة الإسراء. بدأ السيوطي بتكملة التفسير في مُستهلّ شهر رمضان سنة ٨٧٠ هـ وانتهى منه في العاشر من شوال من السنة نفسها، وكان المحلي في تفسيره يميل إلى الاختصار الشديد، فسار السيوطي على نهجه..

تُوِّفِي الإمام السيوطي في منزله بروضة المقياس على النيل في القاهرة في ١٩ من جُمادى الأولى سنة ٩١١ هـ، الموافق ٢٠ من أكتوبر ١٥٠٥ م، ودُفن خارج باب القرافة في القاهرة، ومنطقة مدفنه تُعرف الآن بمقابر سيدي جلال نسبةً إليه، وقبره معروف هناك.

أَرْضُ الْخَرَابِ

جمال حمدان
(٤ فبراير ١٩٢٨ - ١٧ أبريل ١٩٩٣)

«أبريل أقسى الشهور»

ت. س. إليوت في قصيدته «أرض الخراب»

لم يعتدَّ أبدًا ذلك الإحساس..

التيار الكهربائي الذي يسري في جسده كله، حين تتماشى كَفَّاهما. يشعر به يمتد من يُمنَاه، ويتوغل حتى يصيب قلبه بضربة خفيفة، ألمها شاق الإمتاع. يدرك أن إحساس الحب هذا لم يفلح أعتى شعراء الجاهلية في وصفه في مُعلقاتهم التي علقوها بأستار الكعبة. ذلك شعور يفوق كل جمال، ويجعل كل متعة دونه زائلة..

لم يَبْح لأحد باسمها خارج أفراد أسرته، فما ترك لي إلا أن أدعوها بالخواجية. افتتنت الخواجية به أيما افتتان، ورأت في ملامحه شكلاً من أشكال ملوك الفراعنة التي تغرق في دراسة تفاصيل حياتهم بحكم كونها باحثة في علم المصريات. رآته كأجمل ما يكون، وحبَّاه عقله ومعرفته، بصفات لم تتخيل قط أنها لا زالت موجودة في مصريِّ هذا الزمان. ظنت أن قدراتهم الخارقة تلك قد وُلَّت، ودفنوها مع مميواتهم رائعة الإعجاز. تشاركوا القراءة، وجمعت بينهما اهتمامات واحدة، أضفت على علاقاتها المزيد من القوة والاعتماد. سهراتها معًا اختلطت فيها كلمات الحب بنقاشات علمية جادة؛ مما جعل الساعات تنقضي كدقائق..

في جمالها قضي الليالي يتمعن، شعرها الأسود وعيناها البُنيتان تتناقض مع كونها إنجليزية، وربما كان هذا ما جذبته إليها أكثر، فلم يبتعد في حبّه عن الجمال المصري الأصيل..

كيف تذبذب الأزهار فجأةً بعد قطافها، كيف يغرب قرص الشمس، ويغرق في الأفق البعيد، كيف تحول حلم جمال حمدان فجأةً إلى كابوس لم يستطع التعافي من آثاره أبدًا؟.. لم تستسغ الخواجية أبدًا الزواج من رجل على غير دينها، على الرغم من أنه كان مُتقبلاً تمامًا لفكرة بقائها على دينها. حاولت أن تجره للتغيير، فوجدت منه ممانعة صارمة، ولم يكن هناك بُد من الافتراق..

عاد جمال من إنجلترا.. عاد صامتًا مكفهرًا الوجه، ولم يُفلح في إخراجه عن صمته أحد، وإن شعر إخوته بما يعانیه القلب الذي حلق ثم هوى. عاش قادرًا أن يحيا بجرحه، وإن لم ينسَهُ أبدًا.. وكيف ينسى من جري العشق في عروقه مسرى الدم..

قال عنه محمد حسنين هيكل في مقدمة كتابه «أكتوبر ٧٣.. السياسة والسلاح» والذي أهداه إلى العالم الدكتور جمال حمدان: «لقد ظهر هذا العالم المتميز في آفاق الفكر العربي كطائر العنقاء الأسطوري، الذي تحكي قصص الأقدمين أن موطنه الأصلي صحراء العرب، وتروي أن طائرًا واحدًا منه يظهر كل مئات السنين وأنه يعلو في الآفاق محلقة بأجنحته العريضة المهيبة، وفارداً ريشه بديعاً وباهراً، ولكن عندما يحين الأوان، فإن هذا الطائر الأسطوري الوحيد يقيم لنفسه تلاً من النار ويهبط من الأجواء، ينتصب واقفاً في كبرياء وسط لهيبه، لكنه لا يتفحّم ولا يتحول إلى رماد، وإنما ينبعث من قلب النار مستعداً لحياة جديدة ومنتشياً بشباب عمر جديد».

لقد نجح جمال حمدان في أن يبعث روحاً جديدة في الجغرافيا الجامدة، ويجعلها كائنًا ذا لحم ودم وأحاسيس.. كائن لم يهتم فقط بالموقع أو بالمناخ، بل اهتم بتفاصيل النفس البشرية ومحاولة فهمها في ضوء الظروف المحيطة، فأكسبها حياة خصبة كسهول الوديان..

مصريٌّ حتى النُّخاع.. مصري عربي مسلم كما وجبت المصرية وحتمت العربية واقتضى الإسلام، ولكن بفكرٍ مستنيرٍ واعٍ يحسبه الجاهلون جنوناً وما هو بجنون، إنما هي عقلية سبقت عصرها بعقود. عاش في فترة من أسوأ عصور الضعف والاضمحلال المصري، ولم يفتَّ هذا في عَضده، فلم يكن باحثًا عن المادة والحياة الكريمة بل أصرَّ على أن تكون مصر له مهدًا ووطنًا وقبرًا.. أدرك المعادلة الصعبة وعلم أن صلاح مصر لن يكون بهروب خيرة عقولها، وسعيهم الدءوب بحثًا عن المال، فعمل في أقصى الظروف، ورفض العروض المغربية من أناسٍ قدَّرت فكره، وبقي في وطنٍ أهمله حكومةٌ وشعبًا، ولكن عشقته أرض بكماء لم تقدر أن تبوح له بحبها، وإن أدركه هو بحس فنان لا يضاهاه أحد..

٢٥ شارع أمين الرفاعي بالدقي.. كلمة السر: أطرق الباب طرقتين وأتبعهما بالثالثة بعدها بثوانٍ.. يُفتَح الباب لتجد الشقة الصغيرة التي ظلت لأعوام طويلة خير الأمثلة على الزهد والتقشف.. اختفت الكماليات، وندرت الضروريات، وخاصمت الأرض البساط، وتناثرت قطع الأثاث بلا اكتراث.. كانت كمسكن راهب هندي فقير فراشه من المسامير.. لم يعرف المنزل التليفون أو التليفزيون أو حتى المروحة الكهربائية كي تزيح عنه قليلاً من قيظ صيف القاهرة التي عشقها، فقط مذياع عتيق تصدر منه أصواتٌ مصحوبة بشوشرة عالية، اعتاد عليها وهو يصنع غذاءه على الموقد الصغير ذي العينين من إنتاج المصانع الحربية. كرة أرضية كبيرة تحتلُّ معظم المكتب الذي امتلأ بصنوف من الكتب مختلفة الاتجاهات واللغات..

يكافئ نفسه عصر كل خميس بطبق مكرونة اسباجيتي على طاولة متوارية بكازينو قصر النيل، ويحلي بقطعة جاتوه، ثم يتبعها بزجاجة مياه غازية. لمن هم في نفس مستواه الاجتماعي، كان فقيرًا كأشد ما يكون الفقر المادي، وثريرًا كأكثر ما يكون الثراء الروحي..

كتب مرةً إلى ناشر كتبه الأستاذ يوسف عبد الرحمن، زوج الدكتورة نعمات أحمد فؤاد الذي استمرت علاقتهما ٢٢ عامًا يلتقيان فيها كل أحد، وقام بالنيابة عنه بتسلُّم جائزة التقدم العلمي في الكويت، وقيمتها ما يوازي ١٠ آلاف دولار، قام بتفريقها على أفراد أسرته: لظرف

طارئ للغاية، وبكل الأسف وكل الحرج، هل يمكن أن أطمع في مائة جنيهه (١٠٠ جنيهه فقط) مع حامله، والتفسير يوم نتقابل، وأكرر الأسف والاعتذار. في خطابٍ آخر: من بعد الديباجة والتحيات العطرة والسلام والسؤال: معذرة عن المضايقة على غير انتظار، ولكن نظرًا لظرف طارئ عاجل، وإذا لم يكن في ذلك إحراج أو إرهاق، وإذا كان لي أي استحقاقات طرفكم، فهل أطمع وأستأذن في أن تتكرم مشكورًا بإرسالها في أقرب فرصة، ولو مع الأسطى فكري منعا لتعبك وإرهاقك.. أما إذا لم يكن لي استحقاقات، فأرجو إهمال الأمر تمامًا، واعتباره كأن شيئًا لم يكن.. ولك الشكر ثق في الحاليين على السواء.. المخلص جمال حمدان..

وصل إلى الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين حكاية حرمان جمال حمدان من المعاش بسبب الروتين، الذي لا تسمح لوائحه بمعاش إلا لمن قضى عشر سنوات فأكثر في الجامعة، وكانت شئون العاملين بالجامعة قد أبلغت الدكتور بأنه لم يستوفِ المدة القانونية لذا لزم انقطاع المعاش، فانبرى الصديق بهاء يكتب مُطالبًا له بمعاش استثنائي، فثار حمدان وغضب وخاصم بهاء حتى النهاية، بينما كانت علاقتهما قبل ذلك ذات أواصر عميقة..

واسى نفسه ذات يوم قائلاً: «لو كان جمال حمدان أوروبيًا أو أمريكيًا لتحولت مقولاته إلى مزامير تُتلى صباحًا مساءً، ولكانت مقولاته ورؤاه الاستراتيجية عنوانًا عريضًا لدى معظم الباحثين ومراكز الدراسات».

جمال محمود صالح حمدان، تنحدر أصوله من قبيلة «حمدان» وهي إحدى القبائل العربية التي وفدت على مصر عقب الفتح الإسلامي، وُلِد في محافظة القليوبية بقريّة «ناي»، وكان والده يعمل مدرسًا للغة العربية بإحدى المدارس، هذا الأب الذي اهتم بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم وتجويده، في مدرسة شبرا حصل على الابتدائية، وكان ترتيبه السادس على القُطر المصري كله..

التحق حمدان في المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية عام ١٩٤٣، وعقب نيله للشهادة الثانوية التحق بكلية الآداب قسم الجغرافيا بجامعة فؤاد الأول، وتخرج فيها عام ١٩٤٧.

ابتعثته الجامعة إلى بريطانيا عام ١٩٤٩، فحصل على الدكتوراه في فلسفة الجغرافيا من جامعة ريدينج عام ١٩٥٣ عن رسالته «سكان وسط الدلتا قديماً وحديثاً».. في إنجلترا، انقلب إلى إنسانٍ آخر يلتهم مُتَع الحياة بعشقي وحب. قرأ كل ما وقع تحت يديه من روائع الأدب والشعر ودرس الموسيقى الكلاسيكية.

عاد إلى مصر بعد الثورة ليُفاجأ بالتغيير الذي تفاعل له لكنه للأسف وقع ضحية أهل الثقة؛ فقدم استقالته بعد معركة نفسية - زاد من حدّتها موقف زميلته الجامعية الأخرى التي جمعت بينهما قصة حب أدارت لها الحبيبة ظهرها تخوفاً على مكانتها الجامعية - أثرت على صحته وأصابته بمرض في الأمعاء الغليظة، ظل يتلقّى له علاجاً في عيادة الدكتور أنور المفتي الطبيب الخاص لجمال عبد الناصر..

عقب عودته إلى مصر عمل حمدان أولاً مُدرّساً بقسم الجغرافيا بكلية الآداب جامعة القاهرة، ثم أصبح أستاذاً مساعداً، وخلال هذه الفترة أصدر ثلاثة كتب، هي: «جغرافيا المدن» و«المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم المدينة المثلثة» و«دراسات عن العالم العربي». كانت تلك الكتب من التميّز حتى إنه تم منحه جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٩. بات نجاح حمدان سلاحاً ذا حدين، فمن جانب جذبت كتبه أنظار المثقفين المصريين والعرب، ومن جانبٍ آخر بدأت العَيْرَة تدبُّ في نفوس عدد من زملائه وأساتذته، وهو الأمر الذي لم يحتمله حمدان طويلاً، وكانت الضربة القاصمة عندما تم تجاوزه في حركة الترقّيات والحصول على درجة الأستاذية، وتم تعيين أستاذٍ مساعدٍ آخر بدلاً منه من قسم المساحات، لمجرد أنه كان من حَمَلَة مباخر السلطان الذين اعتادوا أن يطئوا الرءوس كي يتخذ أسيادهم مَدَارِج..

قدم استقالته من الجامعة، وبقيت معلقة قرابة العامين، والعديد يحاولون إثناءه عن قراره إلا أن إصراره كان شديداً. كانت الاستقالة نقطة تحول في حياة جمال، فبعدها اعتزل العالم، ونظم حياته بصرامة، وتغلب على مرضه بتنظيم الغذاء والرياضة. لم يستسلم للإحباط فواصل عمله الرائد كتاب شخصية مصر، وعندما منحته الدولة وسام العلوم

والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٨ لم يتسلّمه بنفسه، ووصل الوسام مع مندوب عند تشييع جنازته..

ويكتب جمال حمدان عشرات الصفحات من خواطره فيقول: العرب بغير مصر كهاملت بغير الأمير.. سيناء ليست مجرد صندوق من الرمال كما يتوهم البعض وإنما صندوق من الذهب الأسود.. مصر كانت دائماً شعباً محارباً، ولكن دون أن تكون دولة محترفة حرب؛ لأنها مُحارب مُدافع أساساً لا محارب مُعتدٍ.. على المسلم الذي يكتب عن العالم الإسلامي أن يضع نفسه في مكان غير المسلم؛ خاصةً الأوروبي المسيحي، ليس فقط ليكون موضوعياً، ولكن أيضاً ليستوعب وجهة نظر الآخر.. نحن والأقباط شركاء، وإنهم أقرب المسيحيين في العالم إلى الإسلام بمعنى أو بآخر {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}.. وكما أن مصر فلتة جغرافية فالأقباط فلتة طائفية.. انقذوا مصر من القاهرة والقاهرة من نفسها.

فضح جمال حمدان إسرائيل أيّما فضيحة، وأزاح أوراق الشجر البالية التي تستر عوراتها.. اقترب منها، وتمحص فوجد الجسد السميك مليئاً بالثقوب الدقيقة كسطح الجبنة السويسرية.. وجدها كياناً متهاكاً أحيط بهالة إعلامية هائلة منعت أن يقترب منه أحد فيكتشف الحقيقة.. في كتابه «اليهود أنثروبولوجياً» فبراير ١٩٦٧ - والأنثروبولوجي هو علم الإنسان - أثبت أن اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم ينتمون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى إمبراطورية «الحَزْر التَّثْرِيَّة» التي قامت بين «بحر قزوين» و«البحر الأسود»، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي.. وهذا ما أكده بعد ذلك «آرثر بونيسلر» مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» الذي صدر عام ١٩٧٦.

كان جمال حمدان سبّاقاً في هدم المقولات التي تُعد أهم أسس المشروع الصهيوني، حيث أثبت أن إسرائيل ظاهرة استعمارية صرفة، قامت على اغتصاب غزاة أجنبي لأرض لا

علاقة لهم بها دينيًا أو تاريخيًا أو جنسيًا، مشيرًا إلى أن هناك يهودًا في التاريخ، قدامى ومحدثين، ليس بينهم أي صلة أنثروبولوجية، ذلك أن يهود «فلسطين التوراة» تعرضوا بعد الخروج لظاهرتين أساسيتين طوال ٢٠ قرنًا من الشتات في المهجر: خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية، ودخول أفواج لا تقل ضخامة في اليهودية من كل أجناس المهجر، واقترن هذا بتزاوج واختلاط دموي بعيد المدى، انتهى بالجسم الأساسي من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئًا مختلفًا كليًا عن اليهود القدامى.. أي أن مصيرهم كان إلى التفرق والشتات، في وقت كان الصهاينة يروجون لأنفسهم كأصحاب مشروع حضاري ديمقراطي وسط محيط عربي إسلامي متخلف. لم تخدع تلك القشرة الصهيونية المضللة عقلية لامعة كجمال حمدان، كما أنه لم يستسلم للأصوات العربية الزاعقة التي لا تجيد سوى الصراخ والعيويل، واستطاع من خلال أدواته البحثية المحكمة أن يفضح حقيقة إسرائيل، مؤكدًا: «أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأي مفهوم سياسي سليم كما يعرف كل عالم سياسي، ورغم أن اليهود ليسوا عنصرًا جنسيًا في أي معنى، بل متحف حي لكل أخلاط الأجناس في العالم كما يدرك كل أنثروبولوجي، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية في دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساسًا».

كشف جمال حمدان قبل نحو ثلث قرن من مطالبتهم الفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية، تلك الحقيقة الطائفية البحتة للمشروع الصهيوني، ووصف في كتابه «استراتيجيات الاستعمار والتحرير» إسرائيل بأنها «دولة دينية صرفة، تقوم على تجميع اليهود، واليهود فقط، في جيتو سياسي واحد؛ ومن ثمّ فأساسها التعصب الديني ابتداءً، وهي بذلك تمثل شذوذًا رجعيًا في الفلسفة السياسية للقرن العشرين، وتعيد إلى الحياة حفريات العصور الوسطى بل القديمة.»

أدرك حمدان مبكرًا من خلال تحليل متعمق للظروف التي أحاطت بقيام المشروع الصهيوني، أن الأمن يمثل المشكلة المحورية لهذا الكيان اللقيط، واعتبر أن وجود إسرائيل رهن بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، مشيرًا إلى أنها قامت ولن

تبقى - وهذا ما تدركه جيداً - إلا بالدم والحديد والنار. ولذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها؛ ولذا أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها.

حدد جمال حمدان الوظيفة التي من أجلها أوجد الاستعمار العالمي هذا الكيان اللقيط، بالاشتراك مع الصهيونية العالمية، فهي تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها، وإسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزفاً مزمناً في مواردها.

تنبأ بتفكك الكتلة الشرقية والتباعد بين دويلاتها قبل حدوث ذلك بواحدٍ وعشرين عاماً كاملة، بل وأدرك في نفس كتابه أن انهيار الاتحاد السوفيتي قادم لا محالة، وأثار رأيه هذا الكثير من الانتقادات التي وُجِّهت إليه حاملةً قدرًا كبيراً من السخرية والاستهزاء، ولكن الله أمدَّ له في عمره كي يرى صدق حدسه يتحقق على مرأى ومسمع من العالم كله عام ١٩٩١..

من التنبؤات المهمة التي تضمَّنتها أوراق جمال حمدان، تلك المتعلقة بعودة الإسلام ليقود من جديد، حيث يقول: «يبدو لي أن عودة الإسلام أصبحت حقيقة واقعة في أكثر من مكان، عودة الإسلام حقيقة ودالة جداً تحت ناظرينا».

وحتى فيما يتعلق بنظرة جمال حمدان إلى علم الجغرافيا، الذي منحه عمره كله إلا قليلاً، نجد أنه شكّل مدرسة في التفكير المنظم، مزج فيها بطريقة غير مسبوقة ما بين علم الجغرافيا، الذي لا يتعدى مفهومه لدى البعض نطاق الموقع والتضاريس، وعلوم التاريخ والاقتصاد والسياسة؛ ليُخرج لنا مُكوِّناً جديداً أسماه «جغرافيا الحياة».. وأوضح حمدان في مقدمة كتابه «شخصية مصر»، المقصود بتلك الجغرافيا موضحاً أنها: «علم بمادتها، وفن بمعالجتها، وفلسفة بنظراتها»..

ولا يجد حمدان تناقضاً بين العُلَمائيَّة والدين لأن «كل الأديان علمانية أي دنيوية.. الدين في خدمة الدنيا لا الدنيا في خدمة الدين.. هدف الإسلاميين الإرهابيين هو حكم الجهل

للعلم، مُضيفًا أن منطقتهم بسيط وواضح، فلأنهم في قاع المجتمع فليس لديهم ما يخسرونه، فإما أن يضعهم المجتمع في مكانة مقبولة، أو فليذهب الجميع إلى الجحيم تحت ستار الدين..

ويقول إن «الإسلام هو العلمانية. لا إسلام بلا علمانية، وإن كان هناك علمانية بلا إسلام.»، ويضيف أن العلمانية هي «ترشيد التدين.. التدين بلا هستيريا وبلا تطرف. العمل فوق العبادة، والعلم فوق الدين أصول إسلامية مقررة. الفتنة الطائفية والتطرف الإسلامي في مصر كلاهما نتيجة مباشرة للاعتراف بإسرائيل، ثم نتيجة غير مباشرة لكل تداعيات هذا الاعتراف. هذا الاعتراف هو نوع مستتر من الانتحار الوطني»، مُضيفًا أن تصفية الجماعات الإسلامية المتشددة والأنظمة الحاكمة «شروط حتمي لأي مواجهة مع العدو الخارجي.»، «بالتخلف الحضاري والفكري تحول الإسلام كسلاح ذي حدين من الموجب إلى السالب.».

ويصف حمدان الأحزاب الدينية بالعصابات الطائفية التي هي «مافيا الإسلام»، ويشترط لتقدم مصر والعرب والعالم الإسلامي «شئق آخر الجماعات الإسلامية بأمعاء آخر إسرائيلي في فلسطين»، على حدّ تعبيره.

حظي جمال حمدان بالتكريم داخل مصر وخارجها:

- جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة ١٩٨٦ - مصر.
- جائزة التقدم العلمي سنة ١٩٩٢ - الكويت.
- جائزة الدول التشجيعية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٥٩ - مصر.
- وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتاب «شخصية مصر» عام ١٩٨٨.

عُرِضت عليه كثيرٌ من المناصب الكبيرة في مصر وخارجها لكنه اعتذر عنها جميعًا مفضلًا التفرغ للبحث العلمي، وكانت بعض الترشيحات هي:

- ترشيحه عام ١٩٨٣ لتمثيل مصر في إحدى اللجان المهمة للأمم المتحدة.

- عضوية مَجْمَع اللغة العربية.
- رئاسة جامعة الكويت.
- عرض عليه القذافي أن يعمل أستاذًا بجامعة طرابلس.
- عرض عليه صدام حسين أن يتولى إحدى الحقائب الوزارية في الحكومة العراقية.

وضع الموقد الصغير نهاية مأسوية لحياة العالم العظيم.. انفجر أثناء إعداده لكوب من الشاي في مطبخه الكئيب، هُرعت سيارات الإطفاء لتطفئ نيرانًا استعرت في شقة الزاهد كما اشتعلت في صدور كل من عرفوه، ليجدوا النصف الأسفل من جسده متفحمًا، وقد لقي مصرعه على الفور وحيدًا كما عاش عمره كله وحيدًا بلا زوج أو ولد، وكانَ القدر أصرَّ ألا تنتهي حياته الحافلة بالعلم إلا بشكلٍ دراميٍّ مُقبِضٍ..

كانت تلك هي الرواية الرسمية لما حدث، إلا أن بعض النقاط تجمعت لتشكّل علامات استفهام شاهقة حاول الكاتب يوسف القعيد أن يفك طلاسمها، فازداد الأمر غموضًا فوق غموضه..

قال القعيد إن جمال حمدان قبل وفاته كان قد انتهى من ثلاثة كتب، أولها «اليهود والصهيونية وبنو إسرائيل» ويقع في ألف صفحة، وكان من المفروض أن يأخذه ناشره يوسف عبد الرحمن، وكتاب «العالم الإسلامي المعاصر»، الذي أصدره عام ١٩٦٥ ثم توسّع فيه حتى صار كتابًا جديدًا، أما الكتاب الثالث فهو عن علم الجغرافيا، ويقول القعيد: «لقد ذهبنا إلى الشقة فور علمنا بوفاته وعائناها، واختفت هذه الكتب التي كانت موجودة ورأيتها بنفسى».

قال شقيقه عبد العظيم حمدان أدلة أخرى ليوسف القعيد تؤكد كما قال حتمية قتله، وهي أن الطباخ الذي كان يطبخ له، فوجئنا بأن قدمه انكسرت، وأنه سافر إلى بلده، ولم نعد نعرف له مكانًا، وأن جارةً كانت تسكن في البيت قالت لنا إن هناك رجلًا وامرأة «خواجهات» سكنا في الشقة الموجودة فوق شقته شهرين ونصف الشهر قبل اغتياله ثم اختفيا بعد قتله.

هناك تفاصيل أخرى ذكرها القعيد تؤكد أن جمال حمدان تم قتله بفعل فاعل، وليس نتيجة تسرب غاز أو أشياء أخرى كما قيل وقتها، والتي قادت شقيقته إلى القول: «المؤكد أن الموساد الإسرائيلي هو الذي قتل جمال حمدان».

وكما هو الحال مع سميرة موسى، ويحيى المشد، أو سعيد بدير لم يتم التوصل إلى القاتل الحقيقي، وإن فاحت رائحة الغدر فزكمت الأنوف وقتلت الأنفاس في الصدور..

كان جمال حمدان حُلماً جميلاً.. حُلماً يأبى أن يتكرر إلا بعد مرور عقود وربما قرون.. نحن نرفض الاعتراف بالأحلام فنتركها تموت على ضفاف بحر واقعيتنا اللُّجِّي.. سُئِل ذات مرة بعد انقلاب ١٩٥٢ عن أي وزارة يتمناها إن أُتيحت له الفرصة، فأجاب فوراً: وزير ولو مرة واحدة للشئون البلدية والقروية، فمن يتولى هذه الوزارة يملك في يده نهضة مصر أو تخلفها، فالشئون البلدية هي البنية الأساسية التي من دونها لا تستقيم حياة الناس في المدن، والشئون القروية هي العمود الفقري الذي من دونه ينقسم ظهر مصر، ولن تتقدم مصر ما ظل بها بيوت مصنوعة من الطوب اللبن..

يا ليت قومي يعلمون..

كُلُّ يَوْمِ جُمُعَةٍ

حامد جوهري

(١٤ من نوفمبر ١٩٠٧ - ١٨ من يونيو ١٩٩٢)

في وعي جيل التسعينيات وما قبلها، يرتبط يوم الجمعة في أي منزل مصري عادي بعدة طقوس.. والمصريون أباطرة التقليدية بلا منازع..

استيقاظ متأخر لتعويض إرهاق أسبوع كامل.. حمام ساخن جميل.. رائحة بخور تتصاعد من مكان ما تملأ الهواء عطرًا وحُبورًا.. برنامج إذاعي يعرض إحدى القضايا البوليسية، ويطلب من المستمعين إن عرفوا الإجابة الاتصال برقم معين يُقال بلهجة أشد تشويقًا من القضية نفسها.. طعمية ساخنة يبلى الزيت الحار الورقة التي تغلفها، والتي تكون غالبًا مقتطعة من أحد الكتب المدرسية.. طبق الفول بالزيت والكمون والليمون، وبعض أرغفة الخبز الآتية رأسًا من المخبز.. خُطبة قصيرة على سجادة زاهية الألوان، وصلاة الجمعة أقصر.. ثم تتصاعد الموسيقى المميزة لبرنامج على الناصية الإذاعي.. ثم صوت حامد جوهري المميز العميق، وهو يقول جملته الشهيرة مساء الخير..

البرنامج العلمي العظيم عالم البحار الذي استمرَّ بثُّه ثمانية عشر عامًا كاملة من ١٩٧٣ وحتى ١٩٩٢ محققًا نجاحًا هائلًا، فاختير كأفضل برنامج تليفزيوني لثلاث سنوات متتالية بناءً على استفتاء الجماهير التي عشقته وانتظرت به بشغف دومًا.. متخصصين كانوا أو غير متخصصين..

شعره المُشَيَّب بلون القطن، ولحيته المشذبة باهتمام، بالإضافة إلى نظارته المعدنية اللامعة تعطي إحساسًا كبيرًا بالطيبة والألفة، تكاد تشعر أن ذلك الرجل المصري الأصيل قد تراه

عدة مرات خلال يومك، وما إن تنزلق الكلمات من لسانه، حتى تدرك أنك أمام عقل علمي فذَّ لا يُشَق له غبار..

ولكن مَنْ هو حامد جوهر؟!

من مواليد العاصمة في نوفمبر ١٩٠٧. تلقى تعليمه الابتدائي بالجمعية الخيرية الإسلامية، ثم التحق بعدها بمدرسة الأوقاف الثانوية المَلَكِيَّة، والتي أُطلق عليها اسم مدرسة الخديو إسماعيل فيما بعد. التحق بكلية الطب، ثم تركها للالتحاق بكلية العلوم، وتخرج فيها مُحْتَلًا مرتبة الشرف الأولى، فُعِين معيدًا بقسم الحيوان، وحصل على شهادة الماجستير عام ١٩٣١، وكان موضوعها «التشريح الدقيق وهستولوجيا الغدد الصماء في الأرنب»، ثم الدكتوراه في العلوم من جامعة القاهرة عام ١٩٤٠، وكان بذلك أول مصري يحصل علي هذه الدرجة العلمية وعمره لم يبلغ الثالثة والثلاثين..

قام حامد جوهر بزيارة بريطانيا عام ١٩٣١ بدعوةٍ من جامعة كامبردج، كما قام بزيارة المواقع البحرية كافةً في إنجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا. زار أيضًا اليابان، وذلك بدعوة من إمبراطورها عام ١٩٦٢..

في عام ١٩٣٦، قام الدكتور علي مصطفى مُشرفًا بانتدابه للعمل كوكيلٍ لمدير محطة الأحياء البحرية بالگردقة، وقد أنشئت تلك المحطة في بداية الأمر لتكون مركزًا لجمع العينات البحرية التي تُستخدم في الدراسات المعملية لطلبة الكلية، وأيضًا مركزًا للبحوث العلمية التي يُجريها أعضاء هيئة التدريس بقسم علم الحيوان.. أي أنها كانت في الواقع تمثل إحدى الوحدات العلمية التابعة لكلية علوم القاهرة، وكان لها في ذلك الوقت مدير بريطاني على دراية واسعة بمتطلبات المحطات البحرية، يُدعى الدكتور كروسلان، وكانت خطة الدكتور مشرفة هي تمصير الجامعة والمواقع التابعة لها، وربما كان هذا هو السبب في ذلك التكليف، كما قام بانتداب عشرة من الباحثين المصريين للحصول على شهادة الماجستير من إنجلترا من أجل ذلك الغرض. لم ينس - رحمه الله - أن محطة الأحياء البحرية بالگردقة هي إحدى وحدات الكلية، ومن الضروري تمصير إدارتها أيضًا، فعين

لمدير المحطة الدكتور كروسلاند، وكيلاً مصرياً هو الشاب اليافع المدعوّ حامد جوهر، والذي لم يكن قد خطا أولى خطواته الثلاثينية بعد..

وضح من هذا التعيين فيما بعد أهمية «وضع الرجل المناسب في المكان المناسب»، فقد كان الدكتور جوهر مياً للهدوء، عازفاً عن الأماكن المزدحمة، المليئة بالضوضاء والضجيج، وما كان هناك أهدأ من مكانٍ قصيٍّ، على شاطئٍ مهجور، وتلك كانت الغردقة في ذلك الحين..

ذهب إليها الدكتور حامد جوهر، فأعجب بهدونها الشامل، وشطآنها الرملية المتعرجة، ومَرَجَانِيَّاتِها الحمراء والزرقاء والأرجوانية، تستقر تحت سطح الماء في شموخٍ وهدوء، وقد وقع اختياره على إحدى تلك المرجانيات اللينة، لم تكن حياتها معروفة من قبل، وكان قدماء البحارة في تلك المنطقة يطلقون عليها اسم «الزينة»، اختارها للدراسة والبحث، وبعد سنوات أربع؛ أي في عام ١٩٤٠ تقدم بحصيلة تلك الدراسة في رسالة علمية، حصل بها على درجة الدكتوراه في العلوم، وكانت المرة الأولى تُمنح فيها تلك الدرجة الرفيعة من جامعة القاهرة..

حصل حامد جوهر على درجة الأستاذية عام ١٩٤٦، واختير من قِبَل داج همرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة مستشاراً علمياً في علوم البحار خلال الفترة من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٥٨، كما اختير عضواً في وفد مصر إلى مؤتمر چني ف لقانون البحار، وعضواً مراسلاً في مجمَع الأحياء البحرية بالهند في ٧ أكتوبر ١٩٥٩، ومثّل مصر في المؤتمر الدولي للتخلص من مُخَلِّفات المواد الذريّة بموناكو..

عندما بلغ سن المعاش عُيِّن مستشاراً لوزارة البحث العلمي في مصر لشئون البحار إلى جانب عمله كأستاذ علوم البحار بكلية العلوم. اختارته هيئة تحرير مجلة عالم البحار الإيطالية ليكتب فيها، وذلك عام ١٩٨٤..

أنشأ مُتحفًا به مجموعات تحتوي على معظم الحيوانات والنباتات المعروفة في البحر الأحمر، وأنشأ أيضًا معهدًا للأحياء المائية بالسويس، وقد اشترك في العديد من المؤتمرات الدولية في علوم الحيوان، وعلوم البحار والمصايد والبيولوجيا الإشعاعية في الأحياء البحرية، مثل المؤتمر الدولي لمعاهد الأحياء البحرية عام ١٩٧٥..

كان عضوًا في مَجْمَع اللغة العربية، وكان بمثابة شعلة من النشاط والحيوية؛ فقد شارك مشاركة فعّالة في نشاط المجمع وإنتاجه العلمي، منذ انتخابه عضوًا بالمجمع عام ١٩٧٣، حتى وفاته عام ١٩٩٢م، وذلك في اللجان العلمية المتخصصة، وفي الجلسات الأسبوعية لمجلس المجمع، وفي مؤتمره السنوي.

نال الدكتور حامد جوهر جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٥٣، وجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٤، وحصل على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٧٥، وعلى وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٠، وانتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٨ من يونيه ١٩٩٢..

طريقة إرضاء ساري عسكر

زينب البكري
(١٧٨٣ - ١٨٠١م)

طَرَقَ بابَ غرفتها، وهو يتنحى فاستدارت إليه، ثم قالت بصوتٍ رقيقٍ منخفض: تفضّل يا والدي.

جلس على مقعد من الخوص موضوع في الركن الأقصى من الغرفة. راقبها وهي تكمل ارتداء ملابسها على عَجَلٍ. لم يستطع الرداء الأسود الفُضْفَاض إخفاء جمال الجسد اليافع الذي تُوجُّجُ بشعر أسود طويل انسدل على ظهرها، وتجاوز ردفها، في حين بدت ملامحها المليحة المُنمّمة متسقة مع بهاء عينيها السوداوين وعُزَّتْها الواسعة بسُمرتها المُحبَّبة للنفس..

مد يده وعبث بشعيرات ذقنه الطويلة المشعثة، وقال في خفوت: كبرت ونضجت يا زينب.

ابتسمت في استحياء، ولم تردّ فواصل: يتوافد عليّ خطابك من كلّ حدبٍ وصوب ويقف على بابك العشرات يوميًا يتمنون رضاك وإشارة صغيرة من بُنْصرك.

اقتربت منه وجلست بجواره، وهي تقول وابتسامة ثقة تملأ وجهها: ولمّ لا يا مولانا؟.. ألسنت ابنة الشيخ خليل البكري نقيب الأشراف، ومن أكبر علماء القطر كله؟

هز رأسه نفيًا في عنف، وهو يقول: ليس كذلك يا بُنيّتي.. هناك من هم أرفع مني مكانة وأكبر علمًا.. إنه حُسنك الذي ورثته من أمك.. هذا الجمال لن يناله إلا من يستحق.

ضحكت في دلال وقالت: أليدك عريس يستحقه؟

قال: ليس بعد يا زينب.. ليس بعد.

ثم قام من مقعده في تودة، وهو يقول: ينبغي أن أنصرف الآن.. سأتوضأ وأصلي العصر حاضراً، ثم نتوجه في وفد إلى ساري العسكر.

قالت، وقد بدا على وجهها الاهتمام: بسبب أحداث الثورة؟!

أجاب وهو ينصرف: بل سَمَّيها أحداث الفوضى.. لن تجر على البلاد سوى الخراب وسرعة البلاء.. نحن قوم أجهل من بعوضة لا ندرك أن أفعالنا ستودي بنا إلى الهاوية.

زفر نابليون بونابرت في ضيق، وأراح رأسه إلى الخلف مستنداً على قائم المقعد المذهب الوثير، وهو يتحدث: هؤلاء الشيوخ الملاعين المنافقون.. مَنْ يظنون أنفسهم فيتحدثون معي كأنهم يتجادلون فيما بينهم؟!

ابتسم كليبر قائد جيشه ابتسامة بسيطة قائلاً: تذكّر يا سيدي أنك من تبسّطت معهم من البداية فادّعت الدخول في دينهم، وزّرت الجامع الأزهر.. لا بُدَّ أن تتحمل تطلّهم كذلك.

قال بونابرت: لم يكن أمامي سوى ذلك يا كليبر.. ذلك الشعب يبدو للناظر إليه كالشخص الهادئ الذليل، ولكن ناره تظل مشتعلة تحت الرماد، تنتظر الفرصة لتُبعث من جديد.

صمت لحظة ثم قال في حنكة: تذكّر أن الإسكندر المقدوني لم يستطع استمالتهم إلا عندما أوهمهم أنه من عبدة إلههم آمون، وبنى معبداً باسمه فعظّموه على الفور ونصّبوه كابنٍ للإله.. أنت تتحدث عن قرابة الخمسة آلاف عام ولكن لم تتغير العقول.. من الصعب أن تجد بلداً أكثر غنى من مصر، وشعباً أكثر بؤساً وجهلاً من شعبها.

ثم زفر وكان كثرة الحديث أنهكته، وهو يستطرد: كل هذا يجعلك مضطرباً لتحمل سخافاتهم وريائهم من أجل نيل عقولهم، وتيسير تواجدك بينهم.

صَبَّ له كليبر كأسًا من البراندي الفاخر، وناوله إيَّاه قائلاً بلهجة خاصة: لم أرك من قبل بمثل هذه العصبية.. يبدو أن فراق جوزفين يرهقك.

نظر إليه بونايرت غاضبًا، قد انعقد حاجباه: أنت وغد وِقِح يا كليبر.. ولكنك وغد وقح على حق.. رفضت الحضور إلى هنا، وتركتني وحيدًا.

خفض كليبر عينيه الباسمتين في سخرية خفية فهو يعلم الكثير عن العلاقة المُحرَّمة بين زوجة قائده وعشيقها الباريسي مسيو شارل، ثم قاطعه صوت نابليون: وتلك النسوة القبيحات البديئات اللاتي أحضرتهن إليَّ طردتهن بلا رجعة.. كيف يتزوجون مثل هذه الأحجام هنا ويدعونهن نساء؟.. إحداهن كانت عجيزتها تفوقني وزنًا.

غمغم كليبر: إنهم يعشقون البديئات هنا أيها القائد.. يعتبرون السمينة من مظاهر الجمال.

• بل قُل من مظاهر الجشع والتخلف.

أراد كليبر تغيير دفة الحديث فسأله: أنت ذاهب للشيخ البكري في منزله الجمعة القادمة؟

قال نابليون: أجل.. المزيد من مناسباتهم الاجتماعية السخيفة.. دعاني لحضور احتفال بعيد ديني يُسمى عاشوراء.. مالي أنا وتلك الثرَّهات؟

قال كليبر: حسنًا فعلت.. ففي بيته كنز كبير يعجز عن نياله الكثيرون، وينتظر إمبراطورنا الرشيد لاقتناصه.

قال نابليون في اهتمام: كُنْز.. أي كنز؟

• سأخبرك يا سيدي.

* * *

تعثرت ثم اتكأت على ذراع والدها، وهي تخطو خطواتها الأولى في القصر الذي اتخذه نابليون بونابرت مسكنًا له، وبدا جمالها مشرقًا في فستانها ذي الألوان المبهجة المزركشة. اشتتم القوم رائحة عطرها الفرنسي الفخم فزادها حُسْنًا، وزادهم شهوة ثم هزوا رءوسهم في تعجب..

لم تكن زينب هي أول أو آخر من تبرجت، ولبست الفساتين والمناديل الملونة والطرح الكشمير وتخلت عن عباآت النسوة الفضفاضة، والتي كانت الزي الشعبي والتقليدي في ذلك الحين. جمالها - كما وصفه حمدي البطران في كتابه مصر بين الرحالة والمؤرخين - كان يفوق أي خيال.. بل وُصفت بأنها أجمل نساء مصر في ذلك العصر، وشبهها البعض بچوزفين زوجة بونابرت، فكان لها جسد ممشوق، ولون يميل إلى السمرة، وحياء في لون القمح يشتعل في الظلام من شدة الأنوثة. تحمل في قرارة نفسها إيمانًا تاريخيًا بأن الرجل هو الفرعون المقدس الذي تمنحه المرأة الطاعة العمياء..

أما الشيخ خليل البكري، فقد شرد بعقله بعيدًا، وجال بخاطره الكثير من الأفكار.. لم يكن من الشيوخ الذين انضموا للشعب مع مَقْدِم الحملة الفرنسية، وأصرروا على المقاومة حتى آخر قطرة دم، ولم يكن كذلك من النمط الآخر الذي ظل كحلقة وصل بين الشعب والغزاة، فدخلوا في الديوان الذي أسسه نابليون بونابرت من أجل التقارب بينه وبين المصريين، ولكنه اتخذ نمطًا ثالثًا فريدًا.. فقد ألقى بنفسه بين أحضان الغزاة جهرة، وأعلن ولاءه التام له وللفرنسيين، ولم يَسْتَحِ من الناس الذين انتقدوه بشدة.. حتى عائلته التي يدعي انحدارها من نسل صاحب الغار أبي بكر الصديق، رفضت أن تجعله شيخ الطريقة البكرية بعد وفاة شقيقه، ولم يحظ بلقب

نقيب الأشراف إلا بعد فرار السيد عمر مكرم إلى الشام بصحبة المماليك هرباً من بطش الفرنجة، فوهبه نابليون اللقب منحةً ممن لا يستحق لمن لا يستحق..

كان الشيخ البكري يسترخي في مقعده صاماً أذنيه عن تأوهات عشق ابنته، وهي ترقد بين أحضان نابليون بونابرت، يشرب مزيجه المفضل من الكونياك والنبيد البورچيني المَعْتَق.. يشرب كثيراً حتى يسقط رأسه علي كتفه في غيبوبة، ويغرق في أحلامه بأن يصبح حماً الإمبراطور الفرنسي العظيم..

ولكن القدر أبى أن يحقق له أمانيه، فزهّد نابليون زينب سريعاً خاصةً مع صعوبات اللغة، وجهل الفتاة اليافعة بقواعد الإغواء الصالحة للتعامل مع الرجل الناضج الذي يفوقها سناً بعقود، فكانت علاقتهما قصيرة كعمرها وعمر الحملة الفرنسية كلها التي غادرت مصر عام ١٨٠١..

أصبحت الفرصة سانحةً لأبناء الشعب للانتقام ممن باعوا الوطن للفرنسيين، والنيل من النسوة اللاتي تأثرن بنسائم الحرية الغربية القادمة من البلاد الباردة. يروي الجبرتي أنه في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين - ولم يحدد للأسف أي شهر يقصد - طلبت ابنة الشيخ البكري، حيث حضر مَعْنِيُون من طرف الوزير إلى بيت أمها بالجودرية بعد صلاة المغرب، فأحضرها ووالدها، وسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إني ثبت من ذلك، فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول إني بريء منها، فكسروا رقبتها.

انزوى الشيخ البكري بعد تلك الحادثة، فلم يُقتل مثلما حدث لابنته ذات الثمانية عشر ربيعاً. أُشيع عنه عشقه لمضاجعة الغلمان، وآخر ما وردنا من أخباره أنه تُوفِّي في عهد محمد عليّ مغموراً لا يعلمه أحد..

الهروب إلى الموت

سعيد السيد بدير

(٤ من يناير ١٩٤٤ - ١٤ من يوليو ١٩٨٩)

زَفَر في ضيق، وعيناه تنتقلان كل دقيقة وأخرى بين ساعة يده الثمينة ولوحة المطار الإلكترونية التي تحدد موعد إقلاع طائرة مصر للطيران المتجهة إلى القاهرة، قبل أن يستنشق شهيقًا عميقًا ويُخرجه متقطعًا بغرض إراحة أعصابه الثائرة، وهو يرجع برأسه إلى الخلف مستندًا على مسند المقعد الوثير..

كان قد تخلص من كثيرٍ من القلق حين اطمأن على وصول زوجته وولديه: أحمد ومحمد إلى القاهرة، وقد أصبحوا أخيرًا بين ذويهم، إلا أن جزءًا بداخله ما زال يحمل بعض الخوف حتى تطأ قدماه أرض الوطن الغالي..

كانوا قد وصلوا إلى مصر قبله بشهرين كاملين، ونجح هو في إنهاء تعاقدته مع جامعة ديسبورج الألمانية الغربية في شهر يونيه بعد التشاور مع رئيسه في العمل البروفسير إنجوفولف، وقد كان من المقرر أن يستمر في عمله حتى بداية العام الجديد..

قطع صوت المنادي الداخلي حبلَ أفكاره، وهو يعلن عن قرب قيام الطائرة العائدة للوطن. تشبث بجواز سفره بقوة مُنهيًا إجراءات سفره في يُسر، وعيناه تتحركان في حذر زائد اكتسبه في الفترة الأخيرة. أعصابه قد صارت على شفا جرفٍ هاوٍ يسيطر عليها بصعوبة بالغة، وهو يخطو بخطوات واسعة مانعًا نفسه من الهرولة نحو الطائرة الراقدة في شموخ. اختلج قلبه بين أضلعه، وهو يلمح الشعار المميز لشركة مصر للطيران. صعد الدَّرَج المؤدي إلى الطائرة في سرعة كأن شياطين الجن كلها تطارده. لم يكد يستلقي على مقعده حتى تنفس الصُّعداء، واستدار إلى الرجل الجالس بجواره. ملامحه تنضح بالعروبة والأصالة

بصلعة مميزة وبشرة قمحية وشارب ضخم، وقال بالعربية المُحِبَّة، وهو يمد يده مصافحًا:
نصل بالسلامة إن شاء الله.

ابتسم الرجل الذي لم يكن بينهما سابق معرفة، وأجابه: إن شاء الله.

لم يكد يُتم جملته حتى خطا ثلاثة رجال ضخام الجثة إلى الطائرة. ملامحهم الألمانية المميزة تنطق بأنهم من رجال الأمن؛ خاصة مع البروز الواضح في جانبهم الأيمن أسفل ستراتهم الدُّكَّاء. انطلقت بعض الهمهمات المذعورة، وراقبهم الركاب في فزع، وهم يخترقون الصفوف في شراسة يتفحَّصون ملامح الركاب حتى توقفوا عنده، وقال أحدهم بالألمانية: هناك.

اتجهوا ناحيته فتراجع في مقعده قبل أن يمد أحدهم يده مختطفًا جواز سفره من يده، وفتحه قائلاً: سعيد السيد بدير.. إنه هو.

قال رجلٌ آخر في صرامة: تفضَّل معنا بلا مقاومة إذا سمحت.

كادت الدموع أن تفرَّ من مقلتيه، وهو يقوم من مقعده، وقد شعر أن الحرية باتت وشيكة لولا أن استوقفهم صوت: ماذا يحدث هنا؟

التفت الجميع إلى مصدر الصوت، وأخرج الثالث بطاقة هُويَّته مناوئًا إياها لقائد الطائرة، قائلاً بنفس الحزم والصرامة: المخابرات الألمانية الغربية.

اتسعت عيون الجميع في خوفٍ في حين طالع الطيار هويته قبل أن يعيدها إليه متسائلًا: - كيف يمكنني أن أخدمك؟

أجابه: سنقوم باصطحاب هذا السيد.. فهو غير مُصرَّح له بالسفر.

خطا الطيار نحو الرجل الحامل جواز سفر سعيد بدير، وتناولته منه بهدوء ثم فتحه، ووضعها أمام أعينهم قائلاً: ولكنه يحمل تأشيرة خروج، وتم التصريح له بالسفر من قبل

ضابط الجوازات.. فأين المشكلة؟

بُهِتوا قبل أن يزمجر الثاني قائلاً في خشونة: ولكننا نريده.

استدرك الطيار حديثه الهادئ: أراهنك يا سيدي أنك لا تحمل تصريحًا بإنزال مسافر مصري من طائرة مصرية بالإضافة إلى أن أوراقه سليمة.

ثم قال في حسم: هذه الطائرة مصرية.. أي أنها أرض مصرية خالصة تمامًا كأرض السفارة لا يجوز اقتحامها دون إذن من الخارجية المصرية.

ثم عدل من هندامه، وهو يقول: وبصفتي قائد هذه الطائرة، أمركم بمغادرتها الآن وفورًا، قبل أن تقع مشكلة دبلوماسية بسببكم بين مصر وألمانيا الغربية.

لم يستطع أحدهم أن ينبس ببنت شفة، وإنما نظروا إلى أولهم الذي يبدو أنه أعلاهم رتبة قبل أن يمتط شفتيه في يأس، وهو يشير إليهم بالرحيل.. شيعتهم نظرات رواد الطائرة، وأيديهم تلتهب بالتصفيق لموقف قائد الطائرة النبيل الذي احمرَّ وجهه خجلًا، وهو يتجه نحو سعيد الذي كان يلتقط أنفاسه بصعوبة قبل أن يُرَبَّت علي كتفه، ويقول بؤدِّ بالغ: أتمنى لك رحلة سعيدة يا سيدي، وعودة آمنة إلى أرض مصر.

فتح سعيد عينيه مستمتعًا بمشهد السحاب الجميل الذي تحلق الطائرة فوقه في يسر، لم يدْرِ متى غلبه النوم وكيف ولكنه شعر أنه قد استطاع النوم أخيرًا بعد شهور طويلة جافاه فيها النوم، ولازمه الأرق المميت والإحساس المزمن بالقلق، أغمض عينيه ثانية، ولكن عقله كان يدور في سرعة كعادته..

مرت أمام مُخَيَّلته طفولته وصباه في سرعة.. مولده في بيتها الجميل بروض الفرج لأبٍ كان يعمل معلمًا لِيَلْيَاقة البدنية بمدرسة رُقي المعارف بشبرا قبل أن يصبح ممثلًا وكاتبًا للسيناريو ومخرجًا عتيديًا، وأمٌّ هي ابنة عمِّ الأب.. كان الأصغر بين إخوته قبل أن يتزوج

الأب بالمطربة شريفة فاضل، وينجب منها ولدين آخرين اسْتُشهد أحدهما في حرب أكتوبر فغنت له والدته أغنية (يا أمّ الشهيد)..

أظهر سعيد نبوغًا بالغًا أثار غيرة حساده قبل غبطة أصدقائه، وحصل على شهادة البكالوريا بمجموع قدره خمسة وتسعون بالمائة، فحل ثانيًا على مستوى القطر قبل أن يلتحق بالكلية الفنية العسكرية ليحقق حُلمه بأن يكون ضابطًا مهندسًا بسلاح الطيران المصري. كان يُنظر لضباط الجيش وقتها بكثير من الإعزاز والتقدير خاصة بعد انقلاب يوليو الذي قام به تنظيم الضباط الأحرار للإطاحة بالملك، وتغيير نظام الحكم من المَلَكِيَّة إلى الجمهورية. تخرَّج سعيد في الكلية الحربية عام ١٩٧٢، وعُين معيدًا فمدرسًا مساعدًا، ثم مدرسًا عام ١٩٨١، وتدرَّج في الترقيات حتى وصل إلى رتبة عقيد في منصب رئيس قسم الموجات والهوائيات في إدارة البحوث والتطويرات لقيادة القوات الجوية. قدم طلبًا بالحصول على المعاش المبكر رغبة منه في السفر والحصول على شهادة الدكتوراه. قوبل طلبه بالإيجاب وخرج من الخدمة برتبة عميد متقاعد..

حصل على شهادة الدكتوراه في جامعة «كِنْت» البريطانية، ثم عمل في أبحاث الأقمار الصناعية في جامعة دويسبرج الألمانية، وعمل هناك أستاذًا زائرًا، وكانت مدة عقده سنتين بدءًا من عام ١٩٨٧ في مجالين:

- التحكم في المدة الزمنية منذ بدء إطلاق القمر الصناعي إلى الفضاء ومدى المدة المستغرقة لانفصال الصاروخ عن القمر الصناعي.
- التحكم في المعلومات المُرسلة من القمر الصناعي إلى مركز المعلومات في الأرض؛ سواء أكان قمرًا تجسُسيًا أم استكشافيًا.

استمر في مواصلة أبحاثه، وبدأ في إجراء تجارب علمية متطورة أسماها «٢٥٤»، وازدادت أبحاثه تطورًا في مجال الهوائيات والاتصال بالفضاء وإمكانية التشويش على سفن الفضاء الأمريكية حتى ذاع صيته، وجاء تصنيفه الثالث عالميًا من بين اثني عشر عالمًا متخصصًا في هذا المجال النادر. بدا المستقبل أمامه مشرقًا بأقصى

ما يكون خاصة أنه قد تم تعيينه مستشارًا لرئيس الجمهورية من قبل الرئيس الأسبق حسني مبارك، ولكن الأحداث الغريبة التي وقعت بعدها أعاقته عن إكمال تعاقدته وإصراره على العودة إلى مصر..

شعرت وكالة الفضاء الأمريكية بالخطر من أبحاثه خاصة المتعلقة بالتشويش على سفن الفضاء؛ فقررت أن تتبع معه أسلوبًا قديمًا قَدَم البشرية ذاتها..
إما الترغيب أو التهيب..

أما الترغيب، فقد قاموا بالاتفاق معه على مواصلة أبحاثه في أمريكا بعد انتهاء التعاقد الألماني، تحمس سعيد للفكرة في بادئ الأمر، وأقر بموافقته قبل أن يعود للتراجع عندما علم أن المقابل هو حصوله على الجنسية الأمريكية، وتعاقد مالي ممتاز بالإضافة إلى أن يكون ولاؤه العلمي أولًا وأخيرًا للولايات المتحدة دون غيرها؛ مما حداً به إلى الرفض وكان مُصرًا على نشر أبحاثه في مصر قبل أي مكان آخر..

هنا لجئوا إلى التهيب، فقد تعرض كُل من ابنه وزوجته إلى محاولتي اغتيال فاشلتين، يُرجح أن القصد من ورائهما كان إيصال فكرة القوة إليه، وأن هذه هي الفرصة الأخيرة له، كما فوجئت الأسرة المفزوعة عدة مرات بأن مسكنهم الصغير قد تعرض لمحاولات اقتحام وتغيير في أماكن قطع الأثاث وتبديل مواضع اللوحات المعلقة، في رسائل تهديد واضحة لا تحتمل الإنكار؛ مما حداً به إلى الاستغاثة بالمخابرات العامة المصرية فأخبرهم بإحساسه أن خطرًا داهمًا يحيط به ويُطبق عليه من كل صوب، فما كان من رجال المخابرات إلا أن طلبوا منه العودة في أسرع وقت إلى مصر بحُجّة أنهم لن يستطيعوا تطبيق الحماية الكاملة له ولأسرته طالما بقي على أرض أجنبية..

وبالفعل، نجح سعيد في إعادة أسرته إلى مصر في حين بقي هو في ألمانيا لبعض الوقت رغبة في إنهاء مُتعلقاته الأخيرة، وها هو في طريقه إلى أرض مصر..

أنهى إجراءاته الجمركية في سرعة وخرج من أرض المطار وشعر بالدفء يسري في أوصاله، فرفع ناظريه إلى الشمس الساطعة مبتسماً في سعادة، فعيناه لم تريا الشمس منذ أمدٍ بعيدٍ إلا مستترَةً وراء سُحُبٍ غائمةٍ دكناءٍ في سماء ألمانيا..

مرت الأيام التالية عليه بسرعة ما بين اشتياق لأسرته التي احتفت به بعد غياب طويل وبين استجمام؛ كي يريح أعصابه من الضغط العصبي الذي وقع عليه في الفترة الماضية. شعر بخليطٍ من الامتنان والفخر عندما التقى برجال المخابرات الذين كانوا مسؤولين عن حمايته وتأمينه، واستبدت به الحاجة إلى إضفاء ستار قانوني له فافتتح مصنعًا صغيرًا للإلكترونيات، وأعلن عن هذا المصنع، وطلب شركاء ومساهمين، فانهالت عليه عدة عروض كان أبرزها من ألمانيا، ونشر هذا الإعلان بتاريخ ٧ يوليو ١٩٨٩، وكأنه يبعث برسالة خفية أنه قد توقف عن نشاطه العلمي الذي جلب عليه مصائب جمّة، إلا أنه في حقيقة الأمر استمر في أبحاثه السرية، وإن لم يجد في مصر نفس الإمكانيات العلمية التي وجدها في ألمانيا الغربية، أو التي كان يمكنه أن يجدها في وكالة ناسا بالولايات المتحدة..

ولكن مسلسل الرعب الذي عاش فيه د. سعيد السيد بدير لم ينته بعد..

لازمه الشعور بأنه مُراقَب، وكان يخبر زوجته دومًا أن أحدًا يراقبه، وإن لم يستطع أبدًا التعرف إلى هوية مراقبيه، بل إنه قد صرح للمخابرات مرة ثانية بمخاوفه، وإن قوبل قلقه تلك المرة بلا مبالاة غريبة. بدا وأنهم قد شعروا بأن الرجل قد أُصيب بعقدة الارتياب والشك، وأن لديه إحساسًا مستمرًا بالاضطهاد. كان قد أخبر زوجته في ألمانيا بأنه قد توصل إلى نتائج في أبحاثه لن يستطيع العلماء الألمان أن يصلوا إليها قبل عشر سنوات من ذلك الوقت، بل يُقال أنه قد فتح ملف طائرات الكونكورد، وأن له أبحاثًا لن يفهمها أحدٌ سواه. الأدهى أن بعض زملائه يعتقدون أنه قد توصل في أبحاثه إلى طريقة لتطويع وترويض الأقمار الصناعية التجسُّسية، وجعلها تعمل لمصلحتنا، وإن لم يستطع أحد نفي هذا الحديث أو توقيينه..

طلب سعيد من شقيقه سامح مفتاح شقيقته التي تقع بالعقار رقم ٢٠ شارع طيبة بمنطقة كامب شيزار بالإسكندرية، بداعي الحاجة إلى الهدوء التام لإجراء بعض الأبحاث السريّة التي لا يريد أن يعلم عنها أحد مهما كان. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يراه فيها أحد من أسرته..

استيقظ سعيد على صوتٍ خافت يأتيه من خارج الغرفة، وكانت حالة الحذر والترقب التي عاشها في الفترة الأخيرة قد أورثته سُبَاتًا خفيفًا وأعصابًا مشدودة، فوجى بأنه يشعر بخَدَرٍ عجيب يسري في جسده كله وتثاقل في أطرافه، وكأنه يحمل أطنانًا ثم التقط أنفه رائحة غاز البوتاجاز التي تملأ هواء الغرفة فحاول كتم أنفاسه، إلا أنه قد استنشق بالفعل الكثير من الغاز. فجأة اقتحم الغرفة ثلاثة من المُكَمِّمين انقضُّوا عليه في قوة. حاول المقاومة إلا أن جسده كان قد غرق في الوَهَن برغم تدفق الأدرينالين غزيرًا في عروقه، ثم أمسك أحدهم بيمنه وقام بقطع شريانه فأطلق صرخة رعب وألم هائلة، كتمها أحد المُكَمِّمين بوضع يده المغطاة بقفاز سميك أمام فمه..

قاوم سعيد الغيبوبة التي اكتنفت جوانب عقله بفعل الغاز والدم الغزير الذي فقده. شعر بهم يحملونه حملًا وينطلقون به صوب الشرفة التي كانوا قد أغلقوها بإحكام حتى يتسرب الغاز بكثافة إلى رئتيه. سمعهم يتحدثون بلغة أدرك عقله الذي يقاوم السقوط بصعوبة ماهيتها..

للوهلة الأولى اعتقد الجميع أن الدكتور سعيد انتحر بأن قام بفتح أنبوبة الغاز في غرفة نومه ثم قام بقطع شرايين يديه.. ثم قفز من الطابق الرابع!!

هذا السيناريو قد يصدقه البعض، ولكن هناك بعض النقاط التي تهدم هذا التصور من أساسه:

أولى هذه الملاحظات السيناريو نفسه، فمن غير المعقول أن يقوم شخص بثلاث محاولات للانتحار في دقائق معدودة، وكل محاولة بمفردها كفيلة بإنهاء حياته؛ ثاني هذه الملاحظات حالة الخوف الغريبة التي سيطرت عليه من أجل أولاده، حتى إنه قد أوصى شقيقه عليهم فلا يُعقل أن يُقدم شخص على الانتحار، وهو خائف على مصير أبنائه؛ ثالثاً وجدوا بين الأوراق التي عُثر عليها داخل الشقة على مقدمة بحث علمي بالفعل؛ أي أنه لم يخدع شقيقه سامح عندما طلب منه مفتاح الشقة... فهل يمكن لعالمٍ بدأ في بحث قال عنه إنه الأهم في حياته أن ينتحر قبل أن يفرغ منه؟!

راحت أصابع الاتهام تشير إلى تلك الجهات التي كانت تطارد الدكتور سعيد، وإذا كانت أجهزة مخابرات عديدة سعت لضمه إليها، فإن المستفيد الأكبر من تصفيته هو الموساد والمخابرات الأمريكية اللذان ضمّا ملف اغتيال الدكتور سعيد السيد بدير إلى ملفات اغتيال العديد من العلماء المصريين والعرب..

تردّد أنه قد تم القبض على أربعة عناصر من الموساد في الإسكندرية عقب الحادث بوقتٍ قصير.. وبذا يصبح العالم المصري سعيد بدير رمزاً في القائمة الطويلة للعلماء العرب الذين اغتيلوا على أيدي أجهزة مخابرات معادية، ويضع علامتي استفهام وتعجب كبيرتين أمام قدرة جهاز المخابرات المصري على حماية علمائنا المرموقين في عقر دارهم..

الكاهنُ الذي بُعث من جديد

سليم حسن

(١٣ من أبريل ١٨٨٦ - ٣٠ من سبتمبر ١٩٦١)

نزع طربوشه الأحمر من فوق رأسه، وجال بعينه لحظةً في أعين الطلبة ذوي السراويل القصيرة والقمصان الكحلية اللون ينظرون إليه بانبهار شديد وانتباه كامل، ثم وضعه فوق سطح المكتب الخشبي الذي أمامه ثم قال: قرأت منذ أيام أحد أبيات الشعر كتبها شاعر مصري فرعوني قبل ٣٣٠٠ عام.. وجدت نفسي أخطأها بخط مُنمَّقٍ على ورقةٍ صغيرة وأحتفظ بها في درج مكتبي.. أتدرون ماذا تقول؟

صمت لحظة ليرى تأثير كلماته على الأعين الشاخصة، ثم قال بصوتٍ عالٍ ضاغظًا على مخارج ألفاظه:

«عندما تأتي الريح فإنها تتوق إلى شجرة الجُمَيْز..

وعندما تأتيين... فإنك تتوقين إليّ..

حببتي إذا ضممتها وذراعاها مفتوحتان

خَيْلٍ إليّ أني امرؤ من بلاد بنت نبع العطور..

آه ليتني خادمثها لأجلس عند قدميها..

خاتمًا في إصبعها..

ليتني الحارس حتى تؤنّبني وعندها

يمكنني سماع صوتها وهي غضبي

لأكون أمامها كالطفل أرتعد فزعًا..».

كانت تلك مقدمته الصغيرة، بدأ بعدها يسترسل في شرح علاقات مصر القديمة مع الحضارات الأخرى، مثل حضارة بلاد بُنت - الصومال حاليًا - خاصةً في عهد الملكة حتشبسوت، والتي شهد عصرها تطورًا تجاريًا عظيمًا. لم يقطع شرحه المُسهب الممنهج سوى صوت طرقات عالية على الباب، دخل على إثرها دون استئذان رجل أحمر الوجه مكتنزه، وتظهر خصلات شعره الأشقر أسفل قبعته الكبيرة المفلطحة.. اتجه الرجل في خطوات واسعة إلى مقعدٍ أخيرٍ خالٍ في الفصل الصغير. لم يستطع سليم أن يُخفي علامات الضيق التي بدت على وجهه، وقد نزل به همٌّ عظيم. حاول تجاهله تمامًا وكأنه لم يكن، واستكمل شرح الدرس، ولم يلحظ أن الرجل قد أخرج من طيّات ثيابه مفكرة بنية صغيرة أخذ يخطُّ بها بعض الكلمات بين الحين والآخر..

انتظر الرجل حتى انتهى الدرس، واقترب منه وسط الطلبة الذين غادروا مقاعدهم في تناقل، وقد شعروا بأن الوقت قد انقضى سريعًا. قال بعربية ركيكة وابتسامة واسعة: مستر سليم.. أنا چون ماكينج.. مفتش بريطاني على التعليم.

أجاب في ضيق: أعلم أنك بريطاني.

لم يشعر الرجل بنبرة الضيق في صوته واستكمل: لقد سمعنا عن مهاراتك في التعليم كثيرًا مستر سليم.. ولكن حقيقةً لم نتخيل أن نجدك بهذا القدر من الإتقان والتفاني في تدريس مادة التاريخ.

ردّ في حذر: ثم؟

قال، وابتسامته تتسع في غموض: ستعرف عمًا قريب.

لم تمض أيام حتى علم أن ذلك المفتش الإنجليزي الأشقر قد أعجب بشرحه أيما إعجاب، وسعى إلى أن يكون سليم حسن صاحب التسعة والعشرين عامًا في ذلك الوقت هو من يكتب تاريخ مصر لمناهج التعليم..

بالفعل بدأ سليم في كتابة تاريخ مصر بدايةً من الفتح العثماني وتاريخ أوروبا في جزءين بالإضافة إلى تاريخ الدول العربية، ودُرست كتبه ومناهجه في جميع المدارس الثانوية والعليا في ذلك الوقت من خريف عام ١٩١٥..

أول الفاكهة الباكورة، ولم يكن سليم حسن إلا شجرة ظلت تنمو باكورة ثمارها طوال عمره الذي استمر خمسة وسبعين عامًا لم يُصب فيها بملل أو كلال، ولم تتخيل والدته عندما سمعت صرخته للمرة الأولى في ذلك المساء من خريف عام ١٨٨٦ بقرية ميت ناجي التابعة لمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية، أنها قد أنجبت ولدًا سيغير من فهمنا لتاريخ الحضارة الفرعونية المصرية كلها، ولم يكن كفاحها المرير مع الحياة بعد وفاة زوجها إلا رغبةً منها في أن يكمل نجلها الصغير تعليمه رغم الظروف الصعبة والفقر الشديد. لم يخيب الفتى اليافع رجاءها فتجاوز مراحل التعليم بتفوق ملحوظ حتى تخرج في مدرسته الثانوية، والتحق بعدها بمدرسة المعلمين الخديوية مُنضمًا إلى فرقة الآثار..

كانت هذه المدرسة نتاج عمل عدة أشخاص سعوا من أجل إنشائها، أهمهم على الإطلاق هو أحمد كمال باشا، الذي سعى إلى إقناع أحمد حشمت باشا وزير المعارف بإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار، والتحق بها عدد من الطلاب صاروا بعد ذلك من كبار علماء التاريخ والآثار، أمثال: أحمد عبد الوهاب باشا، محمود حمزة، محمد شفيق غربال، وأخيرًا سليم حسن..

تخرَّج سليم في عام ١٩١٢، وحاول أن يلتحق بالمُتَّحَف المصري فأخفق فقد كان مقصورًا وقتها على الأجانب لا غير، ثم عمل مدرسًا بالمدرسة الناصرية بالقاهرة، ثم نُقل إلى مدرسة طنطا الثانوية، ومنها إلى أسيوط، ثم عودة إلى القاهرة للعمل بمدرسة الخديوية الثانوية. هناك بدأ في وضع مناهج التاريخ للمدارس الثانوية كما أسلفنا..

إلا أن الاهتمام بالتعليم لم يشغله عن حلمه الأصلي بالالتحاق بالمتحف المصري، فلاحق له فرصة ذهبية نادرة حين قامت ثورة ١٩١٩، وخرج المصريون يطالبون بكرامة اشتاقت لها النفوس وحرية لزعيمهم الذي اتخذوه بطلاً.. ما كان أمام الاحتلال إلا أن يتهاون قليلاً، ويبدأ في تقديم التنازلات علّه يعيد الهدوء إلى الأرض الثائرة، فقام في عام ١٩٢١ بتعيين أمينين فرنسيين للمتحف يعاونهما مصريان، هما سليم حسن ومحمود حمزة بضغط وإلحاح أحمد شفيق باشا وزير الأشغال..

كالعادة لم يتوقف طموح الشاب عند هذا الحد فبدأ في جمع مدخراته، حتى استطاع استيفاء ما يكفيه من مال لمرافقة رحلة أحمد كمال باشا إلى فرنسا (١٩٢٢).. وكانت هذه الرحلة بغرض الاحتفال بمرور مائة عام على فك رموز حجر رشيد على يد العالم الفرنسي شامبليون.. كالعادة استغل الفرصة خير استغلال فزار فرنسا وإنجلترا وألمانيا، وبعث من هناك بمقالات ثورية أثارت الرأي العام في مصر، ووجهت اهتمام المصريين نحو آثارهم المنهوبة بكل بقاع العالم.. وكان القانون المصري وقتها عاجزاً فكان يقتسم الآثار التي تجدها البعثات الأجنبية مناصفةً بين مصر وبين تلك البعثات.. ناهيك عن الآثار التي كانت تُهرَّب خارج البلاد مع بداية كل شتاء. وجدير بالذكر أن سليم حسن كان له فضل إلغاء هذا القانون الظالم فيما بعد..

وكان مما كتبه من المضحكات المبكيات في تاريخنا المجيد أنه في عام ١٨٥٥ عندما كان الأمير النمساوي الأرشيدوق مكسمليان في زيارته إلى مصر، قد صاحبه الخديو عباس الأول إلى دار الدفتردار في الأزبكية ليشاهد مخزناً كان محمد علي قد خصصه للآثار.. وهنا يروي سليم حسن إن باشا مصر أراد أن يحتفل بالأرشيدوق، فأعد له جواداً عربياً مطهراً بلجام من الذهب الخالص، وسرجه مُطعمً بالجواهر والأحجار الكريمة، فطلب الأرشيدوق بدلاً من ذلك الجواد شيئاً من الآثار المصرية القديمة، فقام عباس المعطاء بإهدائه جميع آثار الدفتردار، وخرج النمساوي بالهدية التي لا تُقدر بمال وهو لا يكاد يصدق نفسه؛ خاصة أن الجواد الذهبي قد تهادى في المقدمة ليركب السفينة مع الأرشيدوق في طريقه للنمسا..

زاد اهتمام المصريين بحضارتهم وآثارهم خاصة بعدما اكتشف هوارد كارتر مقبرة توت عنخ آمون كاملة غير منقوصة في البر الغربي من الأقصر، فسافر سليم إلى فرنسا مرة ثانية، والتحق بجامعة السوربون وحصل منها على ثلاث دبلومات: واحدة في اللغات الشرقية، وثانية في تاريخ الديانات، وثالثة في الهيروغليزية.

وكما يروي علي لسانه، كان بيته مهبطًا وملاذًا ومضيئة للطلبة المصريين الوافدين، حتى إن أحمد الصاوي محمد كتب عنه أنه بيت الأمة في فرنسا.. وطوال مدة بقاء سليم حسن هناك لم يسهر قط في ملهى، وحدث مرة أن مكث أحد عشر شهرًا دون أن يبرح بيته استعدادًا لامتحان السوربون، وكان الجيران يلاحظون اختفائه فخشوا أن يكون مريضًا أو أصابه مكروه، فكانوا يدقون بابه ليجدوه جالسًا بين الكتب..

عندما عاد إلى القاهرة، استعاد عمله القديم في المتحف المصري حتى أتاح استدعاء رسمي من جامعة فؤاد الأول للعمل كمدرس بها، وترقى بها حتى وصل إلى درجة أستاذ بجوار اهتمامه بالحفريات، والتنقيب في منطقة أهرام الجيزة وحصل على الدكتوراه من جامعة قبيئًا عام ١٩٣٥، وأنعم عليه بلقب البكوية..

عُين سليم حسن وكيلاً لمصلحة الآثار المصرية، فكان أول مصري يتولى هذا المنصب، الذي كان مقتصرًا على العلماء الأجانب فأثار حفيظتهم، ودخل في تلك الفترة في صراع عنيف مع الملك انتهى بإقصائه عن منصبه عام ١٩٤٠..

لذلك قصة رواها سليم حسن نفسه حدثت بينه وبين الملك فاروق، وكان يدعو بالصل الجريء: قبل وفاة الملك فؤاد جاءني أحد أمناء القصر، وأنا وكيل مصلحة الآثار، ومعه مجموعة آثار كانت في حوزة فؤاد، وقال لي إنه يرسلها هديةً منه إلى المتحف المصري. عندما أصبح فاروق ملكًا أراد استرداد هذه المجموعة الثمينة، فأرسل لي مراد محسن باشا ليقول لي إن الملك يريد آثار المغفور له والده، ولما كنت متوقعًا أن يُقدم فاروق علي هذه الخطوة فقد سجلت المجموعة في سجلات المتحف، وأصبحت بذلك ملكًا للدولة لا تخرج من المتحف إلا بقرار من البرلمان، ورغم علم فاروق بذلك لم يكف عن المطالبة، وأرسل لي

محسن باشا مرة أخرى فقلت له: أنا مستعد أن أسلم لكم الآثار بشرط أن تكتبوا إيصالاً بأنكم تسلمتموها بصفة أمانة، ومنذ ذلك الوقت أعلن فاروق الحرب ضدي وأخذ يعمل على إبعادي عن المتحف، واتهمني بكل ما شاء من التهم التي تحولت إلى قضية أمام النائب العام ياسين أحمد باشا، ولما فحصها أدرك أنها باطلة ووصفها بأنها بنت سَفَاح ليس لها أب ولا أصل، وطار ياسين باشا النائب العام من منصبه في هذه الزوبعة التي أثارها فاروق ضدي، وفي عام ١٩٣٩ حاول النقراشي باشا إعادتي إلى عملي فثار فاروق، وكان قرار الإعادة يوم الأربعاء ثم يصدر قرار إبعادي اليوم التالي!!.

يروى سليم حسن كيف أخرج فاروق في عام ١٩٤٦: كان المتحف المصري مغلقاً بسبب الحرب، وفي هذه الأثناء كانت بعثة من الفرنسيين تعمل في (سان الحجر) لاكتشاف آثار ملوك الأسرة الحادية والعشرين، واكتشفت البعثة آثار كاهن مات في سن الثامنة رغم أنه كان كبير الكهنة، واسمه (حورنحت) وتُقدَّر آثاره بنصف مليون جنيه، وكان مدير المتحف فرنسيًا اسمه (دريتون) فاتفق مع البعثة على نقل هذه الآثار إلى متحف اللوفر في فرنسا، وتم الاتفاق أيضًا على التقدم إلى الملك أثناء حفل افتتاح المتحف بعد الحرب، ومشاهدة الآثار المكتشفة بطلب منحها لهم مكافأة على اكتشافها، واستعانوا بامرأة حسنة أوقفوها عند جناح تلك الآثار في انتظار وصول الملك.. وجاءني كبير أمناء المتحف محمود علي حمزة ليبلغني بالمؤامرة، فطلبت منه الإسراع بتسجيل التَّحَف فورًا، وفي يوم الاحتفال فوجئ الجميع بحمزة يعلن أنه سجَّل تلك الآثار وأنها أصبحت ملكًا للدولة.. وثار فاروق في وجه حمزة قائلاً: هو أنا سألتك سجلتها ولأ.. لقد كان فاروق يريد إجابة البعثة إلى طلبها، ولكنه أخرج، ويومها جمعت مندوبي الصحف، وأعلنت أمامهم أن مولانا المُبجَّل يفتخر بهذه الآثار، وبأنها أصبحت ملكًا للدولة فأخرج فاروق وقال يومها لرجال السراي: هو برضه الفلاح ابن الكلب اللي عملها فيَّه!.

كما ذكرت فإن هذه الأحداث مروية علي لسان سليم حسن نفسه ولا يُسأل عن صحتها سواه!!.

أحصت الدكتورة ضياء أبو غازي جهود سليم حسن في عمليات الحفر والتنقيب التي استمرت عشر سنوات (١٩٢٩ - ١٩٣٩)، ونشرت قائمة بها في حوليات مصلحة الآثار فبلغت ١٢١ عملاً، وذكرت نُبداً عنها، وكانت حفائره في منطقة الأهرام بالجيزة من أهم ما قام به من أعمال؛ إذ كشفت عن عدد كبير من مقابر الدولة القديمة أهمها على الإطلاق مقبرة رع ور الضخمة ذات الآثار الرائعة والتماثيل المهيبة، وهذه المقبرة لا تقلُّ بأي حال من الأحوال عن مقابر باقي الملوك، وشغلت الأوساط الإعلامية العالمية وقتها قرابة عشر السنوات، وكانت جنوبي منطقة أبي الهول..

ولأنه درس التاريخ الذي كُتب علينا أن نحياه لا أن نقرأه فقط من جديد، فقد دوّنه سليم حسن كما جاء في بردية ليدن مع نهاية الأسرة السادسة عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد، التي صور فيها الحكيم إيبو - ور عصر الفوضى والتدهور الداخلي.. عصر الانحلال: لقد اختفت مصر من الأعين فجأة وصارت في ظلمة كأن مصيبة عظمى قد نزلت بها.. فُضي على الضحك ولم يعد يُسمع، بينما أخذ الحزن يتمشى في طول البلاد وعرضها ممزوجةً بالأسى، وكره الناس الحياة حتى أصبح كل واحد منهم يقول: ليتني مُتُّ قبل هذا.. والأطفال الصغار يقولون: كان عليه ألا يجعلنا في قيد الحياة.. والأطفال حديثو الولادة يُلقون على قارعة الطريق، وألقي المواطنين على أحجار الطواحين الخامة، وتولى الغوغاء مراكز الطبقات العليا، والقلوب صارت ثائرة، والمصريون أصبحوا أغراباً وأهملوا جانباً، وأصبحت الأرض تدور كما تدور عجلة الفخار، وفارق النبل الدنيا، وأصبحت ربّات البيوت يَقلن أئى لنا ما نأكله، وذبلت أجسادهن في الأعمال، وتحطمت قلوبهن من ذل السؤال، وأصبح الذين كانوا يرتدون الكتّان الجميل يُجلدون بالسياط.. وأصبح اللص صاحب ثروة، وتحول النهر إلى دماء عافتها النفوس، وأصبحت البلاد مليئة بالعصابات حتى إن الرجل يذهب ليحرق أرضه حاملاً درعه، وشحبت الوجوه وكثر المجرمون ولم يعد هناك رجال محترمون، وصارت النساء عاقرات.. ويوجه الحكيم إيبو- ور رسالته في البردية التاريخية للحاكم: إن الصدق والقيادة والفتنة معك، ولكنك لا تنتفع بها، فالفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد

وعرضها، ولكنك مع ذلك تتغذى بالأكاذيب التي تُتلى عليك رغم أن البلاد أصبحت قشًا ملتهبًا.

لاحظ هنا أنني أتحدث عن بردية عمرها ٤٥٠٠ سنة!!

شعر سليم حسن أنه قد أدّى واجبه نحو ذلك الوطن فترك العمل الحكومي، وسكن إلى بيته فأخرج أعظم أعماله على الإطلاق، موسوعة مصر القديمة، وحقيقة لو اكتفى سليم حسن بتلك الموسوعة فقط لحسبه فخراً وملاًه عظمة.. بدأها عام ١٩٣٠، واستمر في كتابتها ثلاثين عاماً عبر ستة عشر مجلداً عظيماً. شملت الموسوعة تاريخ مصر الفرعوني بأكمله، ولا يوجد كتاب لمؤلف واحد استطاع أن يجمع معالم تلك الفترة التاريخية العظيمة بحلوها ومُرّها إلا تلك الموسوعة.

والحقيقة أنه قد عكف بالفعل علي كتابة الجزء السابع عشر من الكتاب عن الملكة كليوباترا - وكان يطلق عليها أعف نساء مصر في ذلك الزمن ليدحض بها الافتراءات التي نالت منها كل النيل، إلا أن المنيّة قد وافته قبل إتمام كتابه..

في الخامس والعشرين من سبتمبر، وقبل خمسة أيام فقط من وفاته سألوه، وكان يعمل وقتها ٢١ ساعة يوميًا برغم أنه قد بلغ من الكبر عتياً، وأتم الخامسة والسبعين: متى تنتهي من تأليف موسوعتك عن النيل التي طلبها منك الزعيم جمال عبد الناصر؟

- بعد أن انتهى من كتاب كليوباترا.
- ومتى تتم كليوباترا؟
- لا أدري فهناك شعور داخلي يهمس لي بأني لن أتمّ كتابتها.

هل هو إحساس وشفافية رجل العلم التقى الذي أتم حفظ القرآن الكريم في كُتّاب الشيخ محمد في سن السابعة، أم هي أرواح الفراغنة قد اشتاقت لعاشقها فبعثت له تبلغه تحياتها وأنها في انتظاره عمّا قريب؟!..

خاتم سليمان

سليمان خاطر

(١٩٦١ - ٧ من يناير ١٩٨٦)

مدَّ سليمان يده ممسكًا بالإبريق، وصَبَّ لنفسه كوبًا من الشاي الساخن في حين انبعث صوت المقرئ الجميل من الراديو العتيق الموضوع على المنضدة يتلو آيات القرآن. أضاف لنفسه ثلاث ملاعق من السكر، واحتضن الكوب بكفِّيه متلمسًا بعض الدفء منه، ثم عاد بظهره إلى مسند مقعده الخشبي في محاولة للاسترخاء..

انقضى وقت الأصيل، وقد احمرَّ لون الشمس في الأفق، وازدادت برودة الجو برغم أن الشتاء لم يبدأ فعليًا بعد، والبلاد تستعدُّ لاحتفالات نصر أكتوبر في اليوم التالي مباشرة..

كان في الرابعة والعشرين من عمره، يؤدي خدمته العسكرية الإلزامية في تلك الوحدة الصغيرة في منطقة تُدعى رأس بركة بالقرب من طابا، وكان عليه أن يتسلق الهضبة المنخفضة يوميًا صعودًا وهبوطًا كي يصل إلى تلك النقطة الحدودية. لا يؤنس وحدته سوى الراديو العتيق ذي الشوشرة الدائمة، وصورة خطيبته فاطمة التي سيعقد قرانه عليها فور أن يُتم فترة تجنيده حسب الاتفاق..

مدَّ يسراه يداعب خاتمه الفضي في بنصره اليمنى، وابتسم عندما تذكَّر محاولاته لإقناعها بأنه يفضل أن يرتدي خاتمًا على أن يرتدي دبلة كالتي تزين إصبعها..

كانت صديقة لأخته في بلديهما أكباد في محافظة الشرقية، وقد تعلق قلبه بها منذ الصَّغر، ولكنه لم يُتم خطبتهما إلا في إجازته الأخيرة عندما عرض الأمر على أمه العجوز الطيبة، وهو مُسنَدُ رأسه على ساقها كما يحب..

تناهى إلى مسامعه أصوات آتية من خارج الوحدة، فانعقد حاجباه في شدة، ومد يده بحركة غريزية إلى سلاحه الآلي الموضوع بجواره. لم يعتد أبدًا أن يسمع أصوات حديث هنا خاصة أن تلك المنطقة محظور المرور فيها للمصريين أو غيرهم..

أمسك بسلاحه، وخطا خارجًا من الباب ناظرًا في اتجاه الصوت، ثم ارتفع حاجباه في دهشة..

كانوا سبعة أشخاص، رجل واحد وطفلتان وأربع فتيات يرتدون ملابس السباحة، بل وكانت إحداهن تمشي عارية الصدر برغم برودة الجو..

ولكن لم يكن هذا ما أدهش سليمان..

كانوا إسرائيليون..

الشعر الأشقر والملامح الباردة ذات بعض السمات العربية والأنف اليهودي المعقوف كلها أكدت ذلك..

عندما رآته إحدى الطفلتين أشارت إليه بإصبعها، وقالت جملة ما بالعبرية فنظروا إليه وانفجروا ضاحكين في استهزاء. أفاق من دهشته على أصوات ضحكاتهم، وصاح في صرامة:

- ارجعوا.. ممنوع المرور هنا.

لم يعيروه أي اهتمام فهتف بالإنجليزية التي يعرفها على استحياء: قفوا ممنوع السير.

نظر إليه الرجل في لامبالاة، ثم مال على طفلة وهمس في أذنها بشيء فتناولت حصة صغيرة من الأرض، وقذفته بها فتفادها وعقله يدور في سرعة..

كانوا قد توغّلوا لمسافة كبيرة داخل الأراضي المصرية، كما أن وحدته تحوي جهازًا سرّيًا لا ينبغي لأحد مهما كان أن يطلّع عليه كما كرر عليه قاداته عدة مرات..

رفع سلاحه الذي لم يستخدمه قط من قبل، وأطلق منه عيارين في الهواء على سبيل التحذير..

كان ينفذ الأوامر كما قيلت له..

لا تسمح لمتسلل بالعبور يا سليمان..

لا ينبغي أن يرى أحد الجهاز يا سليمان..

أنت تحرس منطقة حدودية يا سليمان فلا تتهاون مع أي شخص..

وبرغم التحذير، استمر الإسرائيليون في التوغل والاقتراب، فصوب سلاحه وصاح بحزم:

• لو اقتربتكم أكثر سأطلق الرصاص.

واقربوا..

فأطلق..

اثنتا عشرة رصاصةً انطلقت حاصدةً للأجساد ومُزهقةً للأرواح..

ونفخ سليمان دخان مدفعه الآلي ناظرًا إلى جثثهم المُسجّاة على رمال سيناء، التي

تشرّبت دماءهم في اشتياق بعد سنوات من انتهاء الحرب..

وبرغم رهبة الموت فإنه قد ابتسم في فخر، وتنهّد كأنه ينفّض عن رأسه ذكرى مريرة

لم تُمخّ من ذاكرته برغم مرور السنين..

كان في التاسعة من عمره عندما رأى الطائرات الإسرائيلية تقصف مدرسة بحر البقر القريبة من بلدته.. يومها أمسك بيد أخته الكبرى، وارتجف في شدة وجث الأطفال الأبرياء ملقاة في كل مكان تملأ مجال بصره..

الآن فقط شعر أنه قد استرد حق هؤلاء الأطفال من الصهاينة الملاحين، وكأنه كان يتحين الفرصة..

وفي حزمٍ وكبرياء شد قامته معدلاً من وضع بذلته العسكرية، وعلق سلاحه خلف ظهره قائلاً بصوتٍ عالٍ، وكأنه يتمنى أن يسمعه الجميع: سليمان قام بواجبه يا مصر..

وسار سليمان مرفوع الهامة نحو مقر قيادته، وسلم نفسه راوياً كل ما حدث بالتفصيل..

وقامت الدنيا، ولم تقعد في مصر..

صحف ترتفع بسليمان إلى عنان السماء، وصحف أخرى تُحَقَّرُ فعلته وتطالب بعقوبة شديدة عليه.. مظاهرات تخرج لتشجيعه، وساسة ينددون بجريمته الشنعاء..

وعندما سُمح لأمه أخيراً بزيارته، ارتمى في حضنها ودموعه تنهمر في غزارة وتناقض ابتسامته الواسعة في مزيج غريب، فقالت الأم وهي تنتحب: ليتك ما فعلت هذا يا بني.

أبعدها عنه قائلاً في تعجب شديد: أنت يا أمي من تقولين هذا؟!.. أنت من علمتني حماية أرضنا من كل سوء.

قالت: أخاف عليك يا ولدي أن يمَسَّك أنت السوء.

أجاب: لا تخشي عليّ شيئاً، وإياك أن تصدقي ما تلوك ألسنتهم من كذب وزيف. لن يصيبني مكروه قط.. ضجيج بلا طحين، ومحاولة لاحتواء الموقف أمام الرأي العام

العالمي، ولكنني هنا بين زملائي وقادتي، والكثير منهم يُحيونني على استحياء، ويقولون لي بالحرف: ليتنا كنا معك ففعلنا مثلما فعلت.. الأمر فقط يلزمه بعض الوقت ليتمر ويُنسى.

لم تَفَقَه الأمُّ الأصيلة الأمّية الكثير من مصطلحات ابنها ذي المؤهل العالي، إلا أنها قالت وهي تحتضنه: راضية عنك يا حبيبي، ومصر كلها راضية عنك. المهم أن تعود لنا مُعافَى.

ومثّل سليمان أمام المحكمة في محاكمة عاجلة..

«حكمت المحكمة حضورياً بالسجن المؤبّد خمسة وعشرين عامًا مع الأشغال الشاقة».

يومها قال سليمان: أنا لا أخشى الموت ولا أرهبه.. إنه قضاء الله وقدره، لكنني أخشى أن يكون للحكم الذي سوف يصدر ضدي آثارٌ سيئة على زملائي، تصيبهم بالخوف وتقتل فيهم وطنيتهم.

ثم التفت إلى زملائه الحراس قائلاً في صرامة وشجاعة يُحسد عليها: روحوا واحرسوا سيناء.. سليمان لا يحتاج حراسة.

واقْتيد سليمان إلى السجن الحربي بمدينة نصر بالقاهرة في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر من العام ذاته.

وفي اليوم السابع من سجنه فُتِحَ باب زنزانته، وقال حارسه وفي عينيه نظرة شماتة واضحة: قم.. سأصحبك إلى المستشفى.

استفسر في تعجب: ولمَ المستشفى؟.. لستُ مريضًا.

قال: لا.. أنت مريض بالبلهارسيا.. قُمْ بسرعة.

ودفعه بغلظة ثم ألقاه في غرفة حقيرة بمشفى السجن، ولم يرَهُ أحدٌ من الأطباء أو
المرضىين..

وبدأ سليمان يفهم..

وعندما فُتِحَ الباب، ودخل منه ثلاثة سجناء ضخام الجثة يحمل أحدهم سلگا معدنيًا
رفيعًا في يده عرف سليمان ما هو مُقبَل عليه..

صاح به أحدهم: أنصَبتَ نفسك بطلًا!!

وابتسم سليمان لمرة أخيرة في مرارة..

وبرغم فارق القوة الهائلة بينه وبينهم فإن غريزة البقاء لديه جعلته يقاوم..

قاوم بكل ما في جسده من قوة وعزم ورغبة في الحياة..

قاوم بكل ما يجيش به صدره من حب لمصر..

وفي اليوم التاسع لحبسه، وتحديدًا في ٧ يناير ١٩٨٦ أعلنت الإذاعة ونشرت الصحف
خبر انتحار الجندي سليمان خاطر في ظروف غامضة..

ولكنه لم يدرك أن موته قد أَمَاط اللثام عن الوجه القبيح لحاكمٍ عاثَّ في البلاد فسادًا
لثلاثين عامًا كاملة..

مَضْرَعُ أَنَسَةَ مِصْرِيَّةً

سَمِيرَةُ مُوسَى

(٣ من مارس ١٩١٧ - ١٥ من أغسطس ١٩٥٢)

نهبت السيارة الطريق نهبًا، وقد تجاوزت سرعتها التسعين كيلومترًا في الساعة أو تزيد قليلاً..

كانت الرؤية ضبابية أمامه فرفع ذراعه يمسح بطرف كُفِّه الدموع المتراكمة أمام مقلتيه، ثم حانت منه التفاتة إلى والده القابع بجواره في صمت وسكون تامّين، وكأنه قد تحول إلى تمثال صخري أصمّ أراد ناحته أن يدعوّه باسم الذهول كما تنطق ملامح الرجل بكل وضوح..

بعد فترة سأله: كم تبقي؟

أجابه ماهر في خفوت: ليس كثيرًا.

قال الوالد بعد أن نفث تنهيدة حارة حملت كل ما يجيش في صدره من انفعالات ومشاعر:

• اشتقتُ إليها.

كانت الجملة المقتضبة مؤثرة، فابتلعتهما دوامة من الصمت بعدها حتى وصلا إلى مطار القاهرة كما أخبرتهما البرقية، فانطلقا فيما يشبه الهرولة نحو صالة كبار الزوار. أنهيا إجراءات التسلم في سرعة، وعادا إلى منزلهما حاملين فوق صدريهما حملًا يفوق وزنًا التابوت البلاتيني الثقيل الذي تسلّماه.

داخل الصندوق الذي استقرت فيه في هدوء، وملامحها تنبئ بالسلام والسكون حتى يُخيل إلى الرائي أنها نائمة وعلى وشك الاستيقاظ.. تحمل سماتها رقة ووداعة لا حدود لهما، ترقد كأنها أميرة فرعونية من العصور العظيمة البائدة، وشذا عطرها يفوح في كل مكان..

نقلوها إلى مقابر الأسرة بالبساتين، ووضعوا الصندوق البلاستيكي خلف حاجز بحيث يتسنى لمن يقف خلف الحاجز أن يراه. وضعوا في المدفن بعض المفروشات لكنها تعرضت للسرقة فيما بعد؛ ما حدا بهم أن يعينوا حارسًا خاصًا لحماية المدفن..

كانت مفكرتها السوداء الأنيقة قد وصلت مع الجثمان، وعندما خلا أبوها إلى أسرتها بعد انتهاء مراسم العزاء الضخم الذي أتى إليه المُعزُّون من كل مكان خاصةً من بلدتها سنبل الكبرى بمحافظة الغربية، فتح المفكرة ليقرا آخر ما خطته أناملها من كلمات قبل أن تجفَّ فيها الدماء إلى الأبد..

(ثم غربت الشمس)..

أي شمس غربت؟.. وماذا كانت تقصد سميرة موسى علي أبو سليمة عندما كتبت تلك الكلمات الأخيرة؟..

تمنيت أن أكون ملكة للجمال

يزين هالتي تاج من نور

وأحكم على عرش القلوب

وأتيه في مملكة الجلال والوقار

وأسمو إلى سماء الكمال

سميرة موسى المولودة في صباح يوم الثالث من مارس عام ١٩١٧ بدار السيد علي أبو سليمة، فتدوي الزغاريد ويتعالى ضجيج قرع الطبول بقدم الابنة الجميلة.. كانت السابعة في ترتيب أخواتها، ثم أنعم الله على الأبوين الطيبين بولدين بعدها..

حفظت سميرة أجزاء من القرآن في كُتَّاب الشيخ «حماد عطوة بدره» ثم التحقت بالمدرسة الأوّلية بالقرية، والتي أنشئت عام ١٩٢٥، وأشاد مُدرّسوها بذكائها الملحوظ ونبوغها المبكر، وكانت بداية ملاحظة أهل القرية لها وهي بعد في سن العاشرة حينما تُوفي زعيم الأمة سعد زغلول فعم الحزن الجميع، ولاحظت سميرة ذلك، فبدأ وعيها السياسي والوطني يتشكل عندها بسرعة بالغة، وعندما جاء اليوم الثاني وخرجت صحافة البلاد حاملةً المقالات التي تنعي الزعيم الراحل، طلب منها والدها قراءة الصحف لأهل القرية، وكان قد اعتاد أن تقرأ له الشعر والكتب.. جلست سميرة وبدأت تقرأ في هدوء بلغة عربية فصحة دون أن تتلعثم. عندما غادر الناس ووصلت أفواج أخرى إلى بيت الأب، أعادت سميرة عليهم ما سبق أن قرأته دون أن تستعين بالصحيفة مرة أخرى، وكانت قد حفظته عن ظهر قلب..

كانت تتمتع بذاكرة فوتوغرافية مذهلة، ففي الصباح التالي استطاعت أن تعيد أمام طلاب مدرستها كلها نفس ما قرأته في صحف اليوم السابق، دون أن تعيد القراءة ولو لمرة واحدة..

ثم تمنيت... وتمنيت

وما أغنتني الأمانى شيئاً

تمنيت أن أكون أميرة جميلة

ترنو إليها الأبصار

وتهفو لها القلوب

أرتعُ في الدَّمَقس والحريـر

وأتيه عجبًا بالجمال والجلال

وأُنظِّمُ من عذب الحديث عقودًا لؤلئيَّة

فتسحر السامعين وتلهو بقلوب المعجبين

وأبتسم فتبتسم لي الدنيا

استمع الأب العاشق للعلم والأدب إلى نصيحة المعلم بعد إتمامها المدرسة الأُولية،
الذي عُرف بنظرته الثاقبة أنه أمام موهبة حقيقية قد لا تتكرر، وأدرك أن سميرة
تحتاج لسماء أوسع كي تحلق فيها بعيدًا بأحلامها وعبقريتها البديعة.. سماء العاصمة
العجوز..

والغريب أن الأب الريفي استجاب للنصح فجمع أسرته، وعرض الأمر عليهم ثم ألحَّ
حتى نال موافقاتهم. أسرع ببيع الأرض والمنزل، وارتحل إلى القاهرة ليشتري فندقًا
بمنطقة الحسين الأثرية العتيقة، وفندقًا آخر بميدان العتبة الخضراء أسماه (وادي
النيل) لا زال موجودًا حتى اليوم كمصدرٍ دخل يُعينانه على رعاية أمور الأسرة..

وتمنيت.. وتمنيت

وما أغنتني الأمانى شيئاً

تمنيت أن أكون تلك الزهرة العاطرة

ولكن أي الألوان أختارها؟!

هل أكون هاتيك الزهرة الحمراء الثائرة

فألهب القلوب وأبعث

وأبعث الحرارة

فتدب فيها الحياة؟!

ستأخذني فتاة لعوب

وتضعني بين طيِّات شعرها الذهبي

فأزين ذلك التاج

ولكنها في ثورة غضبها

ستقذف بي وتدوسني

فتدمرني لأنها لعوب متقلبة

لن أكون تلك الزهرة الحمراء البائسة

التحقت سميرة بمدرسة قصر الشوق الابتدائية، ثم شاءت الأقدار أن تلتحق بعدها بمدرسة الأشراف الأهلية الثانوية، لتلتقي هناك بالسيدة نبوية موسى رائدة تعليم الفتيات، وكانت مؤسّسة ومديرة المدرسة، والتي أدركت بحسّ وإعٍ أنها أمام ذكاء خارق لا وجود الزمان بمثله كثيرًا، فعملت على رعايتها أفضل رعاية حتى إنها قد قامت بإنشاءٍ معملٍ للطبيعة في المدرسة خصيصًا من أجل عيون تلميذتها النجيبة..

ذات يوم من خريف ١٩٣٣، فوجئ والدها بها تقدم له عدة صفحات مكتظة، وعلى وجهها ابتسامة ثقة مشرقة فتناولها منها، وقرأ:

الجبر الحديث (الجزء الأول لطلبة السنة الأولى الثانوية)

حسب المنهج المخفف الذي أقرته وزارة المعارف العمومية

تأليف سميرة موسى بمدرسة بنات الأشراف

الطبعة الأولى سنة ١٩٣٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

اتسعت عينا الأب في دهشةٍ وحُبور، وعندما سألها أجابت بأنها قد رأت أن المنهج الذي أقرته وزارة المعارف عسيرًا وصعب الفهم على زميلاتهما، فقررت أن تكتبه بأسلوبٍ مُيسرٍ مُبسّط يتفادى الصعوبات مع الحفاظ على الفكرة الأساسية للمنهج، وطلبت منه أن يقوم بطباعة ثلاثمائة نسخة من هذا الكتاب..

لم يكذب الأب المؤمن بنبوغ ابنته خبرًا، فقام بطباعة الكتاب على نفقته الخاصة بمطبعة وادي النيل ومكتبتها بالفجالة بمصر، وكتبت في بدايته إهداءً لمعلمها الفاضل محمد أفندي حلمي:

جاز لي أن أتقدم بكتابي الجبر الحديث إليكم بعد انتهائي من تأليفه، وهو الثمرة التي نتجت من غرس أياديكم البيضاء. فهاك الكتاب، راجية أن يحوز عطفك السامي ورضاك.

المُهدية سميرة موسى

لاحظ أننا نتحدث هنا عن طالبة ذات ستة عشر ربيعًا، وليست أستاذة جامعية أو حتى معلمة في مدرسة، وكانت بخطوتها هذه بداية فكرة الكتب الخارجية لتيسير طلاس الكتب المدرسية.. الأجل أن النسخ كلها نُفدت، ولم تتبقَّ غير نسخة واحدة اختصت بها نفسها..

هل أكون تلك الزهرة البيضاء الزاهية

رمز الظهر

والعفاف والإخلاص

فأزين رأس العروس الجميلة

ليلة زفافها

سثعجب بي الفتيات والشباب

وأكون أنيسة الشاعر في وحدته

وسألهمه من الشعر عجبًا

فيسبح بي بوجدانه

في عالم كله جمال وجلال

فَيَنْظِم من الشعر عجبًا

حصلت سميرة على البكالوريا بترتيب الأول على القُطر المصري كله، ثم التحقت بكلية العلوم وسط دهشة الجميع، فقد كانت الفتاة الأولى التي تلتحق بتلك الكلية، وفي الوقت ذاته رفضت عريسًا من أسرتها كان قد تقدم لخطبتها ففضلت العلم على الزواج..

وجاء ترتيب سميرة كعادتها الأول في كل سنوات كليتها، وكان من حقها أن يتم تعيينها كمعيدة في كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول. العديد وقفوا ضد تعيينها بحجة أنها صغيرة السن وهو السبب المعلن، إلا أن الحقيقة أن التفكير المتحجّر كان يمنع تعيين فتاة في الجامعة، ولم تجد مساندة إلا من أستاذها المؤمن بتفوقها وعميد الكلية في ذلك الوقت الدكتور علي مصطفى مشرفة، حتى إنه قد أرسل خطابًا إلى وزير المعارف النقراشي باشا، وأرفق به استقالته إن لم يتم تعيين سميرة موسى معيدة خلال سبعة أيام، وكتب وزير المعارف مذكرة بذلك إلى رئيس الوزارة، الذي عقد اجتماعًا لبحث ذلك الأمر، فانتهى الاجتماع بالموافقة على تعيينها..

قررت الجامعة إيفاد مجموعة من المعيدين إلى إنجلترا لاستكمال دراستهم الجامعية، وكانت سميرة من بينهم للحصول على درجة الماجستير إلا أن الحرب

العالمية الثانية اندلعت في أوروبا بكل عنف، فتقرر إلغاء البعثة، ولم يفت هذا في عَضد الطالبة المجتهدة، فقررت أن تحصل عليها من الجامعة نفسها، وبالتالي استطاعت أن تحصل على رسالة الماجستير في مجال التوصيل الحراري للغازات بتقدير امتياز كالعادة..

بعد انتهاء الحرب، سافرت سميرة في بَعثة مدتها ثلاث سنوات للحصول على الدكتوراه في مجال الأشعة السينية، ويروي أحد زملائها أنه قد سألها قبل أن يودعها إن كانت قادرة على الحصول على الدكتوراه في تلك الفترة الزمنية القصيرة، فأجابته في تواضع مَشوبٍ بالثقة بأنها أكثر مما تحتاج..

من هناك أرسلت رسالة إلى والدها أخبرته فيها أن الأجهزة هناك ليست بجديدة عليها، لكن استخدام المواد المُشعَّة في العلاج مهم جدًا ومتقدم جدًا في إنجلترا، وأنها لو امتلكت معملًا مثل هذا في مصر لاستطاعت أن تفعل بها أشياء عديدة..

صدق حَدس سميرة فقد استطاعت الحصول على الدكتوراه في أقل من عام ونصف العام، وهذا إنجاز غير مسبوق، وشهد لها أساتذتها بالبراعة حتى شُبِّهت بعالمة الفيزياء ذائعة الصيت مدام كوري..

فوجئت بالجامعة تُبرق إليها تطلب منها العودة، فقد أتمت دراستها وحصلت على درجتها، إلا أنها رفضت في عناد وصرامة بحجة أن مدة بعثتها ثلاث سنوات. استمرت تبحث في مجال العلاج بالإشعاع حتى عُرف عنها قولها: «سأجعل العلاج بالذرة رخيصًا كالأسبرين»..

في عام ١٩٥١، تلقت سميرة منحة دراسية من برنامج فولبرايت الذري في أمريكا لدراسة الذرة في جامعة كاليفورنيا، واستمرت في أبحاثها لإنتاج الذرة بطرق رخيصة، وكانت قد قامت بإعداد مؤتمر علمي ضخم في مصر قبل سفرها في كلية العلوم أسمته الذرة من أجل السلام، ودعت إليه أفضل علماء العالم، خارجًا بتوصيات

أهمها إقامة لجنة خاصة للوقاية من أخطار القنبلة الذرية يرأسها عالم أمريكي شهير،
عُثر عليه في منزله مقتولاً في أواخر عام ١٩٥٢؛ أي بعد وفاة سميرة بأشهر قليلة..

فاق نجاح سميرة كل التوقعات مما حدا بهم إلى دعوتها أن تبقى في أمريكا، وتحصل
على الجنسية الأمريكية فرفضت رفضاً قاطعاً..

تعرفت سميرة موسى وقت دراستها في لندن إلى الفنانة اليهودية المصرية راقية
إبراهيم، وأهدتها صورتها مموّهة بتوقيعها باللغة الإنجليزية، وهاجرت بعدها الأخيرة
إلى إسرائيل، وكانت ضمن وفد إعلامي إسرائيلي للأمم المتحدة سافر إلى أمريكا
في نفس توقيت وفاة سميرة موسى، فربطت خيوط شكّ قوية بينها وبين الاغتيال
الغامض..

في أغسطس ١٩٥٢، شعرت سميرة أنها قد اكتفت من الحياة في الولايات المتحدة،
وأصرت مجدداً على العودة لمصر تطبيقاً لما تعلمته. قبل سفرها بأيام وصلتها دعوة
سرّية لزيارة مُفاعل نووي في إحدى ضواحي كاليفورنيا. توجهت إليه صبيحة يوم ١٥
أغسطس ١٩٥٢ بصحبة سائقها الهندي الجنسية، الذي قدم إليها نفسه بأن الجامعة قد
أرسلته لاصطحابها فاستقلت معه السيارة، وكان المُفاعل يقع على قمة جرفٍ عالٍ
بين الجبال، فانطلقت السيارة بحذر ثم فوجئت سميرة بسيارة نقل ضخمة تظهر
لتغلق عليها الطريق، والسائق الهندي يفتح باب السيارة ليقفز منها قبل أن تصدم
السيارة الضخمة سيارة سميرة صدماتٍ متتالية، حتى تنجح في دفعها لتسقط في
الأخدود العميق، وتخرج الروح البريئة إلى خالقها على الفور..

كانت المؤامرة الإسرائيلية مُعدّة براءة مقبّية فلم يرسل المُفاعل أي سيارة
لاصطحابها كما صرح فيما بعد، كما أن السائق قفز من السيارة، ولم يُعثر له على أثر
بعدها أبداً، بل إنه قد استخدم اسماً مستعاراً لإخفاء شخصية كان بيدها مفتاح اللغز
الغامض..

كما هو متوقَّع فُيِد الحادث ضد مجهول، ولم تُعر الدولة المصرية الأمر كثيرًا من الاهتمام، حتى إن جريدة المصري السياسي خرجت في صباح الثلاثاء ١٩ أغسطس ١٩٥٢ بمانشيت عجيب للغاية: مصرع أنسة مصرية بأمريكا بعد أن أتمت دراستها الجامعية.. وكأننا نتحدث هنا عن أنسة عادية أو حتى وفاة عادية!!

تمنيت... وتمنيت

فما أغنتني الأمانى شيئًا

هل تتحقق الأمانى

وئجاب الرغائب

وهل إذا تحققت

تهدا النفس الثائرة المتمردة

وتقنع

كلًا لن تهدأ

بل ستتجدد الأمانى

وتزيد.. فأتمنى وأتمنى

ولن تغنينى الأمانى شيئًا.

من خواطر سميرة موسى من مُفكرتها.

من أبي زعل إلى بلجراد

شهدي عطيه الشافعي (١٩١١ - ١٥ من يونيه ١٩٦٠)

على شفتيه ابتسامته المعهودة، وملامحه الغليظة تحمل قدرًا كبيرًا من ثقة غير مُبرّرة. جسده ظل ممشوقًا بفعل التدريبات العسكرية، على الرغم من بلوغه العقد الخامس من العمر. خطأ بخطواته الواسعة برفقة صديقه الحميم جوزيف تيتو، رئيس يوغسلافيا، حتى احتلًا مقعديهما خلف منصة كبيرة في بلجراد، في مواجهة جمع غفير من رجال الدولة والساسة والعسكريين، ونواب في البرلمان اليوغسلافي. كان مؤتمرًا عاديًا إعدادًا للمؤتمر الأول لحركة عدم الانحياز، التي يتزعمانها برفقة نهرو رئيس الهند. يعشق عبد الناصر تلك التجمعات الجماهيرية. تعطيه إحساسًا متزايدًا بالتأييد والمؤازرة، وكأنه قائد يحفز جنوده المتعطشين لمعركة دامية من معارك الزمن القديم. صوت الهتافات يعطيه نشوة لا تُضاهى..

ألقى تيتو كلمته الافتتاحية، قبل البدء في تلقي استفسارات مُعدّة مسبقًا، تتخللها بعض كلمات التأييد المعتادة. حينما وقف أحد النواب البرلمان اليوغسلافي المرموقين، وجه التحية أولاً لرئيسه، قبل أن يتجاهل عبد الناصر تمامًا، ويقول بصوت جهوري: دعونا نقدم التحية الواجبة لذكرى الشيوعي الذي قُتل في المعتقل المصري بسبب التعذيب.

وكانما ألقى قنبلة من الصمت أصابت الحضور..

تفصّد العرق من مسامّ جمال عبد الناصر فجأةً، وعيناه تبحثان في وجوه مرافقيه عمّن ينجده في هذا الموقف المخزي. وراقب الجمع، وقد فارقوا مقاعدهم، وقوفًا تبجيلًا لروح شهيد معتقلاته. لم يكن يستطيع الوقوف، حتى امتدت يد تيتو القوية تعينه، ولمح في عينيه غضبًا خفيًا. أشاح عبد الناصر بوجهه بعيدًا، هربًا من نظرة رفيقه. شاركهم الوقوف

حدادًا، قبل أن يسارع بالسقوط في مقعده، متمنيًا أن ينتهي ذلك الموقف في أسرع وقت. ردود أفعاله لم تكن خافية على أحد الصحفيين المخضرمين، الذي عاجله بلكمة قاضية: ما تعليق الرئيس عبد الناصر عن مقتل شهدي عطية بأثر التعذيب في المعتقلات المصرية؟

استغرق ثواني ليبتلع لعابه، ويستعيد رباطة جأشه، قبل أن يجيب: لم نقتل أحدًا، ومن يخرج على النظام يُقدم للقضاء العادل.

إجابة انتزعت ابتسامات ساخرة من الجماهير، يعلمون مدى كذبها. فرغم ثقل مركز مصر الإقليمي والعالمي في ذلك الوقت، فإن أوضاعها الداخلية لم تكن خافية على أحد، ونظام الحكم المستبد يُطبق كالقيد على أعناق المصريين..

الحقيقة أن ما فعله عبد الناصر كان وسيظل طريقة تعامل حكام مصر مع مشاكل الشعب الداخلية، فبينما هم في محاولة دائمة لتحسين صورتهم الخارجية، والظهور بمظهر القائد الملهم الشجاع، وصاحب التأييد المطلق من جميع فئات الشعب، إلا أنه يتعامل مع أي لسان معترض داخل حدود الوطن بالحديد والنار، يفتتح معتقلاتٍ وسجونًا أكثر من مصانع تُشيد، حُماة نظامه لا يتورعون عن فعل أي جرم لتثبيت دعائم حكمه..

عقب المؤتمر الصحفي، وفي غرفته الخاصة، كان يستشيط غضبًا، وصوته يهدر من شدة السخط، لائمًا سكرتيره على المأزق السخيف الذي وُضِعَ فيه، والمسكين يتلقَّى العتاب في خنوعٍ صامت. في قرارة نفسه، يعلم عبد الناصر أنه سيصير أضحوكة الصحافة العالمية غدًا، وعقدة الاضطهاد المزمنة تهيبُّ له أن الجميع يتآمرون ضده. كان يشعل سيجارة تلو الأخرى قبل أن تنتهي سابقتها، ثم سأل الرجل بصوتٍ بدا كالفحيح: عمَّن يتحدث ذلك الصحفي الأخرق؟

• رجل يُدعى شهدي عطية.

قَطَّب عبد الناصر حاجبيه بشدة للحظات، ثم صاح: شهدي عطيه!!.. الذي تولى رئاسة تحرير الجماهير؟!

أوماً الرجل برأسه إيجاباً، قائلاً: هو ذاته.

• يا لغبائهم... أفقد المصيلحي عقله أم ماذا؟ كيف تطورت الأمور إلى هذا الحد؟.. ألم يجدوا سوى شهدي عطيه؟

لم يجر الرجل جواباً، فأثر الصمت، قبل أن يلتفت إليه عبد الناصر، قائلاً: أبرق إلى القاهرة بفتح تحقيق عاجل ومفصل في هذا الأمر.

استدار الرجل ليغادر، قبل أن يستوقفه عبد الناصر: وسرب الخبر إلى الصحف كي يكون المانشيت الرئيسي غداً.

اندهش الرجل، فسأل مستنكراً: خبر الوفاة؟!

صرخ ساخطاً: خبر فتح التحقيق يا غبي.

الحقيقة أن لا أحد يدري كيف أفلت نعي شهدي عطيه من مقص الرقيب، وظهر رثاؤه في جريدة الأهرام الرسمية بتاريخ ٢٠ يونيوه مُكَلِّلاً بأبياتٍ من قصيدة للشاعر محمود توفيق، أحد كوادر تنظيم حدتو «الحركة الديمقراطية للتححرر الوطني»:

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى

لها الليل إلا وهي من سندس خضر

بضع خطوات للوراء كي ندرك مَنْ هذا الشخص الذي سبّب اغتياله كل هذا القلق والاضطراب، وكان حجرًا ألقى في مياه سنوات حكم عبد الناصر الآسنة..

شهدي عطيه الشافعي المولود في الإسكندرية، وتخرّج في كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، قسم اللغة الإنجليزية، ثم أكمل دراساته العليا في بريطانيا، ثم عاد ليكون أول مصري يعمل مفتشًا للغة الإنجليزية في وزارة المعارف. انضم إلى تنظيم إسكرا الشيوعي، الذي اندمج بعدها مع الحركة المصرية للتحرّر الوطني (حمتو) لتكوين الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)، فأصبح عضوًا مهمًا في لجنتها المركزية. نشر العديد من المقالات في صحيفة الجماهير التي تولى رئاسة تحريرها، داعيًا إلى تأسيس حزب شيوعي مصري ثوري يمثل الطبقة العاملة. رفضت اللجنة المركزية مناقشة تقريره الثوري فانقسم على حدتو وشكّل «التيار الثوري». لم يحظَ تياره إلا بتأييد محدود، وعاد للانضمام إلى حدتو عام ١٩٥٥. صدر ضده حكم بالسجن لمدة سبع سنوات وعندما خرج من المعتقل كانت الحركة الشيوعية المصرية تواجه موجةً أخرى من القمع على يد النظام الناصري، الذي استولى على الحكم عام ١٩٥٢. أصبح شهدي عطية أحد المؤيدين المتحمسين للضباط الأحرار، واعتبر انقلابهم حركة تقدمية مُعادية للإمبريالية، وعرض آراءه هذه في كتابه «أمريكا والشرق الأوسط» الذي صدر أثناء مقاومة ناصر لحلف بغداد عام ١٩٥٥. وبسبب آرائه المتعاطفة مع النظام نُشرت العديد من مقالاته في جريدة المساء الحكومية.

عقب تأميم قناة السويس والأزمة السياسية التي نجمت عنها حرب ١٩٥٦، كتب مؤلّفه الشهير «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦» الذي يُعدُّ من أهمّ القراءات الماركسية عن تاريخ مصر. كما نشر عددًا من القصص القصيرة «مجموعة حارة أم الحسيني» مسلسلًا في جريدة المساء.

كانت النقطة الفاصلة في حياة شهدي عطيه خصيصًا، والشيوعية المصرية عامة، هي إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، وقيام الجمهورية العربية المتحدة بعاصمتيها:

الشمالية والجنوبية. أيد الشيوعيون المصريون الوحدة، بينما عارضها شيوعيو سوريا والعراق، طلبا بأن تكون وحدة فيدرالية، لا اندماجية، معترضين على حل الأحزاب السياسية، واستبدال تنظيم شكلي بها، هو الاتحاد القومي. ولأن الدكتاتور دائماً أعمى البصيرة، وإن وُهب عيني صقر، لم يجد النظام أمامه إلا شن حملة قاسية على الشيوعيين، أخذًا الصالح بالطالح، وألقى القبض في ليلة ظلماء على شهدي عطيه، وسبعة وأربعين آخرين، في قضية عُرفت إعلاميًا بقضية ال ٤٨.

ثمانية شهور قضاها المعتقلون في سجن الحضرة بالإسكندرية، تنقلهم سيارات كالنجاج للمحاكمة أمام مسرحية عسكرية صُورية، يترأسها قاضٍ هزلي لا يجيد سوى حفظ الحكم الذي أملاه عليه سادته، وعلى الرغم من عبثية المشهد، فإن شهدي ورفاقه دافعوا عن أنفسهم باستماتة، وأعلنوا عن تأييدهم المطلق للثورة ذات الأمجاد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، بل وهتفوا - بدافع من نفاق مطلق أو سذاجة بحتة - بحياة الزعيم المُفدى. كل هذا لم يشفع لهم عند جلاذيتهم، وحُكم عليهم بالسجن في أوردي أبي زعبل..

«الموت.. كنا نعايشه ونخافه ونتمناه وننفسه ونألفه» هكذا وصف اليساري سعد زهران فترة الاعتقال التي قضاها خلف قضبان المعتقل - وهي نفس الفترة التي اغتيل فيها شهدي عطيه - في كتابه المهم (الأوردي.. مذكرات سجين)..

والأوردي سجن صغير مُلحق بليمان أبي زعبل، يبعد عن المباني الرئيسة لليمان بنحو كيلومتر واحد، وفي الأوردي يُعزل عادةً عدد من نزلاء الليمان الأكثر خطرًا. وقد خُصص ليكون معتقلًا للشيوعيين مرتين أثناء حكم عبد الناصر؛ الأولى امتدت من نوفمبر ١٩٥٤ إلى يونيو ١٩٥٩، والثانية من نوفمبر ١٩٥٩ حتى سبتمبر ١٩٦١. لم يكن الأوردي معتقلًا عاديًا، فالتعذيب فيه مختلف عن أي سجن آخر، فهو على حد تعبير زهران: لم يكن التعذيب فيه يهدف إلى انتزاع اعترافات، وإنما كان أشد قسوة وهمجية، كان يهدف إلى تحطيم اللياقة الإنسانية للخصوم السياسيين. إنه ذلك

النوع من التعذيب الذي يجري بأعصاب باردة، وعلى فترات زمنية طويلة بهدف تحطيم الطاقات الفكرية والروحية للإنسان، عن طريق التحطيم البطيء المحسوب، والضغط الدائم المرهق على الوعاء الجسدي..

ويرى زهران أن هذا النوع القاسي من التعذيب لم يأت عفويًا، بل كان هناك تدريب للضباط الذين قاموا به فهو تعذيب مخطط؛ حيث أوفدت السلطة الناصرية في الخمسينيات عددًا من الضباط للتدريب في الولايات المتحدة الأمريكية، من بينهم حسن منير، مأمور أوردي أبي زعل. ولم يكن يرأس حسن منير في مهمته تلك سوى حسن المصليحي، الذي كان في ذلك الحين مسئولاً عن مكافحة الشيوعية في مصر، وكان المستشار الشخصي لعبد الناصر لشئون الأمن الداخلي..

في فجر ذلك اليوم ١٥ يونيه، غابت الشمس على غير العادة، ولكن الحرارة المرتفعة أطبقت على صدور الثلاثمائة سجين في الأوردي القاسي. بلغ بهم الإنهاك منتهاه، وتمنوا أن تُقبض أرواحهم بلا عذاب، وهم نائمون. لم يكن لأمنيّاتهم معنى سوى الفرار من عذاب يتكرر يوميًا. سحبوا أجسادهم خلفهم نحو الساحة الواسعة، كأن أرواحهم فُقدت في مكان مجهول. لاحظوا حركة غير عادية من الجنود والضباط، فتناثرت الاستنباطات الهامسة. أدركوا أن المعتقل على وشك استقبال دفعة جديدة من السجناء، تيقنوا من أهميتها حين غادر اللواء إسماعيل همّت ذاته سيارته، وهو رئيس مصلحة السجون، والمأمور حسن منير يسارع خُطاه ليلحق به كالكلب الوفي..

مصائب قوم عند قوم فوائد، فينشغل عنهم الحراس عند قدوم سجناء جدد، فتقل أو تتلاشى جرعة الضرب بالشوم الصباحية، يزينها باقة من أقذع أنواع السباب البذيء، تنال معظمها من أعضاء أمهاتهم الجنسية، ومنهم أطباء، وحقوقيون، وجامعيون، وضباط سابقون في الجيش والشرطة، ذوو تاريخ حافل من النضال ضد الملك والإنجليز. ضمائرهم تؤنّبهم على سعادتهم من الراحة الوقتية، على الرغم من الغُصّة التي تقف في حلوقهم، وهم يرون زملاءهم سينالهم كما نالوا من قبل. الجنود يبدون

كأنهم يدخرون طاقاتهم للاستقبال المريع، لا يريدون إهدارها في أجساد قتلوا
أرواحها عدة مرات قبل ذلك..

اصطفهم الحراس صفًا واحدًا، وجوههم مسلطة للجدار، وأذانهم مطرقة للسمع.
وصلت السيارتان المخصصتان لنقل المساجين، فاستقبلوهم بوابل من الصدمات
الموجعة في أي مكان تناله عصيهم وأرجلهم، ليُجلسوهم في صفوفٍ يضم كل منها
ثلاثة من المساجين، تحمّل البعض في عجز، بينما ثار البعض الآخر، ومنهم شهدي
عطيه، على المعاملة الحيوانية، فنالهم أضعافٌ من الضرب المُبرح..

ظن شهدي أنه يعامل آدميين، زرع الله الرحمة في قلوبهم، حسب الفطرة، أو ظن
أنهم يرونه مثلهم، وكان مخطئًا في هذا وذاك. لم يدر أن قلوبهم قد تبذلت بقطع من
الصخر، ويجري في عروقهم ماء آسن محل الدماء. كانوا يبتدعون طرقًا للتعذيب
فاقوا بها النازيين. فُرض عليهم الهتاف باسم جلادهم عبد الناصر في طابوري الصباح
والمساء، ومن يرفض يؤول إلى العروسة، ورغم بهجة الاسم، فإنه يشير إلى جهاز من
الخشب الغليظ، مزود بقيود للأطراف الأربعة، لشل حركة المسكين، أثناء جلده
بالسياط، أو يصيبه مثلما أصاب العامل نجاتي عبد المجيد، الذي وُضع في ماءٍ ممثلي
بالفضلات الآدمية، ثم أرغم على احتضان جثة كلب ميت لمدة يومين..!

اقترب حسن منير بجسده القصير، وساقيه السمينتين في غير تناسق، من شهدي
القابع على ركبتيه، فسأله في صرامة ساخرة: أنت شهدي إذن؟
• أنا هو.

• تظن نفسك علمًا غنيًا عن التعريف، وأنت شيوعي وسخ، أليس كذلك؟

لم يُجب شهدي، وأشاح بوجهه في ضيق، فاستفز ذلك المأمور الذي صاح فيه: قُل
إنك امرأة.

فقال شهدي: عيب أسلوبك هذا، فأنت تسيء للنظام بهذا التصرف، ونحن قوى وطنية ليست ضد الحكومة، وحتى لو كنا ضد الحكومة، فليس من حقك أن تسلك هذا السلوك الوحشي فنحن أصحاب رأي.

لم يكن الموقف يتحمل خُطبه الفلسفية، ولم تمتلك عقولهم الحد الأدنى من الذكاء للتدبر في أقواله، فلا يفهمون غير لغة البطش، وهذا ما دفع اليوزباشي عبد اللطيف رشدي أن ينهال عليه ضربًا بالكلمات والركلات، ثم أمر جنوده بسحله سحلاً، نحو ترعة قريبة، متعمدين إغراقه فيها. المسكين يحاول كتمان استغاثاته رغم آلامه، وهذا ما دفعهم لإذاقته المزيد، فنال جولة أخرى من الضرب المبرح، لم تترك في جسده جزءًا سليمًا، ثم عاودوا إغراقه في الترعة..

المعتقلون القدامى يرتجفون، وهم يسمعون أصوات الضرب والتنكيل به، يمر أمام كل منهم الشريط المرّ لحفلة استقبالهم وقت افتتاح تلك البقعة من الجحيم في الأرض. سمعوهم يأمرّون الجنود بتعريته تمامًا، ثم إجباره على الركض حول العنابر، وقد وصل إلى الحالة القصوى من الإعياء. ودَّ بعضُهم لو يتحمل عنه بعض العذاب، فقد كان مثلاً أعلى لكثير منهم، ولكنه كان قد وصل إلى الحافة، فسقط جسده متكومًا بلا حراك..

اتجه إليه جنديان، فوكزه أحدهما بقدمه، فلم يستجب، فقال لزميله: احمله.
• ظهري يؤلمني، احمله أنت.

تناقل الأول قبل أن ينادي على التمرجي، الذي حاول إيقاظه، مستحثًا إياه على القيام، فلم يتحرك. لمح التمرجي انطفاء بريق الحياة في عينيه، ولم يشعر بنبضات قلبه تحت أصابعه المرتجفة، فقال: يظهر أنه خلَّص خلاص.

حملوه إلى طبيب الليمان، الذي أگد الوفاة، ثم ذبح ضميره، وهو يكتب في تقريره أن الوفاة نتيجة هبوط في القلب..

بطبيعة الحال، لم يُفِض التحقيق الذي أمر عبد الناصر بفتحه إلى أي نتيجة، وقد تلقى حسن منير وزبائنه كلمات التطمين من جهة عليا، قبل المثل أمام جهات التحقيق، التي أغلقت القضية، فور انتهاء الضجة حولها. ربما كانت الحسنة الوحيدة لتلك الفاجعة، إن كان لي أن أقول ذلك، أن رجال عبد الناصر قد رفعوا أيديهم عن الشيوعيين بعدها؛ خوفاً من أن يلحق بشهدي آخرون، وخرجوا من المعتقلات بعدها بأشهر قليلة، وقد وَعَوَا الدرس جيداً..

رحلة إلى المدينة

عثمان بن سعيد بن عبد الله بن عمرو بن سليمان (٧٢٨ - ٨١٢م)

الرحلة الطويلة المرهقة لم تثبُت عزيمة. ناقته قد أصابها الوهن تحت شمس الصحراء، تجرُّ ساقياها الخلفيتين في عناء، ولكنَّ جسده الشابَّ المكتنزَ ذا الخمسة والأربعين عامًا كان مملوءًا بالحماس. لم يكن شيء قادرًا على إيقافه، وهو ينظر من بعيد أبواب مدينة رسول الله بريحتها الطيب، سوى الناقة التي أبطأت المسير، ونكَّست عنقها تبغي بعض الكلاً والماء. أشفق لحالها، وجذبها نحو ظل نخلة قريبة، ثم وضع لها بعضًا من قليل الماء الذي تبقى معه. اكتشف وقتها أن الطعام لم يصل إلى جوفه منذ عدة ساعات، فأراح ظهره إلى جذع النخلة، واضعًا في فمه بعض الثميرات الرطبة، أتبعها بشربة من لبن الماعز كان قد ابتاعه في الطريق من مكة إلى المدينة..

رحلته التي بدأها منذ عدة أسابيع توشك أن تصل إلى هدفها، بداية من الفسطاط ذات المناخ المعتدل، ثم الاتجاه شرقًا صوب صحراء سيناء، عبورًا لبحر القلزم بمياهه صافية الزرقة، ثم استكمال الرحلة نحو أقرب الأهلَّة إليه، والإحرام لأداء العمرة. أمضى في مكة بضعة أيام مستمتعًا بالقرب من بيت الله الحرام، ومستزيدًا من الصلوات التي تعادل مائة ألف صلاة، قبل أن يشد الرحال إلى المدينة المنورة، مقتفياً أثر النبي وصاحبه في هجرتهم التي مر عليها أكثر من مائة وخمسين عامًا..

غلبه الثعاس، وكان جسده الذي أضناه السعي صرخ أخيرًا بحاجته للراحة بعدما قارب الوصول. استيقظ وقد غربت الشمس، وقاوم ضوء القمر الشحيح تمام سواد الليل. أصرَّ على إكمال رحلته، وعدم انتظار بلوج الصباح، فمثله يعرفون قيمة الوقت جيدًا، وأن كل

لحظة في عمره، هو مسؤل عنها ولا شك. تجاوز أبواب المدينة، واتجه صوبًا نحو المسجد النبوي مستعِينًا بسؤال المارة، عرض عليه بعضهم الطعام والشراب، فابن السبيل يُعرف بوعثاء السفر، فأبى شاكراً، فلم يعد يُطيق الانتظار..

لم يُضنه البحث عنه، فمجلسه في الروضة الشريفة كما أخبروه، قريبًا من قبر الرسول وصاحبيه. فغر عثمان فاه ذاهلاً، فكيف الوصول إلى الشيخ الطاعن في السن، وحوله الكثير من أبناء المهاجرين والأنصار. أحصاهم ببصره فزاد عددهم عن الثلاثين قارئًا، كُلُّ ينتظر دوره في القراءة على الشيخ نافع بن عبد الرحمن إمام قراء القرآن في المدينة. أصاب عثمانَ الإحباط، وهو المعروف عنه بالمتابعة والإصرار، والوصول لهدفه مهما تكلف من جهد. انزوى إلى أحد أعمدة المسجد، وملمسها البارد، يُذكره بالليالي التي ذاق فيها برودة الصحراء. ها هو الشيخ أسود البشرة طويل اللحية جميل المُحيا أمامه، ولكنه لا يستطيع الوصول إليه..

سمع من بجواره يحادثه: أنت من مصر؟

التفت إلى الرجل الذي قابله بابتسامة واسعة، وقال: أجل، كيف عرفت؟

- أعرف أهل مصر جيدًا أيها الغريب. لهم سمات ظاهرة في ملامحهم ولباسهم. لقد زرت مصر عدة مرات من أجل التجارة.
- تشرفت بمعرفتك يا أخي، أنا عثمان بن سعيد.
- وأنا عبد الله بن أبي صالح. أنت هنا للتجارة أم للصلاة في المسجد؟
- لا هذا ولا ذاك، لقد قدمت للقراءة على يد ذلك الرجل، ولكن كما ترى...
- الشيخ نافع المدني، حوله الكثير من القراء يا أخي عثمان.

برقت فكرة في رأس عثمان، فأمسك بساعد الرجل ضاغظًا، وهو يقول: قل لي يا أخي، من أكبر الناس عند نافع؟

- كبير الجعفريين
- وكيف الوصول إليه؟

ابتسم الرجل، وربّت علي كفه، قائلاً: أنا أصلك إليه إن شاء الله.

مَضِيًا مَعًا لِمَسَافَةٍ لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ، قَبْلَ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ بَابَ أَحَدِ الْمَنَازِلِ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِمَا شَيْخٌ تَامَ مِنَ الرِّجَالِ، بَادِرُهُ عَثْمَانُ بِالْقَوْلِ بِحِمَاسَةٍ: يَا طَيْبُ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ، أَنَا رَجُلٌ مِنْ مِصْرَ، جِئْتُ لِأَقْرَأَ عَلِي نَافِعَ، فَلَمْ أَصِلْ إِلَيْهِ، وَأُخْبِرْتُ أَنَّكَ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ لَهُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ.

تَبَسَّمَ الرَّجُلُ لِانْدِفَاعِهِ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ وَكَرَامَةً.

أَخَذَ الرَّجُلُ طِيلَسَانَهُ، وَمَضَى مَعَهُ إِلَى مَنْزِلِ نَافِعَ، وَكَانَ نَافِعٌ لَهُ كُنْيَتَانِ: كَانَ يُكْنَى أَبَا رُوَيْمٍ، وَأَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَبَايَهُمَا نُوْدِيَّ أَجَابَ، فَقَالَ لَهُ الْجَعْفَرِيُّ: إِنَّ هَذَا وَسَيْلَتِي إِلَيْكَ، جَاءَ مِنْ مِصْرَ لِيَقْرَأَ عَلَيْكَ، لَيْسَ مَعَهُ تِجَارَةٌ، وَلَا جَاءَ لِلْحَجِّ، وَإِنَّمَا جَاءَ لِلْقِرَاءَةِ خَاصَّةً.

قَالَ نَافِعٌ: يَا أَبَا جَعْفَرَ، مَجِيئُكَ فَوْقَ رَأْسِي، وَلَكِنْ مَاذَا أَفْعَلُ مَعَ أَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟

قَبَّلَ الْجَعْفَرِيُّ رَأْسَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: تَحْتَالُ لِهَذَا الرَّجُلِ.

نَظَرَ نَافِعٌ نَحْوَ عَثْمَانَ، الَّذِي كَانَ يَنْتَظِرُ الرَّدَّ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ: أَيْمَكُنْكَ أَنْ تَبِيْتَ فِي الْمَسْجِدِ؟

قَالَ عَثْمَانُ: أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، لَيْسَ لِي إِلَّا رَاحَتِي.

قَضَى عَثْمَانُ لَيْلَتَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَقَامَ لَيْلَتَهُ فِي الرَّحَابِ الطَّاهِرَةِ، وَغَفَا سَاعَتَيْنِ أَوْ يَزِيدَ، ثُمَّ أَيْقَظُهُ تَقَاطُرُ النَّاسِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَتَوَضَّأَ بَانْتِظَارِ الْأَذَانِ. نَمَتْ إِلَى

مسامعه أصوات تقول: وصل نافع. تبعه عثمان بعينه، يرتدي رداءً أبيضَ نظيفًا، وما إن جلس حتى سأل: أين الغريب من مصر؟

لم يصدق أذنيه، فانتفض واقفًا، وقال بصوتٍ عالٍ جعل الجميع ينظر إليه: ها أنا ذا يرحمك الله.

لم يتمالك نافع نفسه، فضحك متسائلًا: أفضيت ليلتك في المسجد؟

- أجل والله.
- فأنت أولى بالقراءة إذن.

جلس عثمان القُرْفَاءَ أمامه، وأخذ شهيقًا عميقًا، برَدَ به أعصابه المتوهجة، ثم استفتح بصوت مرتجف قليلًا، سرعان ما هدا، وقد استعاد صوته طبيعته، فارتفع صوته حتى أسمع الحضور في مسجد رسول الله في فجر ذلك اليوم، وكان حسن الصوت، جيد القراءة وإذا قرأ يهمز ويمدُّ ويبين القراءة فلا يملُّه السامعون، حتى قرأ ثلاثين آية، ثم أشار له نافع أن يتوقف، فسكت عثمان..

علم نافع أن الفتى جميل الصوت، ولكنه إن تركه يكمل فهو يجور على حق القراءة الآخرين ممن ينتظرون دورهم، ولكنه فوجئ بشابٍّ يقوم من الحلقة، قائلاً: يا مُعَلِّمُ، أعزَّكَ الله، نحن معك، وهذا رجلٌ غريبٌ، وإنما وصل للقراءة عليك، وأنت تُقرئ كلاً منا ثلاثين آيةً، وأنا أحبُّ - أعزك الله - أن تجعل لي فيه نصيبًا، وقد وهبْتُ له عشرًا، وأقتصرُ أنا على عشرين.

قال نافع: نعم وكرامة، اقرأ.

قرأ عثمان الآيات العشر التي وهبها إيَّاه الشاب، وكان ابن كبير المهاجرين، حتى انتهى، فقام إليه فتى آخر فقال: يا مُعَلِّمُ، أعزَّكَ الله، إني أحبُّ أن أهب لهذا الرجل

الغريب عشرًا، وأقتصر أنا على عشرين، فقد تفضّل عليه ابنُ كبير المهاجرين، وأنت تعلم أني ابنُ كبير الأَنْصار، فأحببتُ أن يكون لي أنا أيضًا مثل ما له من الثواب.

وفعل الآخرون مثلما فعل الأَوْلان، حتى قرأ عثمان خمسين آيةً، حتى لم يبقَ أحدٌ ممن له قراءةٌ، ثم أعادوا الكرّة، فقرأ خمسين آيةً أخرى..

أعجب نافع كثيرًا بعثمان، حتى قرّبهُ إليه قائلاً: قلتَ لي إن اسمك عثمان، أليس كذلك؟

• أجيل يا شيخنا.

ضحك نافع، قائلاً: ولكنك أشبه ما تكون بطائر جميل في المدينة، يشبه الحمامة، اسمه ورشّان، فهو مثلك أبيض وقصير وسمين.. أتحنن إن دعوتك ورشان؟

• وكيف أحزن، وقد سميتني أنت به، والله إن اسم ورشان أحب إليّ من عثمان من الآن.

لم يكن عثمان كاذبًا، فقد ظل اسم ورشان محبوبًا إليه بالفعل، وكان يقول: يكفي أن شيخي دعاني به. ومع الوقت حُفّف اسم ورشان إلى ورش، وصار هذا هو الاسم الذي ظل الناس ينادونه به حتى وفاته، حتى إن معظمهم صار لا يعرف اسم عثمان..

ختم ورش القرآن قراءةً في أسبوع، ثم أتبعه بثلاثِ ختماتٍ أخرى، ورحل من المدينة بعد شهر عائداً إلى مصر، ليصبح شيخ القراء المصريين بلا منازع، حاملاً معه رواية ورش عن نافع، التي تُعد واحدة من القراءات العشر المعتمدة للقرآن، وأصبحت روايته هي السائدة في مصر، ومنها انتشرت إلى دول المغرب العربي ثم إلى الأندلس، حتى حدث الغزو العثماني لمصر على يد سليم الأول، وأقرّوا بسلطتهم جعل رواية حَفْص عن عاصم هي الرواية الرسمية للبلاد، كما هو الحال في الآستانة..

ورواية ورش عن نافع تختلف عن رواية حفص عن عاصم في عدة أوجه، فنجد على سبيل المثال ورش يُغَلِّظ كل لام مفتوحة قبلها (ص أو ط أو ظ) مفتوحة أو ساكنة، ويُرَقِّق الراءات التي قبلها ياء أو كسرة أو قبلها حرف ساكن قبله كسرة، ويمد المتصل والمنفصل ٦ حركات، ويُسهِّل الهمزة الواقعة فاءً في وزن التفعيلة، ويُقلِّل ذوات الياء، ولديه الإمالة في هاء (طه) وأمور أخرى اختلف فيها عن الإمام حفص الكوفي..

رحلة العلم التي ارتحلها الإمام وَرَشَ للتعلُّم على يد شيخه الإمام نافع، الذي تُوفِّي عام ٧٨٨ م، بالإضافة إلى إصراره ومثابرته، غيَّرًا تمامًا شكل قراءة القرآن حتى يومنا هذا، وأولئك القراء الذين لم يذكر التاريخ أسماءهم، ساهموا بهباتهم في أن يبقى اسم ورش عن نافع باقياً حتى يومنا هذا، كأحد القراء البارزين الثقات..

في شبّاك الموساد

فيكتورين نينو

(٥ من نوفمبر ١٩٢٩ - ٢٣ من أكتوبر ٢٠١٩)

أيقظتها نسمة هواءٍ رقيقة تسلّلت من النافذة شبه المفتوحة، حملت إليها رائحة بحر الإسكندرية التي تهيم بها عشقًا. لم تبال بكونها شبه عارية حين قامت لتغلقها، وقدمائها الحافيتان تسرعان الخطا للعودة إلى فراشها الدافئ، وضعت كفّها مفتوحةً على ظهر رفيقها الغارق في سباته. ودّت لو استيقظ، فيعيدان المتعة، ولكن صوت شخيرته الذي ارتفع أحببها، فمدت يدها إلى المنضدة المجاورة لتتناول علبة سجائره؛ لتشعل إحداها بعود ثقاب صغير، وتنفث دخانها في صمت..

حملتها الأفكار عدة سنوات إلى الخلف، وبالتحديد إلى شهر مايو من عام ١٩٥١، حين التقته للمرة الأولى. تذكر ذلك اليوم جيدًا، كأن بضع ساعات قد خلت. كانت على وشك مغادرة الاستاد بعد أن أنهت مباراة خاسرة في كرة السلة التي تحترفها منذ عدة سنوات، وشاركت ضمن فريق السلة المصري في أولمبياد لندن ١٩٤٨. أوقفت الحكومة المصرية أنشطة النادي الرياضي اليهودي، التي كانت تلعب تحت رايته، بعد حرب فلسطين، وضيّقوا الخناق على رياضيه. الضيق يتملّك منها، فالخسارة والموت عندها سواء، لا يمحو مرارتها إلا فوز قريب. سمعت اسم مارسيل يأتيها من خلفها، وهو الاسم الذي تشتهر به، لا يناديها بفيكتورين إلا قليلون. التفتت لتجد صديقًا قديمًا للأسرة لم تقابله منذ فترة، يفوقها عمراً بعدة أعوام. صافحته في دهشة، لم تحاول إخفاءها، رغم حفاوته المبالغ فيها. كانت تقابل عبارات ترحابه بكلمات مقتضبة، وإن لم تستطع إخفاء فضولها حين دعاها إلى كوبٍ من الشاي في مقهى قريب. لبّت دعوته لتعرف الغرض من ورائها. استبعدت فكرة أنه يتقرب

إليها، فهو متزوج على ما تعلم. أطفأ نار حَيْرَتِهَا حين أخبرها بمرافقتها صديقًا آخر له، لديه عرض وظيفي لها..

لم تدرِ فيكتورين أبدًا أن ذلك العرض سيغير حياتها كلها حتى تلفظ آخر أنفاسها..

عرّف نفسه باسم إنجليزي (چون دارلنج)، وأخبرها بكل بساطة أن هذا ليس اسمه الحقيقي، وإنما اسمٌ حركي، لا يفيدُها أن تعرف غيره في الوقت الحالي. شعرت فيكتورين بقلق شديد، وأرادت المغادرة، فقال بصوته الهادئ: نحن نعرف مَنْ أنت وماذا تفعلين بالضبط.

ازدردت لُعابها بصعوبة، وعادت إلى مقعدها، قائلة: أنتم.. مَنْ أنتم؟

مال نحوها، قائلاً بصوتٍ خافت: نحن في إسرائيل.

ارتجّت في مقعدها، قبل أن تحاول تمالك أعصابها، وهي تقول بصوتٍ كالفحيح: إسرائيل.. وما شأني أنا بإسرائيل؟

نظر إليها لحظات بابتسامة هادئة، جعلت الدماء تجفُّ في عروقها، وكل ما يجول بخاطرها أن ذلك الرجل عميل للأمن المصري، وقد وقعت في قبضتهم، قبل أن يُخرج من جيبه أقصوصة صغيرة، قرأ منها: فيكتور ليقي.. روبرت داسا.. فيليب ناتانسون.. مائير زعفران.. وآخرون أنت تعرفينهم أفضل مني.

أدركت أن كل الأوراق قد احترقت، فوضعت سيجارة بين شفتيها، أسرع چون بإشعالها لها، فنظرت إليه لحظة في حيرة، قبل أن تسأله في صراحة: أنت من القلم السياسي.. أليس كذلك؟

أطلق قهقهةً عالية، وكأنه سمع دُعاة أعجبتَه، قبل أن يقول: وهل يتناول القلم السياسي الشاي مع المتهمين، ويُشعل لهم السجائر؟

ثم خَبَت ضحكته، وهو يردف في خفوت: نحن في إسرائيل نعرف جيدًا كم تبذلون من جهد وأموال لتنقذوا اليهود من قبضة الأمن المصري، وكيف نجحتم في تهريب العشرات من شباب اليهود إلى الوطن الجديد.. نحن نعرف بالضبط من هي فيكتورين مارسيل نينو، وعلاقتها ببقية أفراد الخلية السرية في القاهرة، بل والأهم نعرف علاقاتها بضباط الجيش.

شعرت فيكتورين أنها باتت عارية فجأةً وسط ميدان مُكتظ، والرجل الغامض يعرف عنها كل ما جاهدت لسنوات لإخفائه منذ قيام دولة الصهاينة في فلسطين، وانضمامها للوكالة اليهودية، وتأليف خلية (هاشومير حتسعير) السرية المُكوّنة منها وتسعة آخرين لتهجير اليهود سرًا إليها. أدركت ببصيرتها أن الأمن لم يكن سيتهاون معهم أبدًا إن أوقعوا بهم، وأن ذلك الرجل هدية إسرائيل إليهم تقديرًا لجهودهم..

أخبرها چون دارلنج أن التعليمات قد صدرت من تلّ أبيب باستغلال عملهم الدّؤوب بذكاء، بعيدًا عن أعمال الهوّة، المعرضة للفشل في أي وقت، ونقلها إلى مستوى آخر من الاحترافية. بداية من ١ من أبريل ١٩٥١، وخلال أربعة أشهر فقط، نجح إبراهيم دار ضابط الاستخبارات الإسرائيلية، والمعروف حركيًا باسم چون دارلنج، في تجنيد اثني عشر رجلًا وامرأة وحيدة من شباب اليهود. واتخذ مقرًا لشركة استيراد وتصدير كبرى كستار لتخطيط عملهم، حصلت فيه فيكتورين على وظيفة سكرتيرة، بحكم إجادتها الطباعة وأعمال السكرتارية، ولكنها في الحقيقة كانت حلقة الوصل بين مجموعتي القاهرة والإسكندرية. أدرك إبراهيم أن نظراتها إليه كانت مليئة بالعشق، فالأنثى تظل أنثى مهما حصل، فاستدرجها، حتى أوقعها في حباله بيّسر، وكان ذلك ضامنًا آخر لنجاح خليّته..

لسببٍ غير معلوم، تلقى إبراهيم دار تعليمات بمغادرة مصر في أغسطس من العام ذاته، وأوكلت قيادة الخلية إلى العميد موردخاي بن تسور قائد الوحدة ١٣١ التابعة رأسًا لجيش الأركان الإسرائيلي، والذي أتى إلى مصر بهدف رئيس، وهو إسقاط نظام حكم فاروق الأول بعد تدخّله في حرب فلسطين؛ من أجل الإتيان بنظام أكثر مرونةً في التعامل مع الدولة الجديدة..

جرت الأحداث بطريقة مختلفة عمّا خُطط لها، فأسقط الضباط الأحرار نظام فاروق في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، قبل أن تُجري الخلية أول عملياتها، فأنت الرياح بما اشتهدت سفن الإسرائيليين، دون تدخل منهم. أصدرت تل أبيب تعليماتها بتجميد عمل الخلية تمامًا، ووضعها في حالة خمول تامّ لحين الحاجة إليها..

لم يمتلك النظام الجديد المرونة اللازمة التي تمنها الصهاينة، فهم ضباط بالجيش، قبل أن يكونوا حكامًا، ذاقوا مرارة الهزيمة في شوارع الفالوجة، وشهدوا بأعينهم كيف تحصد العصابات اليهودية أرواحهم كالذباب. بكثيرٍ من الحكمة، وضع مجلس قيادة الثورة نُصب عينيه هدفًا واحدًا أساسيًا، وهو التخلص من الاحتلال الإنجليزي؛ ظنًا منهم أن أي إصلاح لما أفسده الحكم المَلَكِي لن يتأتى إلا بعد إعلان الاستقلال الفعلي للبلاد. تابع اليهود بكثيرٍ من القلق مفاوضات الجلاء، يعرفون أن دولتهم الجديدة لا زالت تحبو، وتحتاج إلى بعض الوقت من أجل مجابهة أعدائهم من العرب المحيطين بهم من كل اتجاه، بالإضافة إلى الفلسطينيين الداخلين الذي يثيرون القلاقل بين الحين والآخر. رفع جهاز الموساد الذي شكّل حديثًا تقريرًا إلى وزير الدفاع بنحاس لاقون، مفاده أن ليس من مصلحة إسرائيل أبدًا إعلان مصر استقلالها الآن، فيتفرغ قادتها لإسرائيل كعدوّ، بل من المحتمل أن يتمادوا بتأميم قناة السويس من الهيمنة البريطانية والفرنسية؛ مما يشكل خطرًا مضاعفًا على أمن إسرائيل..

سواء حدث هذا بقرار منفرد كما اتهموه، أم بتدبير من رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية الـجنرال بنيامين جبلي كما دافع لاقون عن نفسه بعدها، إلا أن قرارًا قد صدر بإعادة تنشيط العملية سوزانا، فعاد إبراهيم دار إلى مصر من جديد، ليلتقي بأعضاء خليته، والذين كانوا قد سافروا سرًّا إلى إسرائيل لتلقّي تدريبات فائقة، وأصبحوا على أهبة الاستعداد لخدمة إسرائيل على حساب أوطانهم..

لم تصدق فيكتورين عينيها حين رأتته من جديد، وقد ظنت أنها لن تراه ثانية. لم يخيب إبراهيم رجاءها، وقابلها بشوق مماثل مدروس، وملاً عقلها وأذنيها بكثيرٍ من كلمات العشق

المعسول، ووعود بالزواج في أكبر معبد في القدس المحتلة بعد انتهاء مَهْمَتهم شديدة الخطورة..

هدفهم واضح بصورة فجّة، وهو تدمير العلاقات بين مصر وبريطانيا من ناحية، ومصر وأمريكا من ناحية أخرى، عبر ضرب مصالح استراتيجيّة أجنبية في القاهرة والإسكندرية، وإصاق التهمة في الإسلاميين، الذين يتبادلون العداء الآن مع النظام الناصري، بعد أن كانوا حلفاء سابقين شديدي الدعم للثورة. قد ينتج عن هذا إلغاء مفاوضات الجلاء، أو تعطيلها على أقل تقدير؛ مما يمهل الموساد الفرصة حتى يشتد عوده. أسلوب عمل الخلية انصبّ حول ضرب مؤسسات استراتيجيّة سواء أكانت اقتصادية أم إعلامية، وتلغيم سيارات دبوماسية بريطانية مع أفضلية إسقاط أكبر كمّ ممكن من الضحايا الأجانب، بالإضافة إلى محاولة استهداف أهداف أخرى شاهقة القيمة في منطقة القناة..

سأله موشيه مرزوق، وهو طبيب يعمل بالمستشفى الإسرائيلي بالعباسية، وكان يرأس مجموعة القاهرة: وكيف ستصل إلينا تعليمات بدء العملية؟

- استمعوا إلينا في الساعة السابعة من كل يوم على موجه طولها (G) لتلقّي التعليمات.

جميعهم يعلم أن الموجه (G) هي موجه راديو إسرائيلي، وأن التوقيت هو الساعة صباحًا، وهو موعد برنامج منزلي يومي كانت المعلومات تصل عبره يوميًا إلى الشبكة، وعندما أذاع البرنامج طريقة عمل «الكيك الإنجليزي»، وأطلقت إسرائيل كلمة السر «اختيار ربّة المنزل» كانت هذه هي الإشارة لبدء العملية..

في ٢ من يوليو ١٩٥٤، كانت أولى العمليات الإرهابية للشبكة نجحوا فيها بتلغيم مكتب البريد الأمريكي في مدينة الإسكندرية بطرد صغير الحجم؛ مما أسفر عن حريق المكتب، وعدد من الضحايا. عثرت السلطات على بعض الأدلة، علبة أسطوانية الشكل لنوع من المنظفات الصناعية كان شائعًا في هذا الوقت اسمه «فيم»، بالإضافة

إلى حافظة لنظارة طبية تحمل اسم محل شهير في الإسكندرية امتلكه أجنبي يُدعى «مارون أياك». تولّى التحقيقات الصاغ ممدوح سالم وزير الداخلية فيما بعد، ثم رئيس الوزراء، ثم مساعدًا لرئيس الجمهورية.

بعد الفحص، تبين أن اللعبة الأسطوانية كانت تحتوى على مواد كيميائية وقطع صغيرة من الفوسفور الأحمر. أغفلت الصحف تمامًا ذكر ذلك الحادث؛ مما أثار غيظ الإسرائيليين، الذين يعتمدون بصفة أساسية على الخوف الذي يبثّه الإعلام؛ مما دفعهم للتعجيل بعمليتهم الثانية، فقاموا في ١٤ يوليو بزراعة قنابل حارقة في مقر المكتبة الأمريكية بالقاهرة والإسكندرية في آن واحد؛ مما أدّى إلى حرائق وإصابات بين العاملين والمترددین على المكتبتين. تعاملت الصحف وقتها مع هذا الحادث باعتباره «ماس كهربائي»..

كل تلك العمليات كانت استعدادًا للضربة الكبرى في ذكرى ثورة يوليو، أراد الإسرائيليون استغلال يوم ٢٣ يوليو لتوجيه عدة طعنات إلى جسد العلاقات بين مصر وبريطانيا، لعلها تكون القاتلة. كان من المفترض وضع متفجرات في محطة القطارات ومسرح ريڤولي بالقاهرة وداري السينما (مترو وريو) في الإسكندرية، غير أن سوء الحظ لعب دوره، فاشتعل أحد المتفجرات في جيب العميل المكلف بوضع المتفجرات بدار سينما ريو، وتواجد رجل شرطة في المكان في ذلك الوقت، فتشكّك في تصرفاته وقلقه المبالغ، فأصرَّ على اصطحابه إلى المستشفى بدعوى إسعافه برغم محاولاته التملُّص منه. قال الأطباء هناك إن جسم الشاب ملطخ بمسحوق فضي لامع، وأن ثمة مسحوقًا مشابهًا في حافظة نظارة بحوزته. رجَّح الأطباء أن يكون الاشتعال ناتجًا عن تفاعل كيميائي، وبتفتيش الشاب عُثر معه على قنبلة أخرى، فتم اعتقاله، وقال إن اسمه فيليب ناتانسون يهودي الديانة، وعمره ٢١ عامًا وجنسيته غير معروفة، وبمزيد من الضغط، اعترف بأنه عضو في منظمة مسئولة عن الحرائق، وعُثر في منزله على مصنع صغير للمفرقات ومواد كيميائية سريعة الاشتعال وقنابل حارقة جاهزة للاستخدام، وأوراق تشرح طريقة صنع القنابل..

- وبناءً على اعترافات ناتانسون، والتحريات التي قامت بها أجهزة الأمن المصرية في غياب دور المخابرات العامة التي كانت لا تزال في بداياتها، تم القبض على كل من:
- فيكتور موين ليقي، مصري يهودي يبلغ من العمر ٢١ عامًا، مهندس زراعي.
 - روبير نسيم داسا، مصري يهودي يبلغ من العمر ٢١ عامًا، يعمل في التجارة.

أمام المحققين أصرَّ الثلاثة على أنهم يعملون بشكل فردي دون مُحرضين أو مُمولين، أما أسبابهم فهي حب مصر، ومساهمة في قضيتها الوطنية لكي يعرف الإنجليز والأمريكان أنهم سيخرجون من مصر بالقوة والإرهاب، لا بالتفاوض..

لم تقنع تلك الإجابات المحقق الذي بادرهم: ولماذا أحرقتم مبنى البريد وهو ملك المصريين؟ لم يحزَّ أيهم جوابًا..

تقرير المعمل الجنائي أبطل مزاعمهم، فقد عُثر على شرائح ميكروفيلم في منزل فيليب ناتانسون، وثبت فيما بعد أن هذه الشرائح دخلت مصر قادمة من باريس بالتتابع بأن لُصقت على ظهور طوابع البريد، ولأن الميكروفيلم كان أعجوبة هذا الزمان، وكان مقصورًا فقط على أجهزة المخابرات وشبكات التجسس، فقد بدأت شبهة التجسس تحوم حول العملية..

بعد تكبير الشرائح، بوسائل بدائية، اتضح أنها تحتوي على سبع وثائق عن تركيب واستعمال القنابل الحارقة، بالإضافة إلى شفرة لاسلكي وأشياء أخرى.

ثم تم القبض على صمويل باخور عازار يهودي الديانة يبلغ من العمر ٢٤ عامًا مهندس، وهو مؤسس خلية الإسكندرية، وزعيمها لبعض الوقت، ومن اعترافاته توصلت السلطات إلى مائير موحاس ذي الأصل البولندي، الذي يعمل كمندوب مبيعات.

وكان أخطر ما اعترف به موحاس هو إشارته إلى چون دارلنج أو إبراهيم دار، الذي يعرفه الأمن كأحد أخطر رجال المخابرات الإسرائيلية في ذلك الوقت..

كما كشف موحاس عن الطبيب موشيه مرزوق، فتم القبض عليه، ومن اعترافاته تم القبض على فيكتورين نينو الشهيرة بمارسيل وماكس بينيت وإيلي چاكوب ويوسف زعفران وسيزار يوسف كوهين وإيلي كوهين الجاسوس الشهير الذي أُفرج عنه لعدم إثبات تورطه، فهاجر إلى تل أبيب، وعمل كجاسوس عالي الأهمية لإسرائيل لدى سوريا، حتى كشف أمره رجال المخابرات المصرية..

نجح إبراهيم دار في الفرار خارج البلاد قبل السقوط، ولحق به بول فرانك المشرف على التنظيم، بينما سقط باقي أعضاء الخلية كحبات عنب ننتتة لعنقود قديم، ووجد رجال الأمن أنفسهم أمام سيل غامر من المعلومات بات خارجًا عن قدرتهم في الحصر. رفعوا الأمر لجمال عبد الناصر، الذي استغل الفرصة أيما استغلال لإظهار نيات إسرائيل السيئة أمام العالم الغربي، فكان للفضيحة صدى عالمي. أصدر موشيه ديان - رئيس الأركان في ذلك الوقت - قرارًا بعزل موردخاي بن تسور من قيادة الوحدة ١٣١، وتعيين يوسي هارئيل بدلًا منه، فما كان من الأخير إلا أن اتخذ أحد أكثر القرارات غرابةً في تاريخ المخابرات، بأن استدعى جميع العملاء في كل البلاد العربية وأوقف جميع النشاطات..

قُدِّم الخونة للمحاكمة أمام محكمة القاهرة العسكرية في ديسمبر ١٩٥٤، التي أصدرت حكم الإعدام ضد موشيه مرزوق وصموئيل عازار، وتم تنفيذه بالفعل في نهاية يناير من العام التالي، وتنوعت أحكام السجن على باقي المتهمين بين الأشغال الشاقة المؤبدة حتى السجن لمدة ٧ أعوام، كان نصيب فيكتورين منها خمسة عشر عامًا..

أطبقت على صدر فيكتورين قضبان السجن القاسية، وقد نالت أطول فترة عقاب لامرأة في تاريخ القضاء المصري حتى ذلك الوقت. في حلقها غصّة، وفي قلبها إحساس أن إسرائيل قد تخلّت عنهم رغم ولائهم المطلق لها. تصلها أبناء متفرقة من الصحف التي تتسرب أن هناك غليانًا في الشارع الإسرائيلي، ضغطًا على القيادة السياسية من أجل قضيتهم. حاولت إسرائيل استرضاء مصر في أعقاب المحاكمة

للإفراج عن التنظيم، واشتركت كلُّ من أمريكا وبريطانيا في ذلك، فبعث الرئيس الأمريكي أيزنهاور برسالة شخصية إلى عبد الناصر يطالب بالإفراج عن المحتجزين لدوافع إنسانية، وبعث أنتوني إيدن وونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني ومسئولون فرنسيون بخطابات وطلبات مماثلة، فُوبلت جميعها بالرفض المطلق. قالت وكالة الأنباء الإسرائيلية حينها، إن «هذا الرفض يُعد صفةً على أافية حكام الغرب، ويدل على أن مصر تمضي في طريقها غير عابئةٍ بغير مصلحتها».

نبأ انتحار ماكس بينيت في محبسه أصابها في مقتل، كيف لا، وهو أقربهم صلة برجال الموساد، ومسئول التواصل بين الخارج والداخل، ولم يكن يبلغ تلك الدرجة من اليأس إلا لعلمه أن الأمر قد انتهى، وأن لا سبيل للخروج. أدركت الشابة ذات العشرين عامًا وتيَّف أن لا فرار من قبضة الأمن إلا إلى القبر، فأجرت محاولتين للوصول إليه انتحارًا باءت كلاهما بالفشل..

أتى العام ١٩٦٧، وألحقت إسرائيل بمصر الهزيمة الأذلَّ في تاريخها الحديث، فحملت النكسة كذلك انفراجًا في قضية سجناء فضيحة لاقون، الذين تم الإفراج عنهم في صفقة لتبادل الأسرى مع بدايات عام ١٩٦٨. استقبلوا في إسرائيل استقبال الأبطال، وتم تعيين معظم هؤلاء الجواسيس في الجيش الإسرائيلي برُتب عسكرية، فحصلت على رتبة مُقدِّم من سلاح المخابرات الإسرائيلية..

درست مارسيل اللغة العبرية والأدب الإنجليزي بجامعة تل أبيب، وتزوجت عام ١٩٧١ من إيلي بوغر، وحضر كلُّ من وزير دفاع جيش الاحتلال آنذاك موشيه ديان وجولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة حفل زفافها. وقالت مائير عنها: «كان لدى نينو جهاز راديو ترانزيستور غير قانوني، كانت تستمع عبره للأخبار، وقبل نومها تنصت للإذاعة الإسرائيلية لتستمع للنشيد الوطني الإسرائيلي هاتكفاه».

بعد ٢٠ سنة من أحداث عملية سوزانا ظهرت مارسيل برفقة روبير داسا ويوسف زعفران للمرة الأولى على شاشة التلفزيون الإسرائيلي، وهاجموا الحكومات

الإسرائيلية التي لم تكلف نفسها عناء البحث عن طريقة للإفراج عنهم..

تُوقِّيت فيكتورين نينو في ٢٣ من أكتوبر ٢٠١٩ في هدوءٍ عن عمر يناهز ٨٩ عامًا،
وحضر تأبين الجنازة رئيس جهاز الموساد يوسي كوهين..

كَيْدُهُنَّ

كا وعب

(؟ - ٢٦٧٠ ق. م.)

على غير العادة، أصرت أن يتناولوا معًا كأسًا من الخمر قبل خروجه، حاول التملُّص من مطالباتها، فهو شديد القرب من الكهنة، ويُبغض مثلهم الخمر التي تُذهب العقل، فتدلَّت..

تعدَّدت زوجاته ومَحظِيَّاته، ولكن ظلت حتب حرس الثانية أقربهم إليه، تحتل دومًا مكانة متميزة في قلبه. لجمالها ونعومة صوتها أثر السحر في نفسه. في بشرتها نعومة تضاهي نعومة جلد الأفعى الأملس. أحاطته بعشق وقبلاط جعلته يوافق أن يحتسي معها كأسًا واحدًا فقط أعدته له بنفسها..

يعشقها منذ الصَّغَر، وفي عينيه يظهر حبه لأخته غير الشقيقة على الرغم من نشأتهما معًا. أحبها والده الملك العظيم خنوم خو إف وي، والمشهور باسم خوفو، من كل قلبه، أسماها على اسم أمه الملكة العظيمة حتب حرس، فأعطيت لقب الثانية تمييزًا. زوَّجه أبوه إيَّاه، بمباركة كبير الكهنة، فور أن باح جسدها بأثار الأنوثة، في حفل جليل، أُقيمت له الاحتفالات طيلة أربعين ليلة. لِمَ لا، وهو أكبر أبنائه، ووليِّ عهده، وورث عرشه المنتظر..

الشمس تصبغ السماء بلون أرجوانيٍّ رائع، إيذانًا بفجر جديد يشرق على المملكة المصرية العظمى المترامية الأطراف. قد خضع كل أعداء المملكة، ودانوا بالولاء في فترة حكم جدِّه، الملك سنفرو الأعظم. العمل في الهرم العظيم الذي يحتوي على مقبرة أبيه، يسير على قدم وساق، ويوشك على الانتهاء. أرادت أن يستلقيا قليلاً، فأطاعها. أراحت رأسها على صدره ممشوق العضلات، مستمتعين بنسمات هواء تأتيهم من مراوح ريش عملاقة تحركها أيدي العبيد بلا كلل ولا توقف. الفراش المُغَطَّى بجلود الثعالب الحريري الملمس يعطي إحساسًا

بالخمول والسكينة. امتزج داخله إحساسان بالسرور والدهشة، فقال ونشوة الخمر قد بدأت تحيط برأسه: ما بك اليوم يا فتاتي؟ كأنك لا تريدين مني الخروج.

قالت بغُنج: وهل تتخلّى الجارية عن حُضن مليكها؟!

أصابت إجابتها المُتدلّلة قلبه بسكّين عذبة، فسأل عشقًا، ثم مد يده يعبث بخصلات شعرها حالك السواد كليلٍ بلا قمر، وهو يقول: ولكنني سأتأخر على رحلة الصيد، والشمس توشك أن تضيء الكون.

طبعت قُبلة ساخنة على وجنته، ثم سقته بيدها بقية كأسه حتى الثُمالة، في حين بقي كأسها على حاله، وهي تقول: عدني أن تفتك بالعديد من الفرائس اليوم.

ضحك منتشيًا، وهو يقول: أفلا أفعل دومًا؟ سألقئها عند قدمك قبل المغيب، فلا تقلقي.

قالت بابتسامة ساحرة: أثق في أنك ستفعل.

نهض من مرقد، وبحث بعينيه لحظات، ثم سألها: أين نفر حُتب إس؟ لم أرَ اليوم سوى الأولاد؟

أجابت: في غرفتها مع الماشطة.

• حسنًا، أبلغئها سلامي حتى ألقاها عند عودتي.

صمتت، ولم تُعقب سوى بهزة رأس، قبل أن تسأله: هل انتهى العمل في المصاطب الجنائزية؟

نظر إليها بدهشة حقيقية، قبل أن يقول: أجل، انتهى منذ عدة أشهر، ولكن ما الذي ذكرك بها؟

تلعثمت لحظة، قبل أن تقول بابتسامة مرتبكة: أردت أن أسألك عدة مرات من قبل، ولم تُسعفني الذاكرة سوى الآن.

ثم مالت نحوه، قائلةً في همس: أردتُ التيقُّن من أن رحلتنا إلى العالم الآخر سنكون فيها معًا، ولن يفرقنا شيء.

ضحك قائلاً: لا تخافي، قد أعدت على أفخم طراز في الجانب الشرقي لهرم أبي.

ناول أحد الخدم قوسه وسهامه المصنوعة من الذهب الخالص، والذي يعتني بها دومًا بنفسه، قبل أن يلتفت إليها مودعًا، وهو يقول: ها أنت قد جعلتني أحتسي الخمر على كرهى لها، وهي تقلل من تركيزي في الصيد.

لام نفسه كثيرًا على شرابه تلك الكأس، وخامره شعور مُمضٍ بالغثيان، أثناء رحلته بالعربة التي تجرُّها الخيول نحو صحراء «أبو رواش»، والتي يحلو له أن يقوم فيها برحلات صيده المتكررة. طالب السائق أن يهدئ من سرعته فوق الرمال والحصى، ولدهشته لم يهتم الأخير. صرخ فيه مغاضبًا، فما كان من السائق إلا أن انحرف بزاوية حادة كادت تطيح به خارج العربة كلها. شعر كا وعب بالخوف، فنظر خلفه، فتفاجأ أن بقية موكبه قد توقف، ولم يتبعه..

الدُّوار يكتنف رأسه بشدة، مدَّ يده صوب كنانته، فوجدها فارغة من السهام. أدرك أن مكيدة تُدبر، وأيقن ذلك أكثر حين توقف السائق بغتةً بالعربة خلف هضبة عالية، تحجبه عن الأعين. لا مشكلة هاهنا، فالسائق ضئيل الجسم، وقوة كا وعب وحدها كفيلة بالقضاء عليه، وإن كان أعزل.. ولكن.. فقط ذلك الدُّوار اللعين..

حين رأى كا وعب أولئك الرجال المُدجَّجين بالجِرَاب يظهرون من خلف تلة قريبة، تمنعه الغشاوة التي تظلل عينيه من حصر عددهم بدقة، أدرك أن كأس الخمر التي سقته إياها حتب حرس بيديها المرمريتين لم تكن بريئة أبدًا..

حزن خوفو حزناً شديداً على وفاة نجله الأكبر ووريث عرشه غدرًا، وتوعد بالانتقام الشنيع ممن حولوا جسد ابنه إلى مصفاة مليئة بالثقوب، فأوكل إلى ابنه الآخر دجيدف رع مسؤولية البحث عن مرتكبي تلك الجريمة، ووعده ابنه بفعل ذلك في أسرع وقت. شيعت جنازة مهيبة كما وعب صوب مصطبته الجنائزية رفيعة المقام شرقي هرم خوفو، وحفظت أحشاؤه في أربعة أوانٍ كانوبية من الفخار ضمت المَعْدَة والأمعاء والرئتين والكبد..

أصبح لزامًا على خوفو تعيين وليّ جديد للعهد، فالعمر يتقدم به، والمرض يُشعره بدنو رحلته إلى العالم الآخر. استغل حفل انتهاء هرمه الأعظم، وأعلن تنصيب دجيدف رع وريثًا للعرش، كما أعلن تزويجه من شقيقته وزوجة أخيه الراحل حتب حرس الثانية، حفاظًا على الدماء الملكيَّة..

ارتمت حتب حرس الثانية في أحضان مليكها الجديد، الفرحة تغمرها، وقد سارت خطتهما كما دبرا لها، ودان الملك أخيرًا لدجيدف رع بعدما كان صعب المنال في ظل وجود أخيه الشاب. مات خوفو في عام ٢٥٦٦ ق. م.، وأصبح دجيدف رع الحاكم الفعلي للمملكة المصرية..

أنجب من حتب حرس الثانية ابنةً وهي نفر حتب إس. أغلب الظن إنها كانت والدة الفرعون أوسر كاف أول فراعنة الأسرة الخامسة، تزوج دجيدف رع مرةً أخرى من خنتت إن كا التي أنجبت له ثلاثة ذكور: ست كا، وهر نت، وبا كا..

لم ينعم دجيدف رع برخاء الحكم كما تمنى، فكما بدأ حكمه بجريمة قتل أخيه، نما إلى علمه أن مؤامرة تُحاك من خلفه للإطاحة به من قبَل أخٍ آخر غير شقيق هو جدف حور، فأعاد الكرة من جديد، وأفسح لمومياء أخيه مكانًا بجوار مومياء كا وعب، وإن وُجدت مقبرته ناقصة، وبها آثار انتقام..

خلال فترة حكمه بدأ دجيدف رع في بناء هرمه في منطقة أبي رواش، حيث كان مُخطَّطًا لهذا الهرم أن يكون بنفس تصميم هرم منقرع الذي بُني لاحقًا، لكن بناءه لم يكتمل، حيث يُعتقد أن دجيدف رع قد خُلع من المُلك بعد أن ترك أجمل وأكبر تمثال في العالم وهو أبو الهول، ولم يحدد مصيره بعد ذلك، هل مات بصورة طبيعية أم قُتل أم اختفى في ظروف غامضة، ومن المعروف أن أخاه غير الشقيق خفرع لم يستكمل بناء هرم دجيدف رع من بعده وتركه على حاله.

اختلف هرم دجيدف رع معماريًا عما سبقه، حيث كانت الغرف أسفلها وليست بداخله. بُني الهرم فوق تل طبيعي. حُفرت حفرة بعمق ٢٠ مترًا في هذا التل الطبيعي، ثم عمِل منحدر بزاوية مائلة، وشُيدت الغرف وممر الوصول داخل الحفرة وعلى المنحدر. بمجرد الانتهاء من «الغرف الداخلية»، مُلئت الحفرة والمنحدر وبُني الهرم فوق القمة. سهّل ذلك إنشاء الغرف دون حفر نفق، وجنّبهم ذلك الصعوبات المعمارية لإنشاء غرف داخل الهرم. كما تم إنشاء سور مستطيل الشكل موجّه بين الشمال والجنوب، على غرار الموجود في هرمي زوسر وسخم خت.

يعتقد علماء المصريات أنه في الأصل كان أجمل الأهرام، مع سطح خارجي من الجرانيت المصقول. يظنون أيضًا أن سبب عدم اكتماله أنه فُكك بشكل كبير في عهد الرومان لصالح بناياتهم خلال حكم الإمبراطور أغسطس. كان الاسم القديم للهرم «سما دجيدف رع المُرصّعة بالنجوم». بدأ تدمير الهرم في نهاية الدولة الحديثة على أبعاد تقدير، وازداد خصوصًا في العصور الرومانية والمسيحية الأولى عندما بُني دير في وادي القرين القريب منه، وعلاوة على ذلك، ثبت أنه بنهاية القرن التاسع عشر، كان لا يزال يتم سحب الأحجار منه بمعدل ثلاثمائة حمولة من الإبل في اليوم.

كانت فترة مليئة بالصراعات الداخلية في العائلة المُلكيّة، انتهت على الأرجح بسقوط دجيدف رع، مع بداية صراع جديد بين إخوانه من زوجة خوفو الثالثة حنو تسن،

وهما: خفرع وبا اف رع اللذين تأرجح العرش بينهما حتى آل أخيرًا إلى خفرع، ومن بعده ابنه منقرع.

حين شدت الإذاعة

لبيب السعيد

(١٢ من أغسطس ١٩١٤ - ٢٢ من يناير ١٩٨٨)

يرتبط شهر سبتمبر بذكريات سيئة عند معظم المصريين، ربما كان ذلك بدافع ذكريات بداية الدراسة، والاستيقاظ مبكرًا بأعينٍ مُحمّرةٍ منتفخة، وطوابير الصباح المُضجرة التي تبدو كأنها لا تنقضي، وانتهاء شهور الصيف والاستحمام والاستمتاع بشواطئ الإسكندرية الفاتنة، أو الرياح التي تحمل أتربة ناعمة، تثير الأنوف والصدور المُتحمّسة، تنذر بخريفٍ طويلٍ كئيب، وأشجار تصفرُّ أوراقها، فتسقط..

ولكن ذلك اليوم، ١٨ سبتمبر ١٩٦١، كان مختلفًا...

القليلون لا زالوا يذكرون ذلك اليوم.. شروق الشمس قد اكتمل منذ دقائق قليلة، وعقارب الساعة تخطو ببطءٍ نحو السادسة صباحًا. الرجل النحيل يفرك أصابعه في توتر، وفنجان القهوة السادة على الريق يحرق أعصابه بشدة، ويكوي معدته بالحَمْض. يقرب مقعده أكثر من المذياع الضخم الذي يحتل ركنًا ثابتًا في صالة منزله الأنيق ببساطة. يخلع نظارته الطبية، ويعيد تنظيف زجاج عدساتها للمرة الثالثة خلال فترة وجيزة، ثم يضعها فوق قصبه أنفه، وحواسه تُشحذ، وهو يستمع إلى الصوت الملائكي يستعيز بالله من الشيطان الرجيم ثم يبدأ بالبسملة..

أعصابه الثائرة تهدأ فجأة، وقد ذاب في صوت الشيخ محمود الحصري الذي يعشقه، يتلو آيات القرآن العظيم للمرة الأولى في الإذاعة المصرية ما اصطلح على تسميته حتى يومنا هذا بالمصحف المُرتَّل. يتذكر أنه أراد تسميته بالمصحف المسموع، ولكن شيخ الأزهر في ذلك الحين محمود شلتوت اعترض على تلك التسمية، موضحًا أن العامّة اصطَلحوا أن

معنى كلمة المسموع مرادف للمشهور، ففكر الدكتور لبيب السعيد في تغيير الاسم، وورد على خاطره صفات مثل: المُرتَّل، الصائت، الناطق، فاختر المرتل.

ابن المنصورة البارّ، الذي نشأ في بيت تعمّه الثقافة ودراسة الفقه وتعلّم الآداب، كان صاحب الفضل الأول في تسجيل القرآن الكريم على أسطوانات، وحفظه بمختلف القراءات، بعد أن كان محصوراً في قراءة حفص عن عاصم، وهو ما أوصل إلينا القرآن بأصوات قراء عظام كادت لتضيع هباءً لولا مجهوداته، ومحاربتة من أجل قضية آمن بها، وكرس لها كل جهده ووقته..

في شهر شعبان من سنة ٥١٣٧٨هـ، الموافق ١٩٥٨م، تقدم الدكتور لبيب السعيد بمذكرة إلى الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم - التي كان يرأسها - يوضح فيها اقتراحه بشأن تسجيل القرآن صوتياً بكل رواياته المتواترة والمشهورة وغير الشاذة، مبيّناً أن أهم وسيلة لنقل القرآن الكريم عبر الدهور، كانت ولا زالت: روايته وتلقيه مباشرةً وشفاهاً، فمّا لفم، وهذا هو المُعتمَد عند علماء القراءة؛ لأنّ في القراءة ما لا يمكن إحكامه إلا عن طريق السماع والمشاهدة.

ومتابعةً للتطور، وتأكيداً لطريقة النقل الشفوي، وتطويراً لها، يمكن الآن الاتجاه إلى تسجيل القرآن الكريم تسجيلًا صوتيًا، ولعل هذا الأسلوب أن يكون هو أصلح أساليب العصر، وأكثرها تيسيراً على المسلمين في تلقّي الكتاب العزيز، مجوداً وملتواً بمختلف القراءات.

وقال السعيد في اقتراحه: الملاحظ الآن أن كثيراً من المسلمين لا يُحسنون - مع الأسف - أداء الكتاب العظيم، حسب أصول التجويد، مع أنهم بالضرورة يؤمنون بهذا الكتاب، ويحبونه، ويستهدونه. والملاحظ أيضاً أن أغلب حُفَاط القرآن الكريم لا يعرفون غير رواية حفص، وهذا وذاك أمران بالغا الخطورة، ويتعيّن على الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم، وهي التي تعمل ليظل ميراث القرآن محفوظاً الحفظ الأفضل على مر الزمن، أن تبادر لهذه الحال عاجلاً. وربما كان مشروع تسجيل القرآن صوتياً من كبار علماء القرآن هو السبيل العملي الوحيد إلى العلاج المنشود.

أما فيما يختص بمن يتولون القراءة والتدريس العملي، فيجب أن يكونوا من أعلم علماء القرآن، مع مناسبة أصواتهم للتسجيل، وأن تختارهم لجان لها خبرتها القرآنية العظمى، ويشارك فيها الأزهر الشريف، والهيئات العلمية واللغوية والثقافية الأخرى.

اختمرت الفكرة ووضع الدكتور السعيد معالمها ولاقت قبولاً واستحساناً، ورحب بها الأزهر الشريف، وأبدى الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر آنئذ ارتياحه ورضاه عنها.

وأراد السعيد أن يأنس بقبول الرأي العام حول التلاوة المرسلة التي سيسجل بها الجمع الصوتي حيث لم تكن مشهورة وقتها؛ فطلب من الشيخ محمود خليل الحصري أن يقرأ بها في حفلٍ أُقيم بقاعة المحاضرات الكبرى بالأزهر، فلاقت هذه التلاوة قبولاً عند الحاضرين.

احتاج هذا المشروع العظيم إلى تمويلٍ عالٍ، ولمّا لم يكن في طاقة جمعية المحافظة على القرآن الكريم الإيفاء بالتمويل، اتفق السعيد مع الإذاعة المصرية على التسجيل في استديوهاتها، مقابل أن يكون لها الحق في أن تذيع من محطاتها ما يتم تسجيله لديها.

بعد هذا الاتفاق دعا لبيب السعيد ثلاثة من أشهر القراء والعلماء للبدء بالتسجيل، وهم: الشيخ محمود خليل الحصري، واتفق معه أن يسجل القرآن برواية حفص عن عاصم، والشيخ مصطفى الملواني، وكان حازقاً في القراءات، واتفق على أن يسجل رواية خَلْف عن حمزة، والشيخ عبد الفتاح القاضي، وكان يشغل رئيس لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، واتفق على أن يسجل قراءة أبي جعفر برواية ابن وردان، وهي من القراءات العشر، وفي الوقت نفسه يُشرف على التسجيل.

نجح لبيب السعيد في التسجيل، ورأى أن يمضي الشيخ محمود الحصري في تسجيل رواية حفص، ووفق الشروط والضوابط التي وضعتها اللجنة المشرفة على التسجيل، وكانت تضم أساتذة فن التجويد والقراءات في مصر، يتقدمهم الشيخ عامر عثمان.

لم يكن التسجيل هَيئًا، فمع امتياز الشيخ الحصري في القراءة، فإن اللجنة كانت تستوقفه كثيرًا ليعيد التسجيل على النحو النموذجي المطلوب.

بعد الانتهاء من التسجيل بدأت مرحلة طبع أسطوانات المصحف المرتل، وانتهت في (١٠ صفر ١٣٨١هـ، الموافق ٢٣ يوليو ١٩٦١م) حيث بُدئ في توزيع المصحف المرتل للمرة الأولى في تاريخ الإسلام.

عمل بعدها الدكتور لبيب السعيد أستاذًا لعلم الاجتماع الإسلامي ولعلوم القرآن في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، منذ عام ١٩٧٣م وحتى ١٩٨٥م. كانت له مشاركات مرئية في برنامج دينية بالتلفزيون المصري، كما كانت له أنشطة متعددة في الإذاعات، أهمها سلسلة (معارف قرآنية) في إذاعة الرياض بالسعودية في السبعينيات من القرن العشرين.

لقي الدكتور لبيب السعيد ربه يوم ٣ من جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، الموافق ٢٢ من يناير ١٩٨٨م، عن عمرٍ ناهز ٧٤ عامًا.

فينوس المصرية

ليليان فيكتور ليقي كوهين

(١٣ من ديسمبر ١٩١٩ - ٣١ من أغسطس ١٩٥٠)

هل كنت يوماً من سعداء الحظ ممن زاروا متحف اللوفر؟

إن كنت كذلك، فمن اليقين أنك قد رأيت التمثال الأسطوري لفينوس دي ميلو إلهة الجمال عند الإغريق، وإن لم تزرِ المُتَحَف حتى الآن، فلا بد أنك قد رأيت صورة للتمثال عدة مرات من قبل. وإن لم تكن من هؤلاء أو أولئك فدعني أخبرك أن التمثال مكسور الذراعين يصف امرأة بارعة الحُسن، ممتلئة الجسم قليلاً، ذات تضاريس أنثوية شاهقة الجمال، وتديين مستديرين نُحْتا بعناية رائعة، أثارا خُيالات ونزعة جنسية عند عشرات الأدباء والفنانين على مَرِّ التاريخ. فينوس كانت المثل الفائق للأنوثة عند الإغريق، الذين لم يغفلوا عبادة الجمال في ألهمتهم كما عبدوا القوة والحرب والخير والشر..

ما علاقة كل هذا بالشخصية صاحبة ذلك الاسم اليهودي القُحِّح؟

الحقيقة أن ليليان كانت رائعة الجمال بدرجة لا توصف، كانت فينوس عصرها بحق. ممشوقة، دقيقة الملامح، شاهقة البياض، دلالتها رائع، وشخصيتها مرحة تخطف عقول النساء قبل الرجال. لاحظ هنا أننا نتحدث عن شخصية بلغت ذروة نضجها في أربعينيات القرن العشرين، حيث تطالعنا الصور القديمة بأشكال شبه متماثلة من حيث الملامح وتصفيفة الشعر الثابتة والرقصات الغريبة. كل ذلك لم يمنع حُسنها وسحرها من البزوغ ويُضرب به الأمثال حتى وقتنا الحاضر، فكانت بحق من أجمل من وقفن أمام كاميرات السينما المصرية.

المشكلة الحقيقية التي واجهتني أثناء الكتابة عن تلك الفاتنة التي نعرفها جميعا باسم «كاميليا»، هي تعدد المصادر والشائعات المحيطة بها برغم حياتها القصيرة والمثيرة، والتي تصلح للتحويل إلى فيلم سينمائي شائق..

تنتمي لأصول قبرصية، ولكن الجمال السكندري حيث وُلدت، أكسبها ملامحها المصرية المُحبَّبة. جاءت جدُّتها لأُمها إلى مصر عام ١٨٨١، واستقرت في الإسكندرية وتزوجت من وكيل بوسنة العطارين وأنجبت منه «أوليجا كوهين» والدتها.

المؤكد أن الأم كانت مسيحية كاثوليكية مصرية، وأنها حملت ب (كاميليا) من علاقة من دون زواج. تقول بعض المصادر، منها وثائق للمخابرات الفرنسية، إنها حملت بها من مهندس فرنسي كان يعمل خبيرًا بقناة السويس، بينما تقول مصادر أخرى إن والدها الحقيقي كان تاجرَ أقطانٍ إيطاليًا هرب راجعًا إلى بلده بعد خسارة في البورصة، وأنها نُسبت لصائغ يهودي يوناني ثري اسمه (فيكتور ليقي كوهين) وحملت اسمه، على الأرجح كان زوج أمِّها وترجح بعض المصادر، منها مقال للكاتب أنيس منصور، أنه كان مجرد صديق لأُمها.

عمَّدتها والدتها كمسيحية ونشأت في حي الأزاربطة بالإسكندرية نشأة فقيرة هي وأمها، على إيرادات البنسيون الذي تملكه أمها. ظهر جمالها بشكل واضح في سن المراهقة. اكتشفها المخرج أحمد سالم في صيف عام ١٩٤٦ في فندق ويندسور بالاس الشهير الكائن بمحطة الرمل، وأعجب بها إعجابًا شديدًا بمجرد رؤيتها للمرة الأولى. طلبت منه برقَّتتها الشديدة أن يتيح لها الفرصة لمشاهدة العرض الخاص لفيلمه الجديد «الماضي المجهول»، ولم تترك للمسكين فرصة الرفض. فتح لها بنفسه باب الشهرة والنجومية، وأصرَّ على جعلها نجمة سينمائية، فخصص لها أساتذة في الإتيكيت، واختار لها اسمها الفني الذي عُرفت به دائمًا (كاميليا). عُهد إلى الفنان الشاب في ذلك الوقت محمد توفيق أن يعلمها، فأعطاها دروسًا في الإلقاء والأداء والحركة واللغة العربية، ولكن محمد توفيق لم يستطع مقاومتها، وخاف أن يقع في حبال جمالها، فاعتذر وأعادها إلى أحمد سالم.

بعد مُضيِّ فترةٍ من عدم تنفيذه لوعده لها بجعلها نجمة سينمائية، قررت أن تشقَّ طريقها من دونه. والحقيقة أن المخرج كان يبدو وكأنه يخشي أن تقع عليها عيونٌ أخرى فثُفتن بها، ولكنه لم يدرِ أن حلم النجومية كان كل ما يشغل تفكيرها. بفضل قدراتها الاجتماعية تمكنت من الوصول إلى يوسف بك وهبي الذي لم يمنعه وقاره من الافتتان بها بدوره، فقرر ضمُّها لفيلمه الجديد «القناع الأحمر». وفي سبيل ذلك دفع لأحمد سالم ثلاثة آلاف جنيه نظير التنازل عن احتكارها الفني، وهو مبلغ لو تعلمون عظيم في ذلك الوقت..

مع نزوح ليليان إلى القاهرة، اختلفت حياتها كلية، فكما أصبحت من ألمع نجومات السينما وأعلاهن أجرًا مع نشاطها الفني الملحوظ، لفتت أنظار العديدين إليها، وأشهرهم العينان المَلَكِيَّتَانِ لساكن قصر عابدين، بالإضافة إلى فتى الشاشة الأول، معشوق النساء، وسليل العائلة الأباطية الشهيرة..

من هنا، تصبح حياتها دوامة من الشائعات ابتلعت الحقيقة وسطها. هل تورطت كاميليا مع المخابرات الإسرائيلية بحكم أنها أصبحت يهودية، وسربت لهم معلومات أسهمت في هزيمة الجيش المصري في حرب فلسطين؟ أم كانت على النقيض عميلة للمخابرات المصرية، وكانت تنقل لهم أخبار الجالية اليهودية في مصر؛ خاصةً الممثلة راقية إبراهيم؟ هل أحبها الملك فاروق، وأهدى لها قصرًا في جزيرة رودس، بالإضافة إلى شاليه فخم في الإسكندرية كانت تقابله فيه سرًّا، فكان ذلك من أهم أسباب طلاقه من زوجته الأولى الملكة فريدة؟ أم أنها كانت في علاقة حب ملتبهة مع رشدي أباطة، فوقف ندًا للملك من أجلها، واتفقا على الزواج في أكتوبر ١٩٥٠ أي بعد أقل من شهرين من حادث وفاتها المُريب؟ والسؤال الأخير، هل كانت الطائرة التي انفجرت، وهي على متنها، تحملها في رحلة علاجية بالفعل إلى سويسرا؟ أم أنها كانت في طريقها لمقابلة الملك فاروق سرًّا في فرنسا؟ عاصفة من الأسئلة، وكالعادة، بلا إجابة..

حسب مذكرات الملكة فريدة فإن الملك رأى كاميليا للمرة الأولى في كازينو أوبرج الأهرام، وحينما علمت بوجوده بين الحضور، أصرَّت أن تغني وترقص، فلفتت انتباهه بشدة، وأرسل

وراءها نديمه كريم ثابت ليدعوها للقاء فاروق في جناحه بقصر عابدين. لم يكن مهتمًا بما قيل أو يُقال عن علاقته بتلك الفتاة اليهودية. وقام صديقه الإيطالي المقرب (بولي) بترتيب رحلة غرام لفاروق لتكون الرحلة كشهر عسل.

اختفى فاروق وظهر في قبرص جزيرة الحب كما تسميها كاميليا. وسافرت كاميليا إلى قبرص بالطائرة لتكون في انتظاره، وكان فاروق يقوم بهذه الرحلة تحت اسم مستعار «فؤاد باشا المصري» والتقى بكاميليا في أحد فنادق قبرص. وأذاعت وكالات الأنباء قصة لقاء فاروق بكاميليا ونشرته الصحف الأجنبية، تقول فريدة عن هذه الواقعة: ما أحزنني أن فاروق قد قام برحلة مفاجئة بغير علمي، وبدون دعوتي حتى شكلاً لمصاحبتة، وجاء عيد ميلادي بدون أن يصلني من فاروق برقية تهنئة أو حتى باقة زهور.

لم يُبالِ فاروق بكل ما أُذيع حول هذا اللقاء واشترى لكاميليا قِبالاً في جبال رودس، ثم حضرت كاميليا بعد ذلك إلى القاهرة. وأخذ فاروق يتردد عليها في شاليه اختاره لها في مدينة الإسكندرية، وأخذت كاميليا تتردد عليه بالقاهرة. ثم عمل الملك على ترتيب لقاء آخر لهما في أوروبا ووصل فاروق فعلاً إلى دوقيل بفرنسا ولكن القدر لم يسعفهما، فقد تحطمت الطائرة التي كانت بها كاميليا واحترقت الطائرة.

على الجانب الآخر، عمل رشدي أباطة معها في فيلم «امرأة من نار»، فوقع في غرامها، ولازمها بعدها لمدة أسبوع كامل، أثمر عن قصة حب كبيرة، واتفاق على الزواج بعد فراغها من فيلم «المليونير» مع إسماعيل ياسين، وكان ذلك في مايو من عام ١٩٥٠. أسرع في إنهاء ارتباطاتها الفنية لسرعة إتمام هذا الزواج. ولكن كان يلازمها ألمٌ مُمِصٌ في معدتها يأتيها بين الحين والآخر احتار معه الأطباء، فأخبرته بأنها بصدد السفر إلى سويسرا للقيام برحلة علاجية، وقامت بالفعل بإرسال التقارير والتحليل، وحجز موعد لدى الطبيب هناك، ورفضت بشدة إتمام الزواج قبل السفر لكي ينعم بشهر عسل هادئ في أوروبا بعيداً عن آلامها ومشاغلها.

بالفعل حاولت حجز مكان لها على طائرة شركة الطيران الأمريكية «TWA»، رحلة «نجمة ميرلاند رقم ٩٠٣»، المتجهة إلى سويسرا، لتلحق بموعد حجز المستشفى السويسري، غير أنها لم تجد مكاناً لها على الطائرة، لكن موظف الشركة وعدها بأن يبذل قصارى جهده خاصةً بعدما عرف بمرضها.

في المساء اتصل بها الموظف، وأخبرها عن تنازل صحفي يُدعى «أنيس منصور» عن مكانه وتذكرته بشكل مفاجئ لأسباب خاصة به، وفعلاً فرحت كاميليا وعقدت العزم على السفر، حيث كان رشدي أباطة في وداعها في المطار، بعدما تواعدا على اللقاء بعد أسبوعين لإتمام الزواج.

أقلعت الطائرة صباح يوم ٣١ أغسطس عام ١٩٥٠، من مطار القاهرة، ولم يستمر طيرانها في سماء مصر أكثر من عشرين دقيقة، لتسقط الطائرة منفجرةً فوق دلتا وادي النيل، في مدينة «الدلنجات» في محافظة البحيرة. ولم يُعثَر إلا على حذائها الساتان الأخضر بلون الفستان الذي ارتدته كاميليا، التي رحلت ولم يتجاوز عمرها الواحد والثلاثين، لتترك خلفها واحداً من كبار أغاز العصر الملكي..

هَدِيَّةٌ مِنْ مِصْرَ

مارية بنت شمعون (٦٠٨ - ٦٣٧ م)

رَحَّبَ بِهِ أَشَدَّ التَّرْحِيبِ، وَأَنْزَلَهُ مُقَامًا كَرِيمًا، وَقَدْ أَحْسَنَ وَفَادَتَهُ أَيَّمَا إِحْسَانٍ، ثُمَّ اسْتِضَافَهُ فِي مَجْلِسِهِ الْفَخْمِ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَنَاوَلَهُ الصَّحَابِيُّ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَكَانَ فِيهِ:

«مِنْ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْمُقَوِّسِ عَظِيمِ مِصْرَ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعِ الْهَدْيَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ يُوْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ قَوْمِكَ الْقَبِطِ، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

كَانَ الْمُقَوِّسُ حَاكِمَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَالنَّائِبَ الْعَامَّ لِلدَّوْلَةِ الْبِيْزَنْطِيَّةِ، رَفِيعَ الْخَلْقِ جَوَادًا يَدِينُ بِالْوَلَاءِ لِدِينِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَحِينَئِذٍ قَرَأَ رِسَالَةَ الرَّسُولِ وَدَعْوَتَهُ، انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُ فَرَحًا وَحُبُورًا، وَتَلَقَّى كَلِمَاتِهِ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، هَذَا عَلَى عَكْسِ مَا أَظْهَرَهُ كَسْرَى عَظِيمِ فَارَسِ الَّذِي مَزَّقَ الْكِتَابَ إِرْبًا وَقَتَلَ الرَّسُولَ، وَبِخِلَافِ خُيَلَاءِ هِرْقَلِ عَظِيمِ الرُّومِ وَغُرُورِهِ وَصَلْفِهِ الشَّدِيدِ..

لَكِنِ الْمُقَوِّسُ لَمْ يَسْتَطِعْ التَّخْلُصَ مِنْ ضَعْفِ نَفْسِهِ وَغُرُورِهَا. دَارَ عَقْلُهُ فِي سُرْعَةٍ.. هُوَ يَعْلَمُ بِأَنَّ رِسَالَةَ الرَّسُولِ حَقِيقِيَّةٌ، شَبِيهَةٌ بِمَا جَاءَ بِهِ الْمَسِيحُ. لَيْسَتْ مِنْ وَحْيِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهَا مُنْزَلَةٌ مِنْ مَصْدَرِ سَمَاوِيٍّ وَاحِدٍ، إِلَّا أَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ الدِّينَ الْجَدِيدَ قَدْ يَدْفَعُهُ لِتَرْكِ حُكْمِ الْبِلَادِ، وَالتَّنَازُلِ عَنِ عَرْشِهِ الَّذِي قُتِلَ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَجْلِ إِرْسَاءِ دَعَائِمِهِ، وَهُوَ مَا لَنْ يَقْبَلَ أَنْ يَحْدُثَ أَبَدًا..

ذكاؤه السياسي هداه إلى عدم معاداة رسول الرسول، واختار من الحلول ما ظنّه وقتها أربحها، فأوضح لحاطب بن أبي بلتعة أن قومه من القُبط لن يطيعوه إن آمن ودخل في الإسلام، وهو ما أثبتت الأيام خطأه عندما فتح عمرو بن العاص مصر بعدها بقرابة ربع قرن، فأغدق عليه بالهدايا، وكتب ردًا رقيقًا إلى رسول الله: «إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلامٌ عليك، قرأت كتابك وما تدعو إليه، وكنت علمت أن نبيًا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، فمنها كان يظهر الأنبياء لكنه خرج من أرض العرب، وقد أكرمت رسولك حاطبًا، وبعثت إليك بهدية وبفتاتين لهما في القبط قدرٌ ومكانة، ومعهما أخوهما الشيخ مابور».

كانت هدايا المقوقس قيّمة بحق، فبعث مع حاطب بجاريتين، وهما مارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهبًا وعشرين ثوبًا، وبعث ببغلة الشهباء «دَلْدَل» وحماره «عفير»، وبعسل من بنها، وبعض العود والمسك..

أخذ حاطب الهدايا، وعاد من مصر إلى المدينة ومعه مارية وسيرين، وبالطبع أحسّتا بالِم شديدٍ لخروجهما من بلدهما، وشعر حاطب بأن المقوقس أجبرهما على شيءٍ لم يكن باختيارهما، فهي بلد أخرى ودين آخر؛ وبالتالي لا تريدان الذهاب، وليس له أن يقضي في أمر رجوعهما، بل النبي هو صاحب الرأي في ذلك إذا رأى منهما عدم رغبة في البقاء..

كان حاطب نموذجًا للداعية الذكي، فقد أراد أن يهوّن عليهما ضعفهما، فقلّباهما قد انفطرا بسبب الغربة وترك الأهل والبلد، بشرهما حاطب بالخير، وأزال عنهما الحزن، وطراً على عقله أن يطمئن الفتاتين بقصة، وهي أن نفس الطريق الذي يمشون فيه، ونفس ما يحدث لهن، حدث منذ آلاف السنين لامرأةٍ جعل الله اسمها كبيرًا في الدنيا، وهي السيدة هاجر وكانت مصرية كذلك، وفي قصر ملك مصر، وعندما جاءه إبراهيم عليه السلام، تعرّض له الملك في البداية بالسوء، ثم أحب أن يكسب ودّه، فأهدى إليه هاجر، وسارت في الطريق نفسه، وربما أقدامهم على أقدامها، وآثارهم على آثارها، وقطعت المسافة نفسها، وشعرت بنفس شعورهما لفقد بلدها، ولكنها تعرفت إلى نبي، وهو إبراهيم عليه السلام، وشاء القدر

أن يتزوج إبراهيم عليه السلام من الفتاة التي أُهديت إليه، ومنها يخرج نبي الله إسماعيل وهو أبو العرب، ومنه يخرج نبي آخر الزمان، وأصبحت هاجر رمزًا من رموز العرب والمسلمين، ويذكرونها إلى يوم القيامة أثناء أدائهم العُمرَة والحج في السعي بين الصفا والمروة، فخلد اسم هذه الفتاة المصرية البسيطة الآتية من صعيد مصر..

مارية الفتاة القادمة من نفس المنطقة، صعيد مصر، وهي من قرية حفن بمحافظة المنيا لأبٍ قبطيٍّ وأمٍّ رومية، وتعمل أيضًا في قصر ملك، وستتزوج نبيًا أيضًا وتمشي في الطريق نفسه، وتترك بلدها عابرةً البحر إلى جزيرة العرب. أنجبت هاجر الابن الذي سيأتي من سُلالتة النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي سيتزوج مارية. جاءتا من مصر لتقيما هذا التشابه العجيب رغم مرور آلاف السنين بين رحلتيهما..

خفق قلب مارية وهي تستمع إلى هذه القصة، وأسهب فيها حاطب بزكاء الداعية الذي يحب دينه ويحب أن يأخذ بالقلوب، فحوّل الهمَّ الذي بداخلها إلى اهتمام وإثارة عجيبة ورغبة في أن ترى ذلك النبي، وتساؤل أن تكون هي في مكان هاجر..

أعجب النبي ﷺ بمارية، واتخذها سُرِّيَّة، ووهب أختها لشاعره حَسَّان بن ثابت الأنصاري، وعرض عليهما الإسلام فأسلمتا، وكانت كلمات حاطب قد تركت في نفسيتهما وقعًا طيبًا. أسمت سيرين نفسها سعدية وأنجبت عبد الرحمن الشاعر بينما احتفظت مارية باسمها..

كانت مارية القبطية وضيئة الطَّلعة وبها سُمرة مصرية لطيفة، ذكية القلب طيبة الشمائل، يتوج رأسها شعرٌ أسود متماوج مُجَعَّد، رقيقة الكلام حسنة اللسان، وقد صفت طويئُتها، أعزَّها الرسول لأدبها وورصانتها، وأكرمها لأمومتها وآلف قلبها وآثرها، وكانت عائشة على علمها ونبوغها أشد غيرةً من مارية؛ خاصةً حين صارت أمًّا في حين لم تُرزق عائشة بالذُّرية الصالحة.

حدث ذات يوم أن حمل الرسول ابنه إبراهيم وكان يناغيه، وقال لعائشة التي أحبها حُبًا عظيمًا: انظري يا عائشة.. أليس إبراهيم شبيهاً بي؟

فأشاحت بوجهها عنه، ولم تلقِ عليه نظرة.. ولم يكن ذلك عن تناول عن النبي أو قلّة الاحترام له والعياذ بالله، فلقد كان زوجها وحبیبها وقد تربّت في بيت أفضل الخلق بعد الأنبياء، وإنما كان ذلك عن غيرة زائدة ومحبة لانهائية، استطاع الرسول احتواءها وتقديرها، وكان يأخذ عائشة أخذًا لطيفًا، ويعاملها معاملةً حسنة حينما تشتد غيرتها..

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما غرّث على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جفدة، فأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت الحارثة بن النعمان الأنصاري، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها. فجزعت فحوّلها إلى العالية «وهي ضاحية على أطراف المدينة المنورة وكانت تقع على ارتفاع فكان جوها مليحًا ونسيمها رطبًا؛ أي أن الرسول أراد أن يسكن مارية في مناخ شبيه بوطنها الذي أتت منه، فقد كانت الوحيدة التي تزوجها الرسول من خارج جزيرة العرب، ولم تكن معتادة على الطقس الجاف، وكان ذلك من مظاهر حب النبي لها وعطفه عليه وإحساسه بغربتها ووحدها»، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا، ثم رزقها الله الولد وحرمناه منه».

بعد مرور عام على قدوم مارية إلى المدينة، حملت مارية، وفرح النبي محمد لسماع هذا الخبر، فقد كان قد قارب الستين من عمره وفقد أولاده ما عدا فاطمة الزهراء. وولدت مارية في شهر ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة، طفلًا جميلًا يشبه الرسول، وقد سماه إبراهيم، «تيمُّنًا بأبيه إبراهيم الخليل»، وكان يطوف به على بيوت المهاجرين والأنصار يبشّرهم بقدوم ولده.

بهذه الولادة أصبحت مارية حُرّة، فقد كانت قوانين العرب أن أيما جارية صارت أمًا لطفلٍ مولاه تُعتق.. إلا أن سعادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم تدُم طويلًا. فقد حلّ السقم بإبراهيم، واعتلّ اعتلالًا شديدًا، وهو ابن الستة عشر شهرًا، وأصبح على حافة الموت، وأرسلت السيدة مارية للنبي - صلى الله عليه وسلم - من يبلغه، فذهب سريعًا صوب دارها، وكان إبراهيم في حجر السيدة مارية، أخذ النبي - صلى الله عليه وسلم -

إبراهيم من أمّه، وقال لها: أعطني إبراهيم، وبدأت حشجة الصوت تظهر، ويقول له النبي: «يا إبراهيم إنّ الله لا تُغني عنك من الله شيئًا، ولا نملك لك من الله شيئًا»، وكان معه ابن عوف فقال له: وأنت يا رسول الله؟

فقال: يا بَنَ عوف، إنها رحمة.. إن العين لتدمع، والقلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

ثم قال، وهو يُقبّله، والدمع يفيض من عينيه: يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن أخرجنا سيلحق بأولنا، لحزنًا عليك حزنًا هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون.. تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يُغضب الرب.

ونظر إلى مارية في عطفٍ وورثاء، وقال مواسيًا: إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعته في الجنة.

لم يستطع الرسول أن يُغسّل ابنه الذي جاء بعد اشتياق. وبعد موت ولديه من خديجة رضي الله عنها، القاسم وعبد الله، بسنوات طويلة، فأتى الفضل بن العباس فغسّله، وصلى عليه النبي، وكبّر أربعًا، ثم سار وراءه إلى البقيع فأضجعه في قبره بيده، وسوّى عليه التراب ثم ندّاه بالماء..

لحكمة إلهية، صادف أن يكون ذلك اليوم الحزين، مواكبًا لكسوفٍ كُلي للشمس حتى غابت في الآفاق، وأظلمت الدنيا كأن ليلاً بهيمًا كئيبًا غطاها فجأة. ظن الناس أن كسوف الشمس ما هو إلا تعبير من السماء عن حزنها على موت ابن النبي وتداولوا ذلك الأمر فيما بينهم، فنادى الرسول في الناس يدعوهم إلى صلاة الكسوف، وبعد أن فرغوا منها خطب فيهم قائلاً:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد أو حياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلّوا وتصدّقوا».

هون الرسول على مارية التَّكَلَّى حزنها ووجومها، فأغدق عليها برّه ورضاه، وشمل أختها برعايته، وأوصى بالقبط خيرًا من أجل مارية فقال لصحبه: «استوصوا بالقبط خيرًا فإن لكم فيهم صهرًا وذمة».

عاشت مارية بعدها منعزلَةً في بيتها لا تخرج إلا بكاءً من أجل زيارة قبر ولدها، ولم تطل الأيام برسول الله بعدها، فانتقل إلى الرفيق الأعلى بعدها ببضعة شهور قليلة، تاركًا في قلب مارية حزنًا دفينًا وطيفًا مقيمًا، فقد كان الزوج والحبيب والرسول الذي آواها وأكرمها في غربتها، وأعرَّها بالزواج منه، وبأن تكون أمًّا لابنه، فاعتزلت مارية الناس بعد رحيله، وكان لا يطيب لها إلا رؤية شقيقتها سيرين، وزيارة قبري حبيبيها، لكنها عاشت بعدها أعوامًا طوتها في التعبد والذكرى، وكان أبو بكر ينفق عليها إلى أن تُوفيت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فدعا الناس للصلاة عليها ودُفنت في البقيع بجوار ابنها..

بين الوجوه السمراء

محمد كمال الدين صلاح
(٢٨ من مايو ١٩١٠ - ١٦ من أبريل ١٩٥٧)

احتاج الأمر ساعتين، وخمسة أقداح من القهوة، وأحد عشر عُقبًا من أعقاب السجائر، أخدم معظمها قبل أن يصل لنهايتها..

النيكوتين والكافيين طهيا البقية الباقية من أعصابه في مزجَل مُستَعِر، ولم يلحظ النظرات المستترة لمدير مكتب الوزير الإيطالي، وهي تتفحص انفعاله الشديد..

الحقيقة أنه لم يستطع أن يتفهم قَطَّ سر إصرار ذلك الرجل الشديد، ودفاعه المستميت عن كل ما يمسُّ حقوق ذلك الشعب الإفريقي الجائع. مال ذلك المصري بأهل الصومال ذوي العظام البارزة والصدور العارية التي لا تجد ما تسترها، فلا هم بنو وطنه، ولا من لونه، ولا حتى يتكلمون لغته. ما الذي جعله ينتظر كل تلك الفترة، بكل ذلك الإصرار لمقابلة الوزير فرانكا، وهو ممثل دولة الوصاية على الأراضي الصومالية؟. تكرر ذلك الموقف أمامه عدة مرات، ولكنه لم يَرِ المصري ثائرًا إلى ذلك الحد مثلما رآه تلك المرة.

الغضب الذي شعر به كمال الدين صلاح تلك المرة، كان مُبرَّرًا، على الأقل من وجهة نظره هو، فحلّمه الذي ظل يسعى وراءه باجتهاد شديد طوال الفترة الماضية، وتحمل فيه صفاقة إيطالية لا حد لها، ومُعَوَّقات بيروقراطية لا تظهر إلا عندما يسعى إلى نَيْلِ حَقٍّ من حقوق الصوماليين البسطاء، كان على وشك التحطم؛ مما أجبره على تطويح رداؤه الدبلوماسي، ونزع قناع الحكمة السياسية. رغبًا عنه، استعاد عقله كيف بدأ حلمه، حتى وصل إلى لحظته الراهنة..

وضع كمال الدين صلاح مخططًا للنهوض باقتصاد الصومال، وتقدم به إلى الإدارة الوصية لدراسته وتنفيذه لصالح البلاد، وقام باستدعاء خبير مصري لدراسة البيئة الصومالية لإنتاج القطن، وقرر الخبير المصري صلاحية الصومال لزراعة القطن طويل التيلة. وحينئذٍ تقدم صلاح الدين إلى الإدارة الوصية بطلب السماح لخبراء ومهندسين من العرب العارفين بوسائل الري والزراعة المتعلقة بالقطن، ولكن الإدارة رفضت الطلب من أساسه، وذكرت أنها ستولي الأمر أهميةً بطريقتها الخاصة في الوقت المناسب.. وكما هو متوقع لم يحدث ذلك بالطبع.

وكما اهتم كمال الدين صلاح بالاقتصاد اهتم باللغة.. ففي الأصل لم يكن لشعب الصومال لغة كتابة وثقافة وتاريخ، إنما لهجات بدائية غير مكتوبة فليس لها حروف يمكن أن تُدوّن بها، وفي خلال الاستعمار الإيطالي الطويل، أرادت إيطاليا أن تجعل الصوماليين يتكلمون بلغتهم، كما فعلت فرنسا في الجزائر، ولكن اللغة الإيطالية لم تنجح، وفي خلال الاحتلال الإنجليزي، كانت محاولة الإنجليز لتمكين اللغة الإنجليزية أكثر فشلاً.

بدأ الصوماليون في ملاحظة أن كل الدراسة في مدارسهم باللغة الإيطالية، وأن حصص اللغة العربية قليلة، فقاموا بإنشاء مدارس أهلية تتولّى الأحزاب إدارتها والإشراف عليها، على أن تُدرّس فيها جميع المواد باللغة العربية، فكان لا بُدَّ من التوسُّع في هذه المدارس، ولا بد من الاستعانة بمدربين من خارج الصومال للتدريس في هذه المدارس التي يتزاحم عليها أبناء الشعب الصومالي، واتجه تفكيرهم بطبيعة الحال نحو مصر، التي كانت ثورتها مصدر إلهام للشعوب النامية، وأملًا في التحرُّر من سيطرة استعمار غاشم. فما كان من زعماء الصومال إلا الاتجاه لكمال الدين صلاح فبدأ يكتب إلى وزارة التربية والتعليم في مصر، وإلى المؤتمر الإسلامي وإلى الأزهر مطالبًا بإرسال بعثة تعليمية مصرية تقوم بالتدريس باللغة العربية في المدارس، وبعثة أزهريّة تقوم بتدريس الدين وتعليم الأهالي، وعندما كان الزعيمان الصوماليان: أدن عبد الله وعبيد نور مارين بمصر، قابلا جمال عبد الناصر، وطلبا منه إنشاء مركز ثقافي مصري في مقديشيو، وأرسل كمال الدين صلاح تفاصيل المركز الثقافي المطلوب إنشاؤه مع مسجد وعيادة خارجية.

وافقت مصر على أن تبدأ بإرسال بعثة من سبعة من علماء الأزهر وتسعة عشر مدرسًا ومُدْرسة.. وفي خطوات سريعة فعَّالة ذهب أعضاء البعثة إلى القنصلية الإيطالية في القاهرة لطلب تأشيرة لدخول الصومال، فرفضت القنصلية في خطوة تعسُفية متوقعة.. انتظر حتى أشرقت الشمس، ثم توجه إلى مكتب الوزير طالبًا لقاءه مهما طال الانتظار..

كما توقع، قابله الوزير فرنكا ببرودٍ شديد، وردَّ أشدَّ برودًا: لأبُدَّ من وقت طويل لبحث هذه المشكلة الكبيرة.

- مشكلة؟ هل دخول هذه البعثة مشكلة، ومشكلة كبيرة؟ إن كل أعضاء البعثة أشخاص محترمون والحكومة المصرية مسئولة عنهم.

فرنكا: إن المسألة ليست مسألة أشخاص.. ولكنها مسألة مبدأ.

- أي مبدأ.. إنني ألفت نظركم إلى أن اتفاقية الوصاية تنفي صراحةً السماح لبعثات التبشير، من جميع الأديان، بحُرِّية دخول البلاد على قدم المساواة وحرية إقامة أماكن العبادة والمستشفيات والمدارس، وأنا أعلم أنه قد دخل الصومال منذ أسابيع مُبشِّرون جُدُّ لتعزيز بعثات التبشير الأمريكية الموجودة من قبل، فلماذا يُمنع علماء الأزهر والمُدْرسون المصريون؟ وما الأساس الذي تستند إليه الإدارة في موقفها هذا؟

فرنكا: أوكد لك أننا لا نقوم بأي تفرقة بين البعثات الأجنبية.

- أرجو أن أرى من التصرفات ما يدل على ذلك.. فمجرد الأقوال والوعود الطيبة لا تكفي، ولا أقتنع بها.

لم يخرج كمال الدين من هذه المقابلة للأسف بأي وعد بالموافقة على دخول البعثة المصرية إلى الصومال..

كانت هناك معركة أخرى خفية تدور حول اللغة والتعليم، عاش فيها كمال الدين صلاح بأعصابه ونشاطه، وهو في مقديشيو رغم أنها كانت تدور هنا في القاهرة، فقد سبق وأوصت الأمم المتحدة الدول صاحبة الشأن أن تقدم مِنحًا لأبناء الصومال كي يتعلموا خارج بلادهم؛ نظرًا لحاجة البلاد الماسة إلى حَمَلَة المؤهلات الفنية العالية، وقامت مصر بواجبها فاستضافت ما يقرب من مائتي طالب وطالبة من أهالي الصومال بين المدارس الثانوية والفنية والأزهرية والجامعة. فجأة بدأت السفارة الإيطالية في القاهرة تنشط، فبدأت تتصل بالطلبة الصوماليين الذين يدرسون في القاهرة، وتغريهم بشتى الوسائل لكي يتركوا دراستهم هنا، ويسافروا إلى إيطاليا أو فرنسا، وكانت تستغل صِغَرِ سنِّ هؤلاء الشباب لكي تغريهم بأي وسيلة ممكنة بالسفر إلى أوروبا، فالمهم أن يتركوا مصر رغم أنف أهلهم في الصومال وبغير علمٍ منهم.

علم كمال الدين صلاح بما يجري في القاهرة من آباء هؤلاء الطلبة الذين جاءوا إليه فزِعِين من إغراء أولادهم بترك مصر، ومطالبينه بأن يحاول الوقوف ضد ذلك.

في الأوراق المتناثرة والخطابات التي تركها كمال الدين صلاح، خطابٌ يقول:

السيد المحترم مندوب مصر في المجلس الاستشاري بالصومال: أنا والد الطالب الصومالي عبد الحميد محمد حسن، أقدم إلى سيادتكم طلبي هذا راجيًا أن يكون موضع عنايتكم واهتمامكم كما عهدنا بكم دائمًا..

سيدي الوزير، سمعت أن ابني الذي كان يدرس في مصر بكلية الحقوق جامعة القاهرة قد سافر إلى إيطاليا، وإنني أرى أنه أصبح فريسة لإغراءات بعض النفوس الشريرة الذين لا يريدون له خيرًا..

سيدي الوزير، بعد تقديم اعتذاري لهذا التصرف الصبياني من ابني، أرجو وألتمس من سيادتكم أن تسعى لدى المسؤولين في الحكومة المصرية ألا تسمح له بسحب أوراقه قطعًا، وأن يبقى اسمه في كشوف الطلبة، ويكون طالبًا نظاميًا حتى يتمكن من أداء

الامتحان، وأن يكون اعتذاري مقبولاً، وذلك لرغبتى الشديدة في أن يكمل تعليمه في مصر، وحتى لا تضيع كل مجهوداتي تلك السنوات الطويلة الخمس التي قضاها في مصر، كما أنني كأبٍ أحرص على مستقبله ولن أسمح له بأن يتعلّم في بلدٍ لا يعرف ثقافته، ولا يجد الإخلاص والمحبة التي يجدهما عند الأساتذة والشعب المصري، وإنني أتعهد أن أرجعه إلى مصر، كما أتعهد بأنه لن يعمل مثل هذا التصرف الصبياني بعدئذ، ولكم جزيل شكري واحترامي.

والد الطالب محمد حسن مرسى في ٢٥ ديسمبر ١٩٥٦.

وتتقدم آباء آخرون يطلبون منه أن يعيد إلى الصومال أي واحد من أبنائهم يحاول أن يترك مصر إلى أوروبا، حتى الطالبتان الوحيدتان في مدرسة حلوان الثانوية لم تفلتا من ضغط السفارة الإيطالية وإغراءاتها، ولم يكن هذا التصرف مقصوراً على الطلبة الذين يدرسون في مصر، فليست المسألة مسألة مصر إنما هي مسألة الثقافة العربية واللغة العربية والروح العربية الاستقلالية، فطارت القنصلية الإيطالية في دمشق الستة عشر طالباً الذين كانوا هناك، وحرصتهم حتى أُعيدوا إلى الصومال أو أرسلت بعضهم إلى أوروبا.

أمام ضغط التيار الشعبي على الاستعمار، وافقت الإدارة وأذعنت للأمر فصرحت بدخول البعثة المصرية إلى الأراضي الصومالية والقيام بعملها..

كانت التفرقة العنصرية واضحةً بشكل مثير، فالطرق والسيارات حتى مكاتب البريد وغيرها من المرافق العامة يُخصص قسم منها للبيض وقسم للسود، وكان النظام المتبع في مكاتب البريد يمكن اعتباره تمييزاً عنصرياً أو دينياً؛ فالمكان المخصص للأهالي منافذه تقع في نهاية الشرفة المُطلّة على الطريق العام، وهي مخصصة للصوماليين والعرب والهنود والباكستانيين. دارت مشادة بينه وبين الحاكم أبدى فيها ضرورة العمل على إزالة التفرقة فوراً فغضب وثار، وفي يوم ٢ من نوفمبر اتصل به سكرتير عام الإدارة وسرد عليه ما دار في المقابلة التي تمت بينه وبين

الحاكم، وهنا تحدث كمال الدين في حزم شديد، وقال له إن الحاكم ينسى أنه يوجه الخطاب إلى ممثل دولة ذات سيادة، وعليها التزامات ومسئوليات محددة بمقتضى اتفاقية الوصاية، فهو لم يكن مجرد ممثل دبلوماسي لمصر، وإنما هو ممثل لهيئة الأمم المتحدة بصفتها طرفًا في اتفاقية الوصاية، التي تنصّ على أن الحكومة قد أخذت على عاتقها إدارة الصومال وتهيئة أهله للاستقلال.

ختم صلاته عصر ذلك اليوم، ثم أراح ظهره مستندًا إلى أحد الأعمدة الرخامية بالمسجد الكبير بمقديشيو.. أخرج المصحف الكريم من طيّات ملابسه، وبدأ يقرأ منه بصوتٍ رخيم، فتسربت طمانينة غريبة إلى نفسه.. طاف ببصره بين الوجوه السمراء الطيبة ذوي الأسنان البيضاء الناصعة، والعيون المُصفرة قليلًا. طالما عشقها وعشق السباحة فيها..

قام واتجه صوب باب المسجد حاملاً حذاءه في يُسراه، ثم ارتداه وسار بخطوات بطيئة مستمتعًا بنسماتٍ رقيقةٍ أطفأت لهيب شمس الظهيرة.. لم تكن المسافة طويلة بين المسجد والقنصلية المصرية التي لم يبلغها أبدًا..

تلقى الطعنات القاتلة في ظهره وأسفل عنقه، لوهلةٍ أجمته المفاجأة، وهو يستدير ليرى وجه قاتله. هُرع حراس القنصلية القريبة بأقصى سرعةٍ نحوه.. أحاطوا بالشاب الذي لم يتمكن من الفرار، ولحقوا بالجسد الذي تُنازع روحه من أجل الخروج.. حاولوا أن يسقوه جرعة من الماء، ولكن تأثير الطعنات لم يُنسيه أنه في نهار شهر رمضان المعظم، فقال بشفاهِ مرتعشةٍ وحروفٍ واهنة: إني صائم.

ثم أسلم الروح بهدوء، وكان الله أبى إلا أن يقبض روحه الطاهرة إلا وهو صائم..

بقي يوم ١٦ من أبريل عيدًا للشهيد محمد كمال الدين صلاح تحتفل به الصومال سنويًا..

كان العنوان الرئيس لصحيفة كوريري دلا صوماليا واسعة الانتشار بخط كبير في صبيحة اليوم التالي للاغتيال: يوم جَدَاد للصومال والإدارة الإيطالية الوصيَّة والأمم المتحدة.. اغتيال ممثل مصر لدى المجلس الاستشاري للأمم المتحدة الوزير محمد كمال الدين صلاح..

عمَّ الحزن أرجاء الوطن الفقير الطيب، وشعروا كأن الاستعمار الذي بدأ في عام ١٨٨٩، مدَّ يده الغاشمة للنيل من رجل كل جريمته أنه أحب ذلك الوطن بكل ما ملك من حواس، وجعل همَّه وشغله الشاغل الوصول بهذا البلد الأمين إلى برِّ الأمان، حيث كان من المفترض أن ينال استقلاله في يونيو ١٩٦٠، بحسب الاتفاقية التي وافقت عليها الإدارة الإيطالية الوصيَّة أمام الأمم المتحدة..

كان تعليق جمال عبد الناصر حين وصل الوفد الصومالي حاملاً جثمان الشهيد إلى القاهرة: «إن لدينا ٢٧ مليون كمال الدين، وهم مستعدون للاستشهاد من أجل حرية الصومال الشقيق».

مع سير التحقيقات، أمر النائب العام بالقبض على عدة شخوص، وكان المتهم الأول محمد شيخ عبد الرحمن، وثلاثة متهمين آخرين. واستمر التحقيق العلني بحضور المحامي المصري رشاد رمزي، حتى أعلنت المحكمة حكمها في أول يوليو عام ١٩٥٧ بالحبس المؤبَّد على المتهم الأول محمد شيخ عبد الرحمن، والإفراج عن باقي المتهمين لعدم ثبوت الجريمة عليهم.

في اجتماع تاريخي للجمعية التشريعية، تقدم رئيسها السيد آذن عبد الله عثمان باقتراح في ٣٠ أبريل ١٩٥٧ لتكريم الوزير، فوافقت الجمعية بالإجماع بجعل يوم ١٦ أبريل هو الذكرى السنوية لشهيد الصومال، وتم إطلاق اسمه على أحد الشوارع الشهيرة بالعاصمة، وأقيم اكتتاب عام باسمه بلغ دخله في اليوم الأول نحو ١٠.٧٩٦ شلنًا صوماليًا. وفي الذكرى السنوية الأولى قال رئيس المجلس الاستشاري «ممثل الفلبين»: «أعدُّ من مميزات حياتي أنني كنت الأقرب للوزير كمال الدين صلاح، وقد

قابلته أول مرة في نيويورك، واستمعت إلى وجهة نظره بشأن الصومال أمام مجلس الوصاية، وكان دقيقًا في عباراته، وكان يحرص على بعض النقاط الأساسية، ومن بينها الحرية دون شرط، وصحبته في رحلته عبر القطر باتصالاته بالأهالي ومجالس البلديات والمزارع والغابات حيث كان المرحوم يقوم بدراسة أحوالهم، وكثيرًا ما ساعد الصوماليين في مشكلاتهم، ونصحهم بأن يكونوا متحابين ومُتَّحدين.

في أبريل عام ١٩٦٢، وجّه فخامة رئيس الجمهورية الصومالية دعوة رسمية للسيدة أمينة مراد حرم الشهيد كمال الدين صلاح وأنجاله لحضور الذكرى الخامسة للشهيد. فكان استقبالًا رائعًا لم ترّ العاصمة مثله من قبل، ومن الكلمات الماثورة التي قالتها حرم الشهيد: «لسنا حاقدين حتى على محمد شيخ الذي امتدت يده إلى ظهر كمال فطعنته؛ إذ يكفي أن يكون محمد شيخ صوماليًا ليستحق من كمال وهو في جوار ربّه، ومثنا نحن أسرة كمال الدين العفو والمغفرة، فقد كان هو كما كانت الشعوب الأخرى الكثيرة في أفريقيا وآسيا ضحية لمؤامرة كبرى غايتها أن تزرع بيننا الأحقاد».

عادت أسرة الشهيد إلى القاهرة، حاملةً معها قرار الحكومة الصومالية بمنحها الجنسية الشرفية الصومالية، وذكرى طيبة لشعب الصومال الوفي الكريم.

إن ما حدث لمحمد كمال الدين صلاح على يد الشاب الأهوج هو مأساة موجهة امتد أثرها إلى قلب كل صومالي، رأى ما فعله ذلك الرجل من أجل حرية وطنه، وإن ظلت سيرته مجهولة بالنسبة إلى كثير من المصريين..

صوت صارخ في البرية

مرقس الرسول (١٣م - ٦٨م)

اسمه الحقيقي اليهودي هو يوحنا، ثم لُقّب بعدها باسم مرقس، وهو اسم يوناني يعني «مطرقة»، ثم عُرف بعدها بهذا الاسم. ينحدر أصله من اليهود الذين كانوا قاطنين بالمدن الخمس الغربية المُسمّاه «بنتابوليس» التي كانت تقع في منطقة برقة بشمال أفريقيا، وقد أنشئت تلك المدن فيما بين القرنين: الخامس والسابع الميلادي على حدود مصر الشمالية الغربية، وكان ميلاد القديس مرقس في مدينة القيروان التي تقع في إقليم ليبيا بهذه المنطقة، إلا أن تلك المنطقة كانت تتبع مصر جغرافيًا وإداريًا في ذلك الوقت..

تعلم مرقس تعليمًا دينيًا راقيًا، فقد كانت أسرته ثرية، ولم يبخل والده الذي كان يُدعى أرسطو بولس عليه بشيء من أجل تعليمه وتنشئته نشأةً كريمة، برغم أنه كان أميًا يجهل القراءة والكتابة. تعلم اليونانية واللاتينية والعبرية وأتقنها، وكانت الأمور تسير على خير ما يُرام، حتى أغارت قبائل البربر على أملاك الأسرة، واستولت عليها، ولم يجدوا أمامهم سبيلًا سوى الفرار في الصحراء الغربية حتى وصلوا إلى أورشليم، في الوقت ذاته الذي كان فيه السيد المسيح بدأ في نشر دعوته بين القوم.

أمنت عائلة مرقس بالمسيحية على الفور، وكانوا من المقربين من السيد المسيح، بل إنهم استضافوه في منزلهم عدة مرات، وكان يشاركونهم الطعام، ويُقال أنه في منزلهم قد تناول عشاءه الأخير مع تلاميذه كما صوّرها ليوناردو دافنشي في لوحته الخالدة..

كانت هناك صلة قرابة تربط مرقس بطرس الرسول، ويمثُ بصلة قرابة لبرنابا الرسول بكونه ابن عمه. ومرقس الرسول هو أحد رسل المسيح السبعين، المُكلّفين بنشر المسيحية

في العالم كما أنه وضع واحدًا من الأناجيل الأربعة..

بدأ القديس خدمته مع بطرس الرسول في أورشليم اليهودية، وفي جبل لبنان، وفي بيت عنيا، وفي مناطق من سوريا ولا سيَّما أنطاكية حتى سنة ٤٥ ميلادية، ثم انطلق مع الرسولين: بولس وبرنابا في الرحلة التبشيرية الأولى إلى أنطاكية وقبرص ثم إلى آسيا الصغرى. لكنه على ما يُظن أُصيب بمرض فاضطر أن يعود إلى أورشليم، ولم يكمل معها الرحلة، عاد بعدها وتعاون مع بولس في تأسيس بعض كنائس أوروبا، وفي مقدمتها كنيسة روما، ثم ذهب إلى قبرص ثانيةً مع برنابا..

هداه تفكيره إلى أن يعود إلى وطنه الأم ليقوم بحركته التبشيرية في المدن الخمس الغربية بشمال أفريقيا، وهي: القيروان، برينيكى، برقة، أرسينوي وأبولونيا، وكانت هذه المدن في ذلك الحين تحت حكم الرومان، شعوبها خليط من اليونانيين والليبيين والرومان واليهود وكانت ذات عبادات وَثْنِيَّة وثقافة يونانيَّة، وقد وصل القديس مرقس إلى هذه البلاد نحو سنة ٥٨ ميلادية، واستمر يدعوهم حتى آمنوا وكسروا أوثانهم..

رحل مرقس إلى الإسكندرية التي كانت ذات شأن عظيم في ذلك الوقت، وكانت مجمعاً للعلماء والفلاسفة والمفكرين، تزدهم بعدد عظيم من كبار العلماء كما كانت تزدهم مكتبتها الشهيرة بمئات الآلاف من الكتب النادرة والمخطوطات المتعمِّقة في كل العلوم، وكانت تلك المدينة الضخمة - حينذاك - تضم نحو مليون شخص من المصريين والرومان واليونانيين واليهود والفرس والحبشيين وغيرهم، حتى وضعها بعض المؤرخين في مرتبة أرقى من روما عاصمة الحضارة الرومانية في ذلك الوقت. علم أنه أمام تحدٍّ عظيم إن استطاع نشر المسيحية في مصر، التي كان يدين أهلها بالولاء والطاعة لآلهة الفراعنة، فاتخذ سبيله في الصحراء متوجهاً صوب سوهاج بصعيد مصر ماراً بالواحات، ثم صعد شمالاً، ووصل الإسكندرية نحو عام ٦١م..

قام مرقس بكتابة إنجيله عام ٦١م بمساعدة القديس بطرس الذي كان في مصر في مدينة بابلون، وقد كتبه باللغتين: اليونانية والقبطية..

ولدخوله الإسكندرية قصة يجب أن أذكرها كما تُسرد..

فقد بلي حذاؤه من كثرة المسير، ورجب أن يُصلحه فقصد إسكافياً يُدعى إنيانوس ليصلحه. وفيما الإسكافي يفعل ذلك، دخل المخراز في يده فأدماها، فصرخ قائلاً: «ايس ثيئوس»؛ أي «يا الله الواحد»، فانتهاز القديس مرقس هذه الفرصة، فصلى حتى تُشفى يده، ثم راح يبشره بذلك الإله الواحد الذي هتف باسمه، وهو لا يعرفه، فأمن الإسكافي بكلامه، ودعا إلى بيته، وجمع له أقاربه وأصحابه فبشرهم بالمسيحية، فكانوا هم باكورة المسيحيين في مصر كلها..

وافقت المسيحية ميول المصريين وثقافتهم، فأمنوا بها بسرعة شديدة أذهلت المؤرخين الذين كتبوا تاريخ مصر، وقامت عدة مناظرات بين المسيحيين والوثنيين استطاع مرقس أن يحسمها جميعاً لصالحه، مما أرسى دعائم الدين الجديد في مصر أكثر وأكثر، إلا أن ذلك أثار حفيظة الوثنيين، وامتلات قلوبهم بالحقد عليهم عامة، وعلى مرقس خاصة، فلم يرضوا بأن يأتيهم مَنْ يخبرهم بأن يتركوا عبادة آلهتهم التي عبدها آباؤهم وأجدادهم من قبل، يتقربون إليهم بالقرايين لقضاء حوائجهم، ويعبدون بدلاً منهم رباً رحيماً في السماء لا يستطيعون رؤيته..

أقام مرقس «إنيانوس» أسقفًا، ورسم معه ثلاثة قساوسة وسبعة شمامسة، وشيّد أول كنيسة بالإسكندرية في الجهة الشرقية منها عُرفت باسم «بوكاليا» أي دار البقر، وبذلك ازداد عدد المؤمنين زيادةً كبرى في وقت وجيز.

أسّس مرقس مدرسة لاهوتية لتتصدى لتعاليم المدرسة الوثنية التي كانت التراث الطبيعي لمدرسة أثينا، وكان يقوم بالتدريس فيها أكبر الفلاسفة الوثنيين في ذلك الحين، وأقام مرقس القديس يسطس أول رئيس للمدرسة اللاهوتية، وهو الذي صار فيما بعد سادس بابا للإسكندرية.

وضع مرقس الأساسات التي شُيِّد عليها الهرم الكنسي، واستمر بشكلٍ أو بآخر حتى يومنا هذا دون تغييرات جذرية، قاعدته تتكون من الشاماسة، جمع شَمَّاس، وهم الدرجة الأدنى في سُلَّم الكنيسة، ومهمتهم هي مساعدة الكاهن في الخدمة الكنسية، تليها طبقة الكهنة، وهم العمود الفقري في الخدمة الكنسية، أو القُسُس، جمع قسيس، وهؤلاء الكهنة يُسمح لهم بالزواج، فوق القسيس يوجد القُمُّص، وهو عادةً رئيس كنيسة كبيرة يقوم بمساعدته ما بين ثلاثة أو خمسة من القسس، وإذا لم يكن رئيس كنيسة كبيرة، فإنه يكون عادةً مسئولاً عن أكثر من كنيسة صغيرة في منطقة واحدة..

ثم يبدأ من هنا سلك الرهبان، فمنهم يجيء الأساقفة الذين يتولون الرعاية الكنسية على مستوى الأقاليم، وهؤلاء لا يتزوجون باعتبارهم من الرهبان، وترسيم كل واحد منهم على أبرشيَّته نوعٌ من الزواج المقدس بينه وبينها.. والأبرشية هي منطقة الولاية الجغرافية لسلطة الأسقف، والذي يرسم حدودها هو المَجْمَعُ المُقَدَّس، وهذه الحدود غير قابلة للتغيير في حياة نفس الأسقف على قاعدة أنه وأبرشيَّته في زواج لا يفصله إلا الموت.. وفي العادة، فإن تقسيم الأبرشيات كان يتَّسق في مصر إلى حدٍ كبير مع تقسيم المديريات والمحافظات المصرية، ومن هؤلاء الأساقفة كان يتكون المجمع المقدس الذي هو أعلى سلطة في الكنيسة، والذي كان يقوم بالدور الأساسي عادةً في اختيار البطريرك، وهو قمة الهرم في الكنيسة المصرية الأرثوذكسية..

كان هذا هو الشكل الهرمي بصفة عامة للكنيسة القبطية، على الأقل قبل أن يأتي من يُدعى حبيب جرجس في بدايات القرن العشرين ليُحدث ثورة تحديث الكنيسة..

نعود إلى القديس مرقس الذي ارتحل من الإسكندرية قاصداً المدن الخمس الغربية، ليطمئن على دعوته التي تركها في رعاية تلاميذه هناك، ومنها إلى روما، حيث كانت له جهود تُذكر عاون بها القديس بولس، وانضمَّ إلى زميله تيموثاوس، وبقي بروما حتى مقتل القديسين: بطرس وبولس، وما لبث أن عاد إلى مصر ليتابع العمل الذي بدأه. عاد إلى

الإسكندرية عام ٦٥ م ليجد الإيمان المسيحي قد ازدهر، فقرر أن يزور المدن الخمس، وعاد مجددًا إلى الإسكندرية ليلقى نهايته هناك..

فقد كانت الكنيسة تقيم احتفالًا بعيد القيامة يوم ٢٦ من أبريل عام ٦٨، تجمّع فيه المسيحيون حول القديس مرقس الذي شنّ هجومًا قاسيًا على الوثنيين وألتهتهم الذين كانوا يحتفلون في نفس الوقت بعيد إلههم سيرابيس، فاستشاطوا غضبًا وتوجهوا في جموع حاشدة نحو كنيسة بوكاليا، فوق مرقس في أيديهم، وبدءوا يسحلونه في طرقات المدينة، وهم يصيحون: «جُرُّوا التَّئِين في دار البقر»، فربطوه بحبل إلى خيل، وجعلوها تجوب شوارع المدينة، ومازالوا على هذا النحو حتى تهتّك جسده بشدة، وأخذت جراحه تقطر دمًا غزيرًا. في المساء وضعوه في سجن مظلم، وفي اليوم التالي أعاد الوثنيون الكُرّة حتى فاضت روحه، على أن موته لم يهدئ من نائرة الوثنيين، فاعتزموا حرق جثته بعد موته إمعانًا في التنكيل به، وبالفعل جمعوا كومة عظيمة من الحطب وأعدوا نارًا للمحرقة، غير أن المدينة كانت تتعرض في ذلك اليوم لعاصفة شديدة مصحوبة بمطر غزير، فانطفأت النار، وتفرّق الجمع، وعندئذٍ أسرع جماعة من المسيحيين فأخذوا الجسد وحملوه إلى كنيسة بوكاليا، ووضعوه في تابوت، ثم صلّى عليه خليفته القديس إنيانوس مع أتباعه، ودفنوه في قبر نحتوه في الجانب الشرقي من الكنيسة، وأطلقوا عليها اسم كنيسة القديس مرقس، وقد كان موته في الثامنة والخمسين من عمره.

الرحلة التي قام بها جسده مُتوفًى فاقت رحلاته حيًّا، فقد ظل جسده في التابوت حتى سنة ٦٤٤م في كنيسة بوكاليا بالإسكندرية، وكانت تطلُّ على الميناء الشرقي للمدينة، فلما وقع الانشقاق العقائدي في مجمع كالدونيا سنة ٤٥٠م، تعرضت الكنيسة القبطية التي تؤمن بالطبيعة الواحدة والمشية الواحدة للمسيح لاضطهادٍ عنيف من أصحاب الطبيعتين والمشيتين، الذين أطلق عليهم لقب المَلَكانيّين؛ لأنهم اعتنقوا مذهب الملك الروماني، واستولى الملكانيون على الكنائس القبطية، ومنها كنيسة القديس مرقس، وبداخلها جسد القديس، وظلت تحت سيطرتهم حتى سنة ٦٤٤م..

في ذلك المجمع، كانت كنيسة بيزنطة تنادي بطبيعتين للمسيح: بشر وإله، بينما نادى نظيرتها المصرية - والتي نجحت في استقطاب كنائس سوريا واليونان وأرمينيا - بأن للمسيح طبيعةً واحدة: حلول الإله في البشر؛ مما عرّضها للاضطهاد السابق ذكره.

نجح بعض تجار البندقية في سرقة هذا الجسد سنة ٨٢٧م، وبنوا عليه كنيسة في مدينتهم، واهتمّ حاكم البندقية ببناء هيكل فخم يليق بالجسد، غير أن هذا الهيكل احترق سنة ٩٧٧م فجدّد عمارته الدوق بطرس أرسيلوا، ثم أُقيمت للجسد كنيسة، تُعدُّ من أضخم وأفخم كنائس العالم، وهي كنيسة القديس مرقس بالبندقية، بدأ بناءها سنة ١٠٥٢م، ولم يكتمل بناؤها إلا في القرن الثامن عشر للميلاد، وقد خرجت تحفة بديعة.

أما رأس القديس مرقس، فقد بدأ البابا بنيامين الثامن والثلاثون في بناء كنيسة ليوضع فيها الرأس، غير أن الرومان بدءوا يحاولون الاستيلاء على الرأس أيضًا، حتى أخذه الأقباط وخبّئوه في دير القديس مكاريوس نحو سنة ١٠١٣م، ثم في خلال القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر تتابع نقل رأس القديس إلى كثير من بيوت أغنياء الأقباط، حتى تم أخيرًا بناء مدفن خاص لرأس القديس في الكنيسة المرقسية بالإسكندرية في القرن الثامن عشر، ووضع فيه داخل صندوق من الرخام. وذلك في عهد بطرس السادس..

ظل جسد مرقس راقدًا في كاتدرائيته العظمية في البندقية منذ سنة ٨٢٨م، حتى طلب البابا كيرلس السادس بطريرك الأقباط من بابا روما إعادة الجسد إلى موطنه الأصلي في مصر، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بمرور تسعة عشر قرنًا على مقتل القديس؛ وكذلك بمناسبة تأسيس الكاتدرائية المرقسية الكبرى بأرض الأنبا رويس بالعباسية بالقاهرة؛ لتكون مقرًا للجسد المقدس، وفي يوم ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٨م عاد الوفد الذي أوفده البابا كيرلس السادس لإعادة الجثمان إلى مصر، ومعه أعضاء البعثة التي أوفدها بابا روما كي يحملوا الرُفات المقدسة. وكانت في هذه الأثناء أجراس الكنائس تدقُّ في القاهرة كلها ابتهاجًا بهذه المناسبة..

ثم في الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء ٢٦ يونيه سنة ١٩٦٨م، بدأ الاحتفال الدينى الطقسي بافتتاح الكاتدرائية المرقسية الجديدة بدير الأنبا رويس، ف جاء البابا كيرلس السادس بسيارته يحمل صندوق رفات القديس مرقس من الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية، التي ظل موضوعاً بها طيلة ثلاثة أيام، وتقدم الموكب يحفُّ به المطارنة والأساقفة والكهنة والشمامسة، إلى أن صعد البابا إلى الكاتدرائية الجديدة، ووضع الصندوق بكل إجلال على مائدة خاصة في شرقي الهيكل، وبدأت مراسم القدّاس الذي خدمه البابا كيرلس السادس، واشترك معه أغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك أنطاكية، وعدد من المطارنة الأقباط والإثيوبيين والسُريان والهنود الأرمن الأرثوذكس، والإمبراطور هيلاسلاسي الأول إمبراطور إثيوبيا، وكثير من رجال الدين من مختلف بلاد العالم ونحو عشرة آلاف من الأقباط، وما إن انتهى القداس حتى نزل البابا كيرلس يحمل الرفات ومعه الإمبراطور و بطريرك السريان الأرثوذكس، في موكب كبير، واتجه إلى مزار القديس مرقس الذي كان قد سبق إعداده تحت المذبح الرئيس للكاتدرائية، ووُضع الصندوق المزخرف في القبر الرخامي..

ولتصنع على عيني

موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (١٤٩٠ ق.م - ١٣٩٠ ق.م)

«يا آل يعقوب... أنتم بقيّة الله على أرضه. وصفوته من صالحى المؤمنين، لقد أرسل الله تعالى أباكم يعقوب، ومن قبله إسحق وإبراهيم، دعاه لعبادة الله وحده. وأتباع سبيل الحق والخير، والهدى والرشاد، فكان جدّكم إبراهيم خليلَ الله، وصفيّه، وأبًا للأنبياء جميعًا، من بعده. وها أنتم أولاء تعيشون في أرض مصر، مُكرّمين ما زلت بين ظهرانىكم، وإنني موشك على لقاء ربي، والالتحاق بأبائي وآبائكم الصالحين. فإذا كان ذلك، وإنه لكائن لا محالة، فسوف تتعرضون من بعدي للظلم والطغيان، والأذى والعذاب، فما عليكم والله، إلا الاعتصام بالصبر، والتمسك بدينكم الذي أنتم عليه الآن.. وبعد زمن، ليس بالطويل، سيأتي من بعدي نبيّ يخلص بني إسرائيل من جبروت فراعنة مصر، وطغيانهم، وعتوّهم، به ينصر الله الحق، ويقيم الدين، ويذلُّ الطُّغاة المُتجَبِّرين، فاصبروا صبرًا جميلًا، وانتظروا فرجًا من الله، ومُخْرَجًا مما ستثولون إليه، ولا تهنّوا، ولا تحزنوا، ولا تيأسوا، واعلموا أن الله مع الصابرين».

ثم أسلم النبيّ يوسف الروح لتفيض إلى بارئها، وتصدق إلى الدار الحق بعد أن ترك وصيّته إلى بني إسرائيل.

كانوا قد بلغوا شأنًا عظيمًا في عصره خاصةً أنه كان وزير الدولة، وجعله ملك مصر أمينًا على خزائن الأرض كلها بعد أن أنقذ البلاد من مجاعة - بوحى من الله ثمّ بحنكة يوسف وذكائه - كانت كفيلة بالقضاء على كل مظاهر الحياة فيها، ثم بعث إلى أبيه وإخوته ليأتوا

إلى مصر، ويتخذون منها موطنًا. صدق يوسف، فذاق بنو إسرائيل العذاب أهوالًا من بعده، وأذاقهم فراغنة مصر الويل، وانحدرت بهم المعيشة حتى صاروا أقلّ فئات المجتمع المصري، وما تبقت لهم إلا أحطّ المهّن من فِلاحة وبناء وعبيدًا للمصريين.

مضت القرون ببني إسرائيل، وما هم بقادرين على دفع البلاء عنهم، وقد لاقوا من أمرهم نصبًا، ويحدوهم الأمل أن يأتي يوم الخلاص على يديّ مُنقذهم من بني إسرائيل، إلا أن الأمور قد انتحت منحىً خطيرًا في عهد فرعون مصر، فقد زاد طغيانًا في الأرض، واتخذ نفسه إلهًا من دون الله، بيده المَحْيَا والمَمَات.

أمر فرعون ببناء معبد عظيم له في جنوب مصر، وأن يتزين بتمائيل شاهقة الارتفاع والضخامة والعظمة له ولزوجته، وأن يكون يوم افتتاحه يوم عيد للمصريين.. ولم لا؟.. أليس معبدًا للإله كي يعبده الناس، ويذكرون فيه اسمه إجلالًا وتعظيمًا.

يرفع فرعون يديه لتحية الشعب وتمتلى نفسه بالحُبُور، وهو يراهم يخرون أمامه سجدًا، ويهتفون له ومستعدين للتضحية في سبيله بكل عزيز لديهم. تأخذه المفاجأة وهو يرى قومًا من العبيد لا ينحنون له، وقد انحنى له الأشراف والنبلاء.. كان تعداد بني إسرائيل قد زاد وتكاثروا حتى صاروا عشرات الآلاف يقطنون أحقر المساكن والعشوائيات..

غضب فرعون وأرسل إلى وزيره هامان يستقصيه عن هؤلاء القوم الجاحدين كيف لا يسجدون له، وكانت أكثر من أربعمئة عام قد مرّت على وصية يوسف، فاندثرت ولم يعد أحد يذكرها سوى بني إسرائيل، وقد أصبحت الأمل الأخير لديهم يتوارثونها جيلًا بعد جيل.. بحث هامان حتى عرف أن هؤلاء القوم لا يتخذون من فرعون إلهًا، بل يعبدون إلهًا واحدًا لا شريك له.. هو رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف.. بل والأدهى أن مُنجمي فرعون قد أخبروه أن مُلكه في سبيله إلى الزوال على يد ذكّر مولود من بني إسرائيل، وذلك في الوثر من السنين كما أخبروه؛ فاستشاط غضبًا وأصدر فرماناته الظالمة..

أمر أن تشتد رقابتهم، ويُحال بين الرجال منهم والنساء، فُتحفظ النسوة بعيدات عن أزواجهن، ومراقبة الحوامل من نساء بني إسرائيل، ومن ستحمل منهن، وأن يكون رجاله حاضرين عند ولادة كل مولود صبي منهم فيُقتل فور ولادته..

وفي ظل تلك الظروف العسيرة تلد «يوكابد» موسى.. طفلاً جميلاً الطلعة صبيح الوجه باهر الجمال، فيكون الابن الثالث لها بعد مريم الابنة الكبرى ذات السنين السبع، وهارون الذي بدأ التحدث بتلعثم، وهو صاحب الأعوام الثلاثة..

أخفت «يوكابد» موسى عن العيون طيلة ثلاثة شهور كاملة خوفاً عليه من فرعون وجنوده حتى ضاقت نفسها، ولم تدرِ ماذا تفعل به فأوحى إليها الله أن تُرضعه، ثم تضعه في صندوقٍ صغير، وتلقيه في نهر النيل تحمله الموجة وراء الموجة إلى حيث يشاء الرحمن، وغالبت أمه دموعها، وكتمت صرخاتها الملتاعة خوفاً عليه وأمرت أخته أن تتبعه عساها تعرف أين استقر به المقام..

يتهاذى الصندوق حتى يصل إلى قصور فرعون وجنانه، ويشاء القدر أن يقع بيد امرأته آسية بنت مُزاحم، وعندما تقع عينها على الطفل الجميل تتمسك به بشدة، وتلحُّ على فرعون أن تحتفظ به، وأن يتخذه ولداً، فيرفض بشدة عندما يعلم أنه من بني إسرائيل، ويدق في رأسه ألف ناقوس للخطر لعله يكون الرجل المنتظر الذي سيزيحه عن ملكه، ويعيد لبني إسرائيل مجدهم بعد قرون العذاب، إلا أن آسية تُصرُّ وبشدة حتى يُدعن لرغباتها، ويوافق.. ترسل آسية الطفل إلى المراضع فيرفضهن جميعاً، وصراخه يتواصل من شدة جوعه فيمزق نياط قلبها. هنا تشعر مريم أن الوقت قد حان للتدخل، فتخبرهم أنها تعلم مُرضعة ربما تقدر أن تكون كفيلاً له، فيتعجبون ويطلبون منها أن تُهرع بالإتيان بها لعله يتقبلها..

تنطلق الفتاة إلى أمها، فتأتي بها إلى القصر، وما إن ترى «يوكابد» الغلام بين يدي فرعون الذي كان يهدده، حتى خفق صدرها، وبلهفة تتناول الطفل منه، وتضمُّه إلى صدرها، وثلقمه ثديها فيلتقمه بنهم، وعندما انتهى من الرضاعة، علا ثغره طيف ابتسامة، ونشوة

فرح وأخذ يناغي أمه، وقد ظهرت على وجهها السعادة والجميع واجمّ مأخوذ بما يرى، ويتساءلون من تكون هذه المرأة التي ارتاح إليها الغلام فتجيب: إنني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، يرتاح إليّ كل رضيع.. فيسلمها فرعون الغلام ترضعه وترعاه، وهكذا يتحقق وعد الله لها كي تقرّ عينها، وتزداد إيماناً بأن الله لم يضيع وديعتها التي أودعته وأسموه في القصر (موسى)، أي: المُنتَشَل من الماء..

تعلق فرعون بموسى، وخصّص له وقتاً يومياً يقضيه معه، لا يشغله عنه إلا الأمر الجَلَل، حتى أتى يوم كان فيه فرعون يداعب موسى، وهو بعدُ طفل صغير، فأمسك موسى بتاجه المُرَّص بالذهب، ووضعه فوق رأسه، فأوجس في نفسه فرعون خيفةً أن يكون موسى هو الرجل المنتظر من بني إسرائيل، فأمر أن توضع أمامه كفتان بإحدهما ذهب، وبالآخرى جمر من نار، فإن تناول الذهب قُتل في الحال، إلا أن الطفل الصغير تناول جمره، ووضعا في فمه حتى صرخ من شدة الألم، وقد احترق لسانه، فأصيب بعاهة تمنعه من الحديث بطريقة سليمة ما تبقي له من عمر، ولكنه قد نجا من القتل..

يشبُّ موسى عن الطوق، ويبلغ مبلغ الرجال، وعرف من أمه ما يقاسيه بنو إسرائيل بعيداً عن القصر الأسطوري الذي تربى فيه بين أحضان عدوِّ الله وعدوِّه، وحاول أن يدفع بصَلاته ومكانته في القصر الفرعوني الظلم عن بني إسرائيل، ويخفف عنهم الاضطهاد قدر استطاعته..

ثم وقعت الواقعة التي أدت إلى خروجه من مصر، فقد مرَّ موسى ذات يوم في طُرُقَات المدينة، في وقتٍ حَلَّت فيه من الناس، فوجد رجلين يتقاتلان أحدهما يعقوبي من شيعته والآخر مصري، وكان السبب أن المصري أراد أن يُسخرَّ اليعقوبي في عمل، ورفض الرجل الأجر الهزيل، فتصارعا وعندما رأى اليعقوبي موسى استغاث به يريده أن يستنصره، فوكز المصري وكزةً كانت قاتلة؛ خاصةً أن موسى كان شديد القوة عظيم البأس، فلما رآه قتيلاً بين يديه جزع جزعاً شديداً فلم تكن نيَّته أن يقتله، وإنما أراد أن يفرِّق بينهما فاستغفر الله على ذنبه العظيم، فغفر له الله.

استبدَّ الخوف بموسى بعدها، وشعر أن فعلته قد تُودي به إلى التَّهْلُكَة، وكان ينظر إلى أعين الناس في رعبٍ بالغٍ خشيةً افتضاح أمره، إلا أن المشهد الذي حدث بالأمس تكرر أمامه ثانية، ورأى الإسرائيلي يتشابك من جديد، فقال له موسى: إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مَبِينٌ؛ أي: صاحب فتَن ورجل مخاصمات، ومع ذلك أخذته حماسة الانتصار للإسرائيلي، فأراد أن يبطش بالذي هو عدوُّ لهما، ولكنه ظن أن موسى على وشك أن يبطش به فصرخ قائلاً: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟!

هنا عرف المصريون أن موسى هو من قتل المصري بالأمس فاشتدَّ بهم الغضب، وأرادوا أن يفتكوا به، فاتفقوا على القضاء عليه، إلا أن رجلًا ناصحًا أميًّا أتى إليه كي يحذره وأخبره أن مؤامرةً تُحاك ضده، وعليه أن يهرب خوفًا من بطش القوم..

يتستَّر موسى بالليل، ويتخذ غطاءً يختفي تحته كي يفرَّ من المدينة التي أجمعت على الانتقام منه. يستشيط فرعون في الصباح غضبًا عندما يبحثون عن موسى في كل مكان، فيجدونه قد فر، فيُنزلون غضبهم أكثر على بني إسرائيل، ويزيدونهم عذابًا وتنكيلًا..

كانت وجهة موسى بعد ذلك شمالًا صوب مَدْيَن، وتقع في الشام، سائرًا بلا ماءٍ ولا زاد، يفتات بأوراق الشجر، حتى وصل إلى مدين وقد بلغ من سفره هذا نصبًا شديدًا، وتنفس أخيرًا الصُّعداء في ارتياح. رأى تجمُّعًا من القوم، فاقترب ووجد ناسًا يسقون من بئر، وكان الأقوياء يسقون أغنامهم أولًا ثم ينصرفون، ولفت بصره وجود فتاتين تقفان في مذلةٍ وخوف، فتقدم منهما وقد رقَّ قلبه لِحالهما، فسألهما ما خطبهما، فقالتا له إنهما لا تستطيعان السقاية، ولا يوجد من يساعدهما خاصة أن أباهما شيخ عجوز، وليس بقادرٍ على رعاية الأغنام التي بحوزتهما..

تقدم موسى من البئر ليسقي لهما، حتى وصل إلى فَوْهته، فوجد صخرةً تحُول دون تدفق الماء غزيرًا، فاقتلعها بزندان قويين، وكأنهما أصول سديانة عتيقة، فانبهر الجميع لقوة هذا الغريب، رغم ما يبدو عليه من مظاهر الإعياء، وعلامات الهُزال؛ فتركوه وشأنه، فسقى للفتاتين، ثم ابتعد..

أبى الله إلا أن يساعد عبده المُقَرَّب إليه، فلم تمض ساعة حتى فوجئ بإحدى الفتاتين تأتي إليه، وتطلب منه أن يأتي معها فأبوهما يريد أن يراه، وبالفعل ذهب معها فاستقبله هذا الشيخ خير استقبال، وأكرمه فأحسن وفادته، واستمع منه إلى قصته كاملةً، فتأثر بها..

تقدّمت إحدى الفتاتين من أبيها، لتهمس في أذنه، على حين غفلةٍ من موسى أن يستأجره، فقد رأوا منه من القوة والرجولة والشهامة ما يؤهله أن يرعى قطعان الغنم..

عرض الشيخ على موسى أن يعمل معه دون أن يبخره حَقَّه، بل وطلب منه أن يتزوج إحدى بناته، ويكون مهرها هو العمل الذي سيقوم به، على أن يقوم بمناصرتة وعونه ورعاية أغنامه ثمانية أعوام، وإن أتممها عشرًا، فذلك فضل وزيادة منه.. لم يَطل تفكير موسى، إذ ما لبث أن وافق، فتعاهد الرجلان على ذلك. تزوج موسى إحدى الفتاتين، وكان اسمها صفورة، وبقي عند أبيها عشر سنين، موفيًا بما عاهد، وامتًا أوفى الأجلين، يناصره ويُعينه، ويرعى له أغنامه التي تكاثرت بشكلٍ مُطرد..

وتروي بعض الروايات أن هذا الشيخ ما هو إلا شَعَيْب نبي الله الذي أرسله إلى أهل مدين، والذين كانوا يظلمون في الكيل، ولا يُقسطون، ويَطْفُقون الموازين، وتلك القرية التي نزل بها موسى هي قرية الأيكة بجنوب لبنان، والتي أصبح اسمها الآن بليدا، والبئر هي بئر بليدا القريبة منها جنوبًا وشرقًا..

وَلَدَتْ صفورة لموسى ولدًا أسماه جرشوم، ومعناه غريب المَوْلَد..

تحرك قلب موسى أن يعود بأهله إلى مصر، وعزم على المسير واستعد له، ولما أراد الفراق أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون، أي على غير لون أمها. فعن عقبة بن المنذر فيما رواه البزار، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبرهما وأوفاهما»، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام، أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما

ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون. قال: فما مرّت شاةٌ إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها، وولدت اثنتين أو ثلاثًا كلُّ شاة، وليس فيها فشوش، ولا ضبوب، ولا كميشة تفوت الكف ولا تغول»..

أتى العام ١٤٥٠ ق. م، وقد بلغ من العمر أربعين عامًا، ينطلق موسى وزوجته متجاوزين أرض كنعان وفلسطين، حتى يصلا بعد أيامٍ قليلةٍ إلى سيناء، وهناك يهبط عليهما الليل الثقيل فتضيع الاتجاهات والأنحاء، حتى يفشلا في تحديد بأي صوب يتخذون سبيلاً، ثم يزداد الطين بلّةً، بأن يفاجئ المخاض امرأته الحُبلى، ولا يدري ماذا يفعل، ولكنه علم أن الله لن يضيعه، فيرى من بُعدٍ نارًا مضيئةً، فيقول لزوجته إنه ذاهب إلى تلك النار لعلّه يأتي منها بقبيس تؤنسهم في وحدتهم الموحشة..

يحثّ موسى خُطاه إلى النار الملتهبة بسرعة حتى يصل إلى شاطئ الوادِ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وينظر إلى النار... إنها نارٌ عجيبة حقًا، ويكرر موسى إلى النار النظر، إنها تلتهم الأغصان والأوراق، أما الجذع فمُخَصَّوَصٌ يانع، وكأن بينه وبين النار حائلًا.. ويتأملها كالمصعوق، فهي بالإضافة إلى ذلك لا تتغير أبدًا، فلا لهيبها يخبو، ولا اضطرامها يزداد. إنها على حال واحد لا تتغير، فهي أشبه ما يكون بالنور، بل هي نور لا نار.

يقطع دهشته صوت، ينبعث من قلب هذه النار العجيبة، يناديه باسمه {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} فيمثل للأمر موسى، وقد ارتعدت فرائصه لهؤل المفاجأة..

كلّفه الله أن يحمل الرسالة إلى الطاغي فرعون، وأعطاه الله الآيات، وطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، ليكون له رِدْنًا، وأثنى موسى على أخيه بين يدي ربه بأنه أفصحُ منه لسانًا، وأعطاه الله الوصايا العشر:

- لا إله سوى الله.
- لا تحتفظ بأي صورة محفورة لك.

- لا تأخذ على اسم الرب إلهك عبثًا.
- اذكر يوم السبت وقدسسه.
- احترم أباك وأمك.
- لا تقتل.
- لا تزني.
- لا تسرق.
- لا تشهد بالزور ضد قريبك.
- لا تطلب أيّ شيء من جارك.

حمل موسى الرسالة كما أوصاه ربه، ومعه المعجزات، ودخل مصر وقابل فرعون مع أخيه هارون، وأراد فرعون أن يوقع به العذاب لما فعله بالمصري قبل خروجه قبل عشر سنوات مضت، إلا أنه فوجئ به يدعوهُ إلى عبادة إله واحد، فغضب غضبًا عظيمًا، ومنعته سابقة حب لموسى أن يقتله، وهو يؤكد للجميع أنه الإله الوحيد ولا إله غيره، وسخر من موسى، وما يدعوهُ إليه، واتهمه إنه مجرد ساحر، وتحداه تحديًا عظيمًا في يوم الزينة، حيث يجتمع الناس، وكان غرض فرعون هو كسر شوكة موسى، وإحراجه أمام الجميع..

جمع فرعون السحرة، وأمرهم بأن يتفننوا في إبهار الناس في ذلك اليوم، وأن يُبطلوا بسحرهم سحر موسى وهارون، ووعدهم بأن يُجزل عليهم العطاء إن نجحوا في ذلك..

تملّك الخوف من موسى من ذلك التحدي، إلا أن الله قد طمأنه، وأراه بعضًا من آياته، فاطمأن قلب موسى. جاء اليوم الموعود، وأقبل الناس من كلِّ حدبٍ وصوبٍ في ربوع مصر ونجوعها، ونزل فرعون في عظيم رونقه وجلاله، يحيط به سادة المملكة وأشرفها، ويتبعه السحرة أفواجًا، وهم يحملون عصيًا لهم، وحبالًا، وتتجه بهم العربات الموشاة بالذهب إلى الساحة الكبرى في المدينة التي أُعدت لاستقبال فرعون

مصر، فرفرفت حولها رايات كثيرة، وزينة ذات ألوان.. إنها لمناسبة يضنُّ بمثلها الزمان. فهي حدث العصر الضخم، وحديث الدنيا كلها..

يسأل كبير السحرة موسى: أنلقي نحن، أم تكون أول من ألقى؟ فأجابهم: بل ألقوا..

تقدم كبير السحرة، فألقى عصا كانت بيمناه، فإذا هي تسعى، وأتبع ذلك بحبل كان على كاهله، فألقاه، فإذا هو حية أعظم من الأولى، وأدهى.. ثم أشار كبير السحرة إليهم فألقوا حبالهم وعصيَّهم، فإذا بالساحة تموج بالحياة، من كل شكل..

تهلّل وجه فرعون، فاهتز طرباً، وشفق بيديه مستبشراً.. وصاحت الجماهير المحتشدة، فأوجس موسى خيفةً مما رأى، وأوحى الله إلى نبيّه في غمرة المفاجأة { لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَآلِقِ مَا فِي يَمِينِكَ }..

انتفض جسده، وانتابته قشعريرة غريبة، وألقى عصاه.. فإذا هي حية، لا كالحيات، وقد أخذ جسمها ينتفخ ويتعاطم، حتى صارت ثعباناً مهولاً، تقدح عيناه بعظيم الشر، ولفحيحه صوت هادر، وقد تدلّى لسانه من بين شدقيه الهائلين، متحرّكاً يميناً ويسرة، وكأنه يتوعّد بالخطب الجلل. وانبرى إلى الحيات الساعيات أمامه، وأخذ بالتقامها الواحدة تلو الأخرى حتى فرغ وسط ذهول الجميع.. فأطرق كبير السحرة برأسه قليلاً، ثم رفع رأسه، متوجّهاً إلى السحرة، صارخاً بهم: وَيَحْكُمُ يَا سَحْرَةَ مِصْرَ! إن ما ترون، ليس بسحر كسحركم، ولكنّه الحق أتاكم من ربكم.. فتوبوا إلى بارئكم، وأقلعوا عمّا أنتم عليه من الضلالة والغواية، وعبادة فرعون، وآمنوا بالحق الذي أتاكم به موسى.

{ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى }..

ومدّ موسى يده إلى الثعبان، فتناوله، فإذا هو، كما كان، عصا..

نظر القوم بعضهم إلى بعض محملقين، وكأنهم كانوا تحت وطأة كابوس رهيب!..
فثارت، عند ذلك ثائرة فرعون، وتغيّرت سحنته فبدت دَكْنَاء، وعلا صوته، كالعاصفة
المجلجلة، مهددًا السحرة، ومتوعّدًا إياهم، فهم، بزعمه، قد تواطئوا عليه، وعلى
حكمه، مع موسى، وأمر بالقبض عليهم، وأن تُقطع أيديهم اليمنى، وأرجلهم اليسرى،
أو أيديهم اليسرى، وأرجلهم اليمنى، إمعانًا في العقاب، ثم أمر بصلبهم حتى أسلموا
الروح..

انصرف موسى، وتبعه خلق كثير ممن آمن به واهتدى.. ولم يهنوا، ولم يضعفوا، بل
صبروا على ما أصابهم من فرعون من عظيم الكيد والأذى..

بدأ موسى يسُنُّ لجماعته سُنن الدين القويم، وكان أول ما قام به التوجه لعبادة الله
وحده، والإيمان به خالقًا لكل شيء. بقي المؤمنون من بني إسرائيل، وبعض
المصريين المستضعفين، يحتملون من العذاب والأذى ما لا يُطاق..

بقي فرعون سادرًا في غيّه، عتوًّا وطغيانًا، ووصل به الأمر أن يأمر هامان ببناء صرح
له عظيم، يناطح أعالي الأجواء، لعلّه يطلّع إلى إله موسى، فكأنه بذلك قد بدأ في دق
آخر مسامير نعشه الذي صنعه بيده، وقد تبادر إلى ذهنه أن يُشبهه نفسه بالملك -
سبحانه وتعالى -..

فاض الكيل بفرعون، وهو يرى بعينيه الناس تنصرف عن عبادته، وتتجه إلى عبادة
رب موسى وهارون، فقرر أن يقضي على ذلك الدين مهما تكلف ومهما تحمل من
مشقة، ولن يتأتّى له ذلك إلا بقتل نبيّهم وزعيمهم.. موسى نفسه.. وأرسل في القصر
يخبر معاونيه وحاشيته بنيته العاشمة، فاستحسنوا الفكرة، وباركوها.. إلا أن رجلًا
من حاشيته كان يخفي إيمانه يواجههم، وقد شعر أنهم في سبيلهم للثبيل من نبي الله
فيحذرهم مغبة ما ينتوون، ويذكّرهم بعذاب الله وعقابه، وأنه لن يغفر لهم خطيئتهم
الشنعاء إن قتلوه؛ فتثور ثائرة فرعون، ويحاول أن يعيده إلى عبادته، ولكن الرجل

أبى أن يعود إلى عبادة الطاغوت، ويترك عبادة الله بعد أن هداه، فيرفض فيُنزل به فرعون العذاب، ويقتله شر قتلة..

لا يذكر لنا القرآن اسم ذلك الرجل، ولكن يكفيه أن يتم تلقيبه بمؤمن آل فرعون..

لا يترك موسى مناسبة تمرُّ دون أن يدعو فرعون وملائه إلى الإيمان بالله، بالحُسنَى، والموعظة الطيبة. يُرغَّب موسى فرعون، كالمكافئ له إن آمن، فهو يضمن له، دوام مُلكه لا ينقُص منه شيء، وصحته، لا يصيبها شيء، وأن يُنْسَأ بأجله إلى الضعفين، وما من مجيب، بل كفر وعناد.. فيرسل الله عليهم صنوفًا من العذاب لعلمهم يهتدون، فأرسل الله عليهم عشرة أنواع من العذاب لعلمهم يرتدعون ويعودون إلى الدين الذي فطر الخلق عليه، وكلما حاق بهم عذاب، هُرِعوا إلى موسى راجينَهُ أن يدعو لهم ربه أن يرفع عنهم العذاب، فقد آمنوا ولن يعودوا إلى غيِّهم القديم، وما إن يُزحهُ عنهم الله حتى يعودوا، ويخلوا بشياطينهم هازئين، فقد تحولت مياه النهر للدم، وسلَّط الله عليهم الضفادع والبعوض والذباب والجراد ونفوق الماشية وموت البكر من الأبناء، وأصابت أجسادهم الدامل، وحائل، وظلام دامس طويل..

وأخيرًا، يأتيه الوحي بأن يغادروا المدينة الظالم أهلها، فقد كفروا بما أوتوا، وحقَّت عليهم الكلمة. أرسل الله على المدينة ريحًا صرصرًا عاتية ألزمتهم بيوتهم ثلاثة أيام كاملة، ثم بوغتوا بأن موسى ومن آمن معه قد تركوا المدينة وفرُّوا، فجمع فرعون جنده بقيادته هو شخصيًا، ومعه قائده هامان، عاقدين العزم أن يقتفوا آثارهم، ويلحقوا بهم حتى يقتلوهم شر قتلة، وتبعوهم عبر الصحراء الشرقية كلها حتى وجدوهم وقد اقتربوا من البحر الأحمر. تملَّك الخوف بقوم موسى.. فالعدو خلفهم والبحر أمامهم، وغرقوا في دوامة اليأس لا يدرون ماذا يفعلون وقد أصبحت نهايتهم وشيكة..

هنا يظهر إيمان موسى العميق بخالقه، فصرخ فيهم بصوت عالٍ زلزل قلوبهم المرتجفة بين الضلوع: كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سِيَّهَدِينَ.. لقد أدرك أن ربَّه لن يضيِّعه

وسينقذه كما أنقذه قبلها مرارًا وتكرارًا..

يوحي الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر، ففعلها بلا لحظة تردد واحدة، فانفلق البحر في معجزة هائلة إلى طريق بين المياه.

علت مياه البحر المتجمدة فكانت كالجبال الثوابت، وتقدم موسى قومه يسلك بهم هذه السبل العجيبة، عابرين إلى الضفة الثانية، وقد جعل الله في هذه المياه المتجمدة العالية ما يشبه الفتحات، فكانوا يشاهدون بعضهم بعضًا، وهم يعبرون، وكانوا يتحادثون مستأنسين..

تبعهم فرعون بجنوده مقتفياً آثارهم في البحر المنشق لهم، وقد علت أهاليج جنده وصيحاتهم. ظنًا منهم بأن البحر انشق لفرعون بقدرته!. وكان بنو إسرائيل قد أتموا عبورهم إلى الضفة الثانية. وإذا بصوت كالرعد القاصف، فالتفتوا خلفهم، فإذا بالبحر قد أطبق على فرعون وجنوده، فكانوا من المغرقين.. لما أيقن فرعون بالغرق، قال: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}. ويجيبه صوت: ءالآن؟.. بعدما فات الأوان، فلا إيمان لمن فاته - في ما سلف من عمره - الإيمان!..

اتجه موسى ببني إسرائيل، صوب المشرق، مخلقًا وراءه جيش أعدائه في اليم غرقى. وقد لفظ البحر جثة فرعون إلى الشاطئ. فهذه نهاية كل متكبر جبّار..

مر بنو إسرائيل على قوم يعكفون على أصنامهم، يعبدونها من دون الله. فاشتعل الشك في قلوبهم، وحنوا إلى قديم وثنيّتهم، وقالوا لنبيهم موسى: لماذا لا يكون لنا إله مثلهم نتعبده؟؟.. فنهرهم موسى عما يقولون..

وألحوا عليه، فصاح بهم ساخطًا: أغير الله أبغيكم ربًا وهو فضلكم على العالمين؟!

وسأل موسى ربه كتابًا يكون نورًا لبني إسرائيل؛ لقلقهم، وما فطروا عليه، من العناد والعصيان لا يكادون يستقرون على الرأي الحق، ولما يدخل الإيمان قلوبهم بعدًا..

فيأمره ربُّه بالطهور والصيام، ويواعده ثلاثين ليلة، يُكلمه بعدها، ويناجيه..

قبل أن ينهي الليلة الأخيرة، اختار موسى سبعين رجلاً صالحاً، وسبقهم إلى طور سيناء، بعد أن استخلف أخاه هارون على قومه، موصياً إياه بالصلاح فيما بينهم والإصلاح، مشدداً عليه ألا يتبع سبيل المفسدين، إلا أن الله يأمره بالعودة كي يتم الليالي كما أمره فعاد وأتمَّ عشرَ ليالٍ أخريات، حتى انقضت أربعون ليلةً تامة. عاد موسى إلى ميقات ربِّه مسرعاً، وقدماه تنهبان الأرض نهباً، لفرط حنينه للقاء مولاه، وشدة شوقه وشغفه.. وطلب من الله مطلباً عظيماً أن يراه جَهْرَةً، ولم يُرد الله أن يردَّ موسى خائباً خالي الوفاض برغم عَظَم التَمَنِّي، فأخبره أنه لن يتحمل أن يرى نور الله جهرة، ولكنه سيظهر إلى هذا الجبل الضخم الكائن على يمينه فإن بقي في مكانه سيستطيع موسى أن يرى الله.. ولكن الجبل اندكَّ دكاً من خشية الله وجبروته، ومن هول المشهد، فقد موسى وعيه، ولما أفاق استغفر ربَّه على مطلبه العظيم وتاب إليه..

يتوب الله على موسى، ويُناوله الألواح فيها أحكام كل شيء مفصلاً، وموعظةً، وهدىً، ورحمةً لبني إسرائيل. ثم يخبره بأنَّ قومه ضلُّوا، وقد فتنهم أحد رجالهم ويُدعى «السَّامري»، فرجع موسى إلى قومه غاضباً. وإذا بهم متحلِّقون حول عجلٍ من ذهبٍ، يهزجون حوله، طربين، متعبدين. فعلم أنهم بالفتنة سقطوا وأقبل عليهم مُوبِخاً ومُؤنِّباً.. وألقى الألواح المقدَّسة التي كان يحملها إليهم، أرضاً، فتحطمت، فاشتعل غضباً، وتميَّز غيظاً، وعجب من قومه كيف يضلون بعد أن هداهم الله، وما كان أمامه سوى أن يصبَّ جامَ غضبه على رأس أخيه هارون، وقد ولَّاه عليهم لحين عودته ودفعه بقوة، وأمسكه من لحيته الطويلة فألمه بشدة، واستعطفه هارون قائلاً: إن القوم قد استضعفوني، وكادوا أن يقتلوني فلا تُهنيَّ أمام أحد، وما صبرت عليهم إلا حفاظاً عليهم من الفرقة حتى تعود وتتولى أمرهم..

استغفر موسى الله لنفسه ولأخيه، واتجه صوب «السَّامري» يسأله ما خَطْبُه، ولماذا أضلَّ القوم؟

قال السامري: لقد شاهدت ما لم يتسنَّ للقوم أن يشاهدوه، فقبضت حفنة ترابٍ من أثر الملاك جبريل الذي يأتيك بالوحي، وجمعت ما يحملُ بنو إسرائيل من حُلِيِّ الذهب (وكانوا قد سرقوه من أهل مصر قبل الخروج)، وقذفت ذلك كله في حفرة، أجمعتها نارًا حتى ذاب الذهب، وصنعت من ذلك جسد عجل له صوت كالخوار، كي يتخذوه إلهًا كما أرادوا.

يهبُّ موسى لمعالجة الأمر سريعًا. ويأمرُ بالعجل، فترسلُ عليه النار، فتحرقُه، وتفتتُه تفتيتًا، وتهبُّ ريحٌ تذروه في البحر، هباءً منثورًا.. وأمر بالسامري منبوذًا، لا يدنو من الناس، ولا يقربُه الناس، ولا يمسه أحدٌ أبدًا.. شاردًا في الصحراء الجذباء حتى يهلك..

أمر موسى قومه بالتوبة، وقتل أنفسهم، ولعلَّ المقصودُ بذلك كسرُ صلفها، فوافقوا أن يفعلوا ما أمرُوا به، وتاب الله عليهم جميعًا. عاد موسى إلى ميقات ربِّه، من جديد، بعد أن اختار من قومه - كما فعل أنفًا - سبعين رجلًا، ولما وصلوا إلى الجبل، زلزلت الأرض بهم زلزالًا شديدًا. فصاح عندئذٍ موسى متضرعًا وجِلًّا: ربي، لو شئت أهلكتهم من قبل وإيَّاي.. أتهلكنا يا رحيم بما فعل السفهاء منَّا.

فتشملهم رحمة الله، وتستقر الأرض تحت أقدامهم.. وعاد موسى يدعو قومه إلى اجتماع ليبين لهم ما أنزل الله من أحكام إقامة صلاة وتأدية زكاة، وكانت الدعوة أمام سفح الجبل، فلم يسمعوا له قولًا. فتزلزل الجبل فوقهم، وتناثرت حجارته عليهم، فسمعوا عندئذٍ قول موسى.. وكان الله يرسل إليهم إشاراتٍ حتى يتوبوا، ويعبدوا الله حق عبادته كما فعل من قبل مع قوم فرعون..

يستبد بهم الظلم، وهم في سفرهم الطويل إلى الأرض المقدسة بفلسطين، ويُنزل عليهم الله رحمته من جديد، فيوحي لموسى أن يضرب بعصاه صاحبة المعجزات الأرض فتنشق منها اثنتا عشرة عينًا، لكل طائفة عين، حتى يعلم كُلُّ أناسٍ مشربهم..

تابع طريقه موسى، ووجهة سيره «أريحا» لمواجهة من فيها من عتاة الكنعانيين. فاستسلم بنو إسرائيل إلى خور العزيمة، ودبّ فيهم الوهن، وقالوا لموسى إنهم لن يدخلوا حتى يخرج منها قومها الجبارون، فإن لم يخرجوا، فلن يدخلوها أبدًا.. ثم تجرّءوا أكثر، وأخبروه أن يذهب هو وربّه ليقاتلا هؤلاء القوم، فلن يقاتلوهم مهما حبّ إليهم القتال، ومهما وعدهم بعتاء الله..

استغفر موسى ربه، وقد استبدّ به اليأس من قومه، وغضب الله عليهم، فحكم عليهم أن يتيهوا في الصحراء طيلة أربعين عامًا لا يهتدون سبيلًا..

هكذا لبثوا في التّيه أربعين سنة، يتردّدون في بريّة سيناء، وصحراء الحجاز، ويترددون أيضًا حول جبال السّراة وأرض سعيير وبلاد الكرك والشّوبك..

كانت سنوات التّيه هي السنوات الأخيرة في حياة النبي العظيم، الذي تقلبت به الأحوال كثيرًا، إلا أن صبره وإيمانه ثبّتا أقدامه. لما أحس بدنوّ أجله، نظر في أمر قومه، فأحسن تدبير أوضاعهم، وتنظيم صفوفهم، وجعل يوشع بن نون، وهو عبد صالح، خليفة له يرعى أمورهم، وكان أخوه هارون قد وافته المنية قبله، أيضًا في سنوات التّيه..

الذي ثبت فقط أن موسى عليه السلام ثوّفي عند كتيب أحمر في فترة التّيه بالقرب من جبل نيبو بالأردن، وإن لم يُعرف قبره أبدًا..

وأخيرًا، فإن كان لنا أن نُصنّف شخصيات ذلك الكتاب، فموسى، ولا شك، هو أعظمهم على الإطلاق، ليس فقط لأنه نبي الله وكليمه وحبيبه، بل لنضاله الأليم في سبيل إعلاء كلمة الحق، وزرع الإيمان في قلوب جاهلة عمياء..

شيخ من فز شوط

همام بن يوسف

(١٧٠٩ - ٧ من ديسمبر ١٧٦٩)

مرارة القهوة لا تزال في فمه، لا يضيعها كوب الماء البارد الذي تجرعه بعدها في سرعة..

كان يبتاع لعقله بعض الوقت من أجل التفكير في الرد المناسب على الرسالة التي لم يكن يتوقعها. الرسول ينظر إليه في تملل. لا يشعر الأخير براحة أبدًا من التعامل مع هؤلاء العرب الغلاظ، ولا يتحمل الذباب السمج الذي تعاون مع درجة الحرارة المرتفعة في جعل المكان جحيماً حقيقياً بالنسبة إليه..

أشار الشيخ همام إلى حراسه، قائلاً بلهجة آمرة: ماذا تنتظرون.. أعدوا الطعام بوفرة لرسول علي بك، فما زال أمامه طريق طويل للمحروسة. أمصرت أنت على ألا تقضي الليلة هنا، ثم ترحل في الصباح؟

قال في ضيق: كما أخبرتك، علي بك يتعجل الرد بأسرع وقت، وأمرني ألا أعود دونه.

رسم همام الابتسامة على وجهه، قبل أن يقول: طلبات علي بك أوامر طبعًا.. تناول طعامك وسيكون الرد جاهزاً بإذن الله.

ما إن انصرف الرسول إلى حجرة الطعام، حتى قال همام لخادمه في خفوت: اركض يا ولد إلى الشيخ إسماعيل، وأحضره إلى هنا على الفور.

أجابه الفتى بإيماءة من رأسه، ثم أسرع من فوره لتنفيذ أمر سيده، الذي أراح ظهره إلى الخلف قليلاً، مغمضاً عينيه، كعادته كلما استغرق في تفكير عميق. كان الرد قد اختمر في

رأسه تقريبًا، ولكنه لم يُرد اتخاذ القرار بمفرده قبل أن يستشير أغلى الناس، إسماعيل الهواري صديقه ورفيق عمره وابن عمّه وزوج أخته وخال أولاده في آنٍ واحد. كانا أشبه بالرجل وظله، لا يفترقان إلا للضرورة، ولم يكن همام بن يوسف بن أحمد بن محمد بن همام بن أبو صبيح سيبة، الشهير بشيخ العرب همّام، ليتخذ قرارًا قبل أن يوقن من قرينه أنه القرار الأصح في هذا الوقت العصيب..

لم يخيب إسماعيل الهواري رجاء رفيقه فيه، واتفق معه في أسلوب الرد على رسالة علي بك الكبير، كما اتفقا على ما يجب فعله في الخفاء من أجل الرد على تقويض نفوذ همام بن يوسف، وخسارة أراضٍ خصبة وسلطة ورثها أبًا عن جد، طالت فترة حكمهم لها لما يزيد على خمسة القرون..

شيخ العرب همّام.. بكَرُ الأبناء الذكور للشيخ يوسف زعيم قبائل الهوارة، التي هاجرت في البداية إلى مصر من المغرب في عهد الدولة الفاطمية، واستقرت في صعيد مصر، وتمتعت بقدرٍ هائل من الثروة والنفوذ، فسيطر شيوخُها على مقاليد الأمور في الصعيد.

كان مولد همام، الذي آلت إليه زعامة قبائل الهوارة، في فرشوط بمحافظة قنا سنة ١٧٠٩م. مضى الرجل قُدّمًا في تأسيس شبه مملكة بالصعيد بعلم ومباركة الخليفة العثماني في إسطنبول، فيُنشئ الدواوين لإدارة شؤون الأراضي الواقعة تحت سيطرته، والتي امتدت من المنيا شمالًا حتى أسوان جنوبًا، ولرعاية العاملين فيها، ويشكل قوة عسكرية من الهوارة ومن المماليك الفارّين من بطش علي بك الكبير في القاهرة إلى الصعيد، فكان عنده من الأجناد والقوَّاسة، انضموا إليه وانتسبوا إليه، وهم عدة وافرة، وتزاوجوا وتوالدوا وتخلَّقوا بأخلاق أهل الصعيد ولغتهم. أقام همام المجالس لسماع قضايا الأهالي وحل مشاكلهم، يستوي في ذلك الجميع، الغني منهم والفقير، كما أدى النظام الذي وضعه الشيخ همام للأمن والعناية التي كان يبذلها لصيانة الترع والجسور، إلى ازدهار الزراعة وتحقيق الرخاء للأهالي..

دان الصعيد بالولاء لحكم همام بن يوسف نتيجة لعدله والاهتمام بالجميع دون تمييز، وعلى النقيض، نجح علي بك الكبير في فرض سيطرته بقوة السلاح على القاهرة ووجه بحري، وأدرك أن لا سبيل للوصول لعرش الوالي إلا بالتخلص من فلول المماليك الذين بقوا في البلاد بعد وقوعها في أسر العثمانيين مُحتلّي البلاد عام ١٥١٧م، وانتهاء حكم دولة المماليك. نجح علي بك في التخلص من منافسيه من كبار المماليك من أمثال عبد الرحمن كتحدا وحسين بك كشكش وصالح بك شاهين. أخذًا في تعزيز قوته العسكرية حتى بلغ عدد مماليكه الستة آلاف، ومضى في تكوين التحالفات ونسج المؤامرات للقضاء على القوى المنافسة له كافة. قضى علي بك على كبار المماليك الذين ينازعونه سلطانه في معركة حاسمة دارت رَحَاها شمال بنى سويف في سنة ١٧٦٧م، ليدخل بعد ذلك القاهرة وقد ثبتت أقدامه في إمارة البلاد ورياستها، وظهر بعد ذلك الظهور التام، ومَلَكَ الديار المصرية، والأقطار الحجازية حتى اليمن، والبلاد الشامية، وقتل المتمردين وقطع المعاندين، وشَتَّت شمل المنافقين، وخرق القواعد، وخرم العوائد، كل هذا بمعاونة قائده الجَسُور محمد بك أبي الذهب الذي يرجع إليه الفضل كله..

الخليفة العثماني الغارق في ملذَّاته، والمشغول بحربٍ لا طائل من ورائها مع الروس، يَغُضُّ الطرف عما يحدث في مصر، وما حولها، لا يهمه إلا أن يصله خَرَاجُها بشكلٍ كامل، وهو ما أداه كلا الحاكمين بكل أمانة، علي بك الكبير في الشمال، وشيخ العرب همام في الجنوب..

على الرغم من استقرار الأوضاع بشكلٍ كبيرٍ لحاكم البلاد، فإن وجود الشيخ همام في الصعيد يقضُّ مضجعه، يُشعره بأن مُلكه منقوص، وقد سيطر الرجل على قرابة نصف مساحة البلاد، ويتحصل على نتاج أراضيها شديدة الخصوبة المجاورة للنهر الجاري في هدوء. دانت كل قبائل الصعيد بالولاء لشيخ العرب، وقد أدركوا أن انضمامهم تحت لواء الهوارية سيكفل لهم حياة آمنة مستقرة، تحميهم من قبضة المماليك التي لا تعرف عهدًا، فاتفقوا فيما بينهم على عهد حماية، أشبه بما يُعرف في عهدنا الحديث بوثيقة الدفاع المشترك، وقد أبرمها همام بن يوسف مع ٢٦ قبيلة في الصعيد، بالإضافة إلى قبائل الصعيد الأعلى لتكوين تحالف ضد المماليك عام ١٧٤٧م..

نصّت الوثيقة على أن جميع المُوقَّعين عليها أشهدوا على أنفسهم الجميع، وهم بحال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار من غير إكراه لهم في ذلك ولا إجبار، بصحة بحور الأَشهاد عليهم فيها شرعًا، أن يكون الجميع على حالة واحدة وعلى يد واحدة وقلب رجل واحد، إذا حصل لأحد منهم حدوث باطل يكون الجميع معه آخذين بيده على إزالة الباطل وإظهار الحق، وكل من حصل منه خلاف ذلك يكون الجميع عليه، والذي يمشي مع الحاكم ويساعده في خراب وإحداث مفسدة من سفك دم أو غُرْم مالي يكون مطلوبًا منه حاكمًا أو عربيًا..

يعلم علي بك الكبير جيدًا فحوى تلك الوثيقة. يكاد أن يحفظها من كثرة قراءته لها، ويدرك جيدًا أنه إن أراد بسط حكمه على الإقليم المصري كله، فلن يواجه في ذلك الهوارية فقط، وهو بهم كفيل، ولكنه سيواجه أهل الصعيد كله، بالإضافة إلى أمراء المماليك السابقين، وهم أهل حربٍ وبأس. استعان علي بك مجددًا بقائد قواته محمد بك أبي الذهب، وأمره بالتوجه إلى مصر العليا على رأس قوة عسكرية مجهزة، وإبلاغ همام بن يوسف رسميًا بتقليص حدود مملكته من المنيا إلى برديس شمال فرشوط عاصمة حكمه. كانت وسيلة قوية لإثارته ودعوته للمواجهة، أفضلها عليه همام بالموافقة على أمر الوالي، وخسارته لأراضٍ عريضة زرعها ورعاها آباؤه وأجداده قرونًا..

علم همام أن البك يريد جذبه لمعركة كبرى لا يستطيع الخوض فيها الآن، يرى بعينيه تدريبات الجند تسير على قدمٍ وساقٍ في قلعته التي أسَّسها من حُرِّ ماله، ولكن ما زال أمامهم الكثير ليتعلموه؛ كي ينتقلوا من طرق حرب الشوارع التي نشئوا عليها إلى جيش نظامي مُحكم له قادة تجيد التخطيط والتدبير، ويتكون من ألوية وكتائب مجهزة بالعدَد والعتاد، قادر على مجابهة جيش المماليك شديد الخطورة والتنظيم..

قلعة الأمير همام بن يوسف تقع في حاجز الجبل الغربي بشمال قرية العركي التابعة لمركز فرشوط محافظة قنا، بُنيت في الأساس بالطوب اللَّبن المصنوع من الطمي والرمل مضافًا إليهما نسبة قليلة من التبن، وبُنيت جدران القلعة بطريقة هندسية تتحمل الضغوط بحيث

يختلف سُمك الجدران وزاوية الميل. ترتفع جدران القلعة ستة أمتار، أسقفها تتكون من الأقبية والقباب نصف الكروية والعمود نصف الدائرية في الأبواب والنوافذ. القلعة تتكون من مبنيين منفصلين، المبنى الرئيس هو المبنى الجنوبي مساحته تزيد على نصف الفدان. إلى الشمال منه المبنى الثانوي وهو مبنى صغير تبلغ مساحته ربع فدان، به المخازن والطواحين. وتقع الثكنات الحربية لمساكن الجند جنوبي غرب مبنى القلعة بنحو ١٥٠ مترًا، وهى منطقة متسعة تزيد مساحتها على خمسة عشر فدانًا، وإلى الغرب من مباني القلعة توجد منطقة تبلغ مساحتها نحو عشرة أفدنة خالية أُتخذت ميدانًا للتدريب على الأعمال العسكرية..

الرسول الذي سلّم همام الرسالة لم يكن يعلم محتواها المقتضب، ولو علم أنه سيشكل ورقة ضغط قوية على أمير الصعيد، فلربما احتال كي يحملها غيره. على النقيض، أيقن همام أن علي بك لن يكف عن التصعيد، فها هو الآن يخبره أنه ما وافق على بقائه حاكمًا للصعيد إلا بشرط طرد المصريين الذين عنده، وألا يُبقي منهم أحدًا بدائرته..

أفلح في حبس ابتسامة مريرة من الفرار إلى شفتيه، فما المماليك المشار إليهم في الرسالة بمصريين، ولا الحاكم علي بك الكبير التركي مجهول النسب من أهل مصر، فبأي هُراء تتحدثون إذن؟.. وكيف إن طرد هؤلاء الرجال الذين استنجدوا به، ودخلوا في ذمته، وهو الشهم الكريم مع الغرباء قبل الأصدقاء، فكيف بهم وهو يقدمهم لقمة سائغة لفم تئبين غاضب لا يعرف الشَّبَع؟.. أليس هذا هو الخُذلان ذاته؟. وأيُّ حياةٍ تُعاش إن حنث همام بن يوسف الهواري بوعوده؟.. أيقبل ما جاء في رسالة شيخ البلد صاغرًا، ولن يغمض له جفنٌ بعدها، أم يمزقها رافضًا بيد، ويفتح رتاج باب حربٍ مُهلكة باليد الأخرى؟

غلبته كبرياؤه، وأراد أن يقتطع من الوقت جزءًا لصالحه، فأذعن لرأي الحاكم في رسالة الرد، وجمع أمراء المماليك يأمرهم بالتوجه إلى أسيوط، والتحصن بها بعد السيطرة على أبوابها، فإن فعلوا ذلك كان لهم بها قوة ومنعة، على أن يمدّهم بعد ذلك بالمال والرجال،

فاستصوبوا رأيه، وبادروا ذهابًا إلى أسيوط، فأخذوها بيّسر، وتحصّنوا بها، فهرب منها أهلها، ووردت الأخبار بذلك إلى علي بك..

هكذا كان الصدام بين الرجلين محتومًا، فحشد علي بك الكبير ثلاثة جيوش جمع قوادها موصيهم قائلاً: اذهبوا إلى أسيوط واملكوها. دارت المعركة الفاصلة في يونيو ١٧٦٩م، عند جبّانة أسيوط لثُسفر عن انتصارٍ ساحقٍ لجيوش علي بك الكبير، التي أقامت بأسيوط بعدها أيامًا لاستجماع القوّى، ثم ارتحلوا إلى قبلي بقصد محاربة همّام والهوّارة..

كيف كان سيتغير وضع مصر والمصريين إن انتصر جيش شيخ العرب همّام على قوات علي بك الكبير؟ هل كانت ستكسوه نشوة انتصاره ويستكمل زحفه نحو القاهرة ليُسقطها ويستقيم له حكم القُطر كله؟ أم كان سيكتفي بإحكام سيطرته على صعيد مصر وتظل دولة الهوارية قائمة لقرونٍ أخرى قادمة؟ هل كانت ستسيطر عليه سطوة الظلم أم تنتصر بداخله كلمة الحق والعدل؟

حَرَمْنَا التاريخُ للأسف من إجابات تلك الأسئلة، وحوّل سد الخيانة مسار تثور همّام الفائر..

أدرك محمد بك أبو الذهب أن المعركة مع همّام لن تكون هيئنةً كحالٍ معركته مع المماليك في أسيوط، فهو وإن كان يقود جماعة غير نظامية وشحيحة التدريب، فإن جميعهم على كامل الاستعداد للتضحية بأنفسهم فداءً له، عزة النفس والكرامة التي زرعتها بداخلهم قادرة على جعل معظمهم مقاتلين أشداء لا يُشقُّ لهم غبار. إن لم يكن النصر حليفهم في النهاية فإن طريق هزيمتهم محفوف بدماء جنوده، ولن تكون خسائره بالبسيطة أبدًا..

الخُدعة في الحرب تسبق الشجاعة بخطوات. لم يستغرق أبو الذهب الكثير من الوقت ليدرك أن نقطة ضعف همّام بن يوسف هي ذاتها ما ظلّها دومًا أقوى نقاطه. قبول إسماعيل الهواري للحضور ومقابلة أبي الذهب سرًا كان يعني أنه كسب المعركة قبل أن تبدأ فعليًا. أطعمه وسقاه ثم قدم له أعلى طبق حلوى: ساعدني في إسقاط همّام، وسيدني لك الصعيد كله بالولاء تحت راية علي بك الكبير.

أهم أحلامه وغاية آماله صارت واضحة أمام عينيه وأقرب ما تكون لأنامله، وممَّن؟ من الذراع اليمنى للوالي الأعظم. نسي إسماعيل الهواري ما يمثل له همام من صداقة وقرابة، ولم يتذكر إلا عرش الهوارية وأملاكهم وقد كادت أن تكون ملء يديه. الطلب بسيط والثمن غالٍ جدًا..

تقاعس إسماعيل عن الخروج للقاء الجيش بمن معه من الجنود، وبعث للقادة الآخرين يُثبِّطهم عن القتال، ويخوِّفهم الموت الذي سيلاقونه لا محالة. صدمة همام من خذلان صديقه فسَّرتها عيون رجاله الذين علموا بشأن اللقاء السري الذي تم بين الرجلين، فأدرك همام أن انتظاره في فرشوط لن يعني له سوى انتظار وقوع البلاء..

مطعونًا بطعنةٍ غائرة في القلب، غادر همام عاصمته الشاهدة على عظمته وإنجازاته متجهًا صوب إسنا. لم تهزم همامَ ضربةٌ سيفٍ أو طعنةٌ رمح، ولكن هزمته الخيانة التي اعتصرت قلبه كمدًا وقهراً، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فغادرت روحه إلى بارئها باحثةً عن سلامٍ وعدلٍ فشلت في إيجادهما في الدار الأولى. تُوفِّي همام بن يوسف في ٧ من ديسمبر ١٧٦٩، ودُفن في بلدة تُسمَّى قمولة..

وصل محمد بك أبو الذهب ومن معه إلى فرشوط فلم يجدوا مانعًا، فملكوها ونهبوها وأخذوا جميع ما كان بدوائر الهوارية وأقاربهم وأتباعهم من ذخائر وأموال وغلال، ودمروا ما طالته أيديهم من المدينة، انتقامًا من ذكرى رجلٍ أذلَّهم طويلاً كان يُدعى شيخ العرب همام..

ثوب أبيض مُخترق

هيباتيا بنت ثيرون
(٣٧٠م - ٤١٥م)

تحب كثيرًا أن تستمع بمشهد الغروب..

تنحرك الشمس بهدوءٍ لتغرق في أفق البحر المتوسط البعيد، وتكتسب السماء لونًا أرجوانيًّا خلابًا تتنازع السُّحب فيها كي تصطبغ به فتزيدها بهاء. تبعث الرياح نسمة رقيقة جميلة تطير أطراف ثوبها الأبيض الفُضفاض، وتبعثر خُصلات شعرها الأسود الناعم على جبهتها العريضة شاهقة البياض المُشعَّة نورًا وذكاء..

تلخع خُفَّيها، وتستلقي في استجمامٍ على الرمال البيضاء الناعمة، فتوخزها الأصداف الصغيرة وخزًا خفيًّا مُحببًا إلى نفسها. تُغمض عينيها، فتريح عقلها المجهد بعد ندوة طويلة وشاقة ألقته في مُتحف الإسكندرية المُسمَّى بالسيزاريوم، الملاصق لمكتبة الإسكندرية الأسطورية، قِبلة العلماء والباحثين.

تقوم فتتنفض عن ثوبها ذرات الرمال، وكأنها قد استعادت طاقتها، وجددت نشاطها، فتركب عربتها، وقد بدأ الظلام يحلُّ على المدينة الناعسة، والتي ظلت منارةً للعالم كله زمناً طويلًا. تسير العربة وئيديًا، وكأنها تريدها أن تستمتع بكل لحظة من لحظاتها الأخيرة.

تُباغت الفتاة بعشرات الرُهبان يقطعون طريقها في ذلك الزقاق الضيق المؤدِّي إلى بيتها.. لا يتملِّكها الخوف، وإنما تصيبها الدهشة من الأسلحة التي يحملونها، ويُجبرونها بها على التوقف..

هياتيا التي اعتادت على المناظرات العقلية، وتقديم الحُجج الفلسفية مع أمثال هؤلاء الرهبان، لم تتوقع قط أن الكيل قد فاض بهم، ولم يجدوا سوى سبيلٍ واحدٍ لإخراستها..

لم يعطوها وقتًا للحديث. لجأت للصرخ وهم يجبرونها على ترك عربتها بعنف شديد. امتدت أيادٍ لثخرسها، وأيادٍ أخرى تجردها من ملابسها؛ رغبةً في انتقام لا يخلو من شهوانية، حتى صارت عارية تمامًا، فظهر جسدها البكر المرمري، الذي احتفظت به عُذريًا حتى وفاتها، برغم زواجها من الفيلسوف إيزودور السكندري، جليًا أمام أعين التُساك مُدَّعي التعفف.

جرها الرهبان صوب كنيسة قيصرين بالإسكندرية، مكبلَةً بحبال غليظة تدمي جسدها، تحيطها نظرات العامة الذين راقبوها، بين مُتشفٍّ وجبان. حملوها حملًا ووضعها فوق المذبح، الذي لم يُعدَّ يومًا لهذا، وهناك قام بطرس قارئ الصلوات الكنسية بذبحها دون تردد، وهي عارية مكتوفة الأيدي والأقدام، ومزقوها بآلاتهم الحادة إلى أشلاء..

لم يكتفِ راهبو الرِّحَمات بذلك، بل أوقدوا نارًا عظيمة في شارع سينارون على مرأى ومسمع من الجمع، وقاموا بقذف أعضائها التي ما زالت تحمل سخونة الحياة، وأخذ الرهبان يتحلقون حول الجسد المُحترق في مرجٍ وحشيٍّ شنيع.... [القصة كما ذُكرت في كتاب تاريخ الفلسفة الغربية، ج ٢، ص ٣٠١ لبرتراند راسل..].

هي هياتيا عالمة الرياضيات والفلك والمنطق المصرية المُولد والمنشأ والهوى، وُلدت في الإسكندرية، وتُوفيت فيها، وهي ابنة عالم الرياضيات العظيم ثيرون، وكانت أصغر أستاذة في جامعة الإسكندرية عن عمر الثلاثين ربيعًا، ويُقترح أنه بوفاتها في مارس ٤١٥م، تُسدل الستار تمامًا على عصر الحضارة الهلينية، بل وتُسدل الستار على عصور الفلسفة في مصر القديمة..

تبادلت هياتيا مراسلات مع تلميذها السابق سينوسيوس القورينائي، الذي أصبح عام ٤١٠ ميلادية أسقف بتلوميّاس (ليبيا). وتُعدُّ هذه الرسائل مع كتابات دامسكيوس عنها، المصادر

الوحيدة المتبقية عن هيئاتها عن طريق طلابها..

يتحدث المؤرخ الكنسي سقراط عن هيئاتها في كتابه «تاريخ الكنيسة»، قائلاً: «كانت هناك امرأة في الإسكندرية تُدعى هيئاتها، وهي ابنة الفيلسوف ثيرون. كانت بارعة في تحصيل كل العلوم المعاصرة؛ مما جعلها تتفوق على كل الفلاسفة المعاصرين لها، حيث كانت تقدم تفسيراتها وشروحاتها الفلسفية؛ خاصةً فلسفة أفلاطون لمريديها الذين قَدِموا من كل المناطق، بالإضافة إلى تواضعها الشديد، لم تكن تهوى الظهور أمام العامة، وبرزم ذلك كانت تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد مسلكها المتواضع المَهيب الذي كان يميزها عن سواها، والذي أكسبها احترامهم وتقدير الجميع لها. كان والي المدينة (أورستوس) في مقدمة هؤلاء الذي كانوا يُكثِّون لها عظيم الاحترام..

وبالنسبة إلى أورستوس الذي كان مسيحيًا، وإن جمعت بينه وبين هيئاتها صداقة عميقة، أثارَت حفيظة راعي الكنيسة الأسقف كيرلوس، الذي كان يُلقب بعمود الدين - ويرجع المسيحيون له كثيرًا من الفضل في بقاء المذهب الأرثوذكسي حتى الآن - والذي كان في صراع سياسي قوي معه، وأثار ذيع صيت هيئاتها قلق كيرلوس إلى حدٍ كبيرٍ خاصةً مع ازدياد أعداد العامة، والتفافهم حولها بصورة لافتة للنظر. أحس أنها تشكل خطرًا بالغًا على الكنيسة المصرية، وكلماتها تتسلل إليهم في سهولة ويُسر، فتقابل في أنفسهم هوى، وتثير في عقولهم اقتناعًا.

زاد الأمر سوءًا أن الأسقف دخل في صراع مع اليهود المتواجدين بالمدينة، وسعى جاهدًا لإخراجهم منها، ونجح في ذلك إلى حدٍ كبير، وذلك بمساعدة أعداد كبيرة من الرهبان، الذين شكّلوا ما يمكن تسميته بجيش الكنيسة، ولم يكن باستطاعة الوالي التصدي لهذه الفوضى، بل وتعرض بدوره للإهانة من جانب بعض الرهبان الذين قاموا بقذفه بالحجارة، بعد أن علموا بالتقرير الذي أرسله للإمبراطور، متضمّنًا الفوضى التي جرت بالإسكندرية جرّاء اشتباكاتهم مع اليهود؛ ومن ثم تأزّمت العلاقة بين المسيحيين وبين الوالي أورستوس، وسرّت الشائعات في المدينة أن سبب هذا العداء بين رجلي الإسكندرية يعود

إلى هيباتيا وتأثيرها على حاكم المدينة، وهذا يعني أن المدينة لن تعرف الهدوء إلا بالخلاص منها. وكانت نهايتها المأسوية بإيعازٍ من الأسقف كيرلوس..

معظم أعمالها كانت عبارة عن أعمال مشتركة مع والدها، ثيرون ألكسندروس نتيجة إلى ندرة وجود أعمال أنثوية منفردة للنساء في العصور القديمة، ومن مساهماتها المهمة في مجال العلوم: قيامها بعمل رسم الأجرام السماوية، واختراعها مقياس ثقل السائل النوعي (الهيدرومتر) المستخدم في قياس كثافة ولزوجة السوائل. قال تلميذها سينوسيوس إنها اخترعت أيضًا نوعًا من الإسطرلاب (البوصلة).

لم تكن هيباتيا امرأةً عاديةً أبدًا، وإن طال بها الأمد، فلربما كانت قد أضافت الكثير إلى العلوم والفلسفة المصرية، التي كانت تشهد نشاطًا ملحوظًا في ذلك الوقت، قبل أن تحرقها يدُ التطرّف الديني الموجود في كل عصرٍ ودين..

الجريمة الكاملة

يحيى المشد

(١١ من يناير ١٩٣٢-١٣ من يونيو ١٩٨٠)

الإضاءة الخافتة، وتساعد دخان القهوة الساخنة أمامها، زادا من التهاب أعصابها خاصة مع دخان سجائره الثقيلة، والتي امتلأت المنفضة أمامها بأعقاب سابقاتها، ثم مدّت يدها المرتجفة تتناول قدها، وتناولت منه رشقات صغيرة متتالية حتى فرغت منه، وعيناه معلقتان بها، ثم وضعته أمامها بقوة، فأصدر صوتًا عاليًا عن غير قصد جعلها ترتجف. نفت دخان سجائره في وجهها، ومال عليها قائلاً: أفضل الآن؟

كتمت سعالها في جوفها، ولم يظهر منه سوى بضع ارتجافات بسيطة، ووجنتاها المشوبتان بالحمرة تزدادان احتقانًا مع تصاعد حدة التوتر في داخلها، وهي تومئ برأسها إيجابًا، فقال: الآن ارو لي كل ما حدث بالتفصيل.

كانت المرة الثالثة التي تروي أمامه نفس التفاصيل، إلا أنها لم يكن بوسعها الفرار من أسئلته المتلاحقة فاستنشقت شهيقًا عميقًا، وبدأت تروي..

- كنت في مزاج سيئ للغاية في ذلك اليوم، فقد اختلفت مع صديقتي في السكن خلافًا حادًا، فتركت هي على أثره الشقة، وأصبح لزامًا عليّ أن أدفع إيجار الشقة كاملاً، مما قد يلتهم أكثر من نصف ميزانيتي من العمل في الكازينو، ويعني أنني على وشك الدخول في ضائقة مالية خلال الأيام المقبلة.
- إذن فقد كنت بحاجة ملحة إلي المال؟
- لا، ليس بعد.. فقد قمنا بدفع إيجار يونيو بالفعل.
- أكملني.

• وهنا قادتني قدماي إلى فندق الميريديان. لم تكن زيارتي الأولى له.. فأنا دائمة التردد عليه مع الأثرياء المقيمين فيه، وكوّنت شبكة علاقات ممتازة مع موظفي الاستقبال هناك.. اتخذت مقعدًا يمكنني من مراقبة كل من يعبر الباب سواء بالدخول أو الخروج، وهنا وقع بصري عليه.. كان متوسط الطول، أصلع الرأس قليلاً، يرتدي ربطة عنق زاهية الألوان متوائمة مع البزة الثمينة، يحمل بعض الهدايا والأكياس الصغيرة، تشي ملامحه إما بأن يكون باكستانيًا أو عربيًا، فكلاهما يحمل تلك الملامح المتقاربة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أتعامل فيها معهم، فبدأ لي الأمر وقتها تحديًا جديدًا وحماسيًا.. تبعت الرجل إلى المصعد، وهو يستقله صاعدًا إلى الطابق الأخير الذي يقطن به.

كفكفت في عينيها دمعًا وهميًا، ثم أزاحت خصلة من شعرها الأشقر سقطت على جبينها، وهي تستطرد: الحقيقة أن تصرفه كان غير متوقع.. فقد لفظني في عنف، وأخبرني بحدة أنه مسلم ومتزوج، ودينه لا يسمح له بأن يضاجع امرأة غير زوجته.. أعلم ذلك عن المسلمين، ولكنني قد عرفت الكثير منهم الذين يخدعون زوجاتهم مرة ومرات.. وجدت نفسي أعرض عليه أن ينام معي بلا مقابل، فقد استهواني رفضه كثيرًا، إلا أن رفضه كان قاطعًا.

- وبعد ذلك؟
- شعرت بجرح عميق في كرامتي، فلم يرفضني رجل بهذه القوة من قبل، مما جعلني أتبعه حتى وصل إلى غرفته، وأغلق الباب في وجهي بعنف، ثم بدأت أصوات جلبة وضجيج تأتي من داخل الغرفة.
- هل تعرفين رقم الغرفة؟
- أجل أذكره جيدًا، فقد وقفت أمامها طويلاً.. رقمها ٩٤١.
- هل يمكنك وصف تلك الأصوات؟
- ليس بالضبط.. كانت هناك أصوات نزاع وتأوهات مكتومة، ثم سمعت صوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض، وساد السكون بعدها.

- وماذا فعلت بعدها؟
- لا شيء على الإطلاق.. غادرت الفندق وعدت إلى المنزل.
- ولم تخبري أحدًا بما حدث؟
- كلا بالطبع.. ولم أكن أنوي أن أخبر أحدًا، غير أنني قرأت عن جريمة القتل التي وقعت في الفندق في تلك الليلة، وأنهم قد وجدوا جثة الرجل الوسيم مهشمة الرأس، ودماؤه تغطي سجادة الغرفة، فجئت لمقابلتك سيدي المحقق.
- سؤال أخير.. هل طلب منك أحد أو ألمح إليك أحد بأي وسيلة أن تقومي بإغواء القاتل المصري يحيى المشد، وتوجيهه نحو غرفته؟
- كلا.. لم يحدث ذلك.
- وقّعي يا ماري على أقوالك.

وقفت وتناولت القلم، وكتبت بخط طفولي «ماري إكسبريس»، فقال في صرامة:
اسمك الحقيقي يا ماري.

كتبت «ماري كلود ماجال».

*** * ***

كان ذلك في يوليو ١٩٨٠، وقد شارفت الساعة على الثالثة صباحًا، إلا أن مظهرها لم يبد غريبًا، وهي تخرج من الحانة الرخيصة التي تعمل فيها في ضاحية سان ميشيل. بدت مترنحة بصورة بالغة، وقد أثقلت الخمر رأسها، وجعلت الرؤية أمامها مشوشة إلى حد كبير..

كان عليها أن تعبر الطريق إلى الناحية الأخرى لتستقل سيارة أجرة تنقلها إلى منزلها القابع في ضاحية فقيرة من ضواحي باريس. خطت خطوات قليلة قبل أن يبهرها الضوء الساطع القادم من جهة اليمين.. أذهلتها المفاجأة فتصلبت أطرافها، ولم

تتحرك إلا عندما صدمتها السيارة بكل سرعتها لتطير في الهواء لمتراً كاملاً قبل أن تسقط محطمة الأوصال، وتفارقها الروح على الفور، والسيارة تستمر في انطلاقها بلا توقف..

سالت دماء ماري الشاهدة الوحيدة في قضية مقتل الدكتور يحيى المشد على قارعة، الطريق في حين اختفت السيارة الصادمة.. إلى الأبد..

*** * ***

ولد يحيى المشد في ١١ يناير عام ١٩٣٢ في المحلة الكبرى بمحافظة الغربية، وتلقى تعليمه الأولي في طنطا، ثم تخرج من قسم الكهرباء بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية عام ١٩٥٢، وحلّ ثالثاً، فكان من المرشحين للحصول على شهادة الدكتوراه من لندن عام ١٩٥٦، إلا أن البعثة ألغيت بسبب مشاركة إنجلترا في العدوان الثلاثي على مصر، وتحوّل مصيرها إلى عاصمة الثلوج.. موسكو..

أصر والده أن يتزوج قبل سفره، وبالفعل اختار له ابنة خاله لتكون زوجة له، وعاصماً له من مخاطر الحياة في أوروبا. تزوج يحيى من السيدة زينب علي الخشاني، وأنجب منها ابناً وبنيتين..

درس في موسكو لمدة ست سنوات، عاد بعدها وقد حصل على شهادة الدكتوراه في هندسة المفاعلات النووية..

التحق يحيى بهيئة الطاقة النووية المصرية، ثم انتقل إلى النرويج بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٤، وتعرض هناك لعدة محاولات للتجنس بالجنسية النرويجية، إلا أنه رفضها جميعاً - تماماً كما حدث مع الدكتور سميرة موسي، وكان الإسرائيليون يتبعون أسلوب إن لم تكن معنا فأنت عدونا- ثم عاد كأستاذ مساعد بكلية الهندسة، وحصل على الأستاذية، وأشرف إبان عمله على ثلاثين رسالة دكتوراه، ونشر باسمه أكثر من

خمسين بحثًا علميًا تركزت معظمها على تصميم المفاعلات النووية ومجال التحكم في المعاملات النووية..

واجهت يحيى ظروف صعبة، فقد كان حلمه بأن يقوم بالإشراف على البرنامج النووي المصري من أجل الإشراف على تصنيع قنبلة ذرية تعيد موازين القوة إلى نصابها الطبيعي، في ظل المساعدات الأمريكية المستمرة لإسرائيل، وتردد الأنباء أن إسرائيل قامت بصنع قنابل ذرية محدودة قادرة على تدمير دولة عربية بأكملها، دون الإضرار بأمن وسلامة إسرائيل.. بالطبع اتضح بعدها أن ذلك كله كان من قبيل الحرب النفسية، والتي استطاعت بها إسرائيل أن تنتصر في حرب ١٩٦٧ قبل أن يطلق جنودها طلقة واحدة، وكانت تلك الحرب وبالأعلى المشروع النووي المصري، كما كانت وبالأعلى على جميع قطاعات الدولة، فتوقف المشروع تمامًا، وحتى عندما قامت حرب ١٩٧٣، وردّ المصريون كرامتهم المسلوبة، رأت الدولة أن توجه اقتصادها لخدمة قطاعات البلد التي تضررت كثيرًا في السنوات الست الماضية، ولم يكن من بينها بالطبع قطاع الطاقة النووية..

بدأت الأمور تتحسن تدريجيًا مع وصول فاليري جيسكار دي ستان إلى رئاسة الجمهورية الفرنسية عام ١٩٧٤، ولم يمض سوى عام واحد حتى استطاع نائب الرئيس العراقي الراحل صدام حسين توقيع اتفاقًا مع رئيس الوزراء الفرنسي في ذلك الوقت جاك شيراك بشأن البرنامج النووي العراقي بعد زيارات متبادلة بين الرجلين، وأرسلت الحكومة العراقية تطلب حضور يحيى المشد على سبيل الإعارة لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد، وهناك التحق بمنظمة الطاقة الذرية العراقية..

في ذلك الوقت بدأت إسرائيل تشعر بالخطر المتنامي من الملف النووي العراقي، فهبط في مطار طولون بفرنسا ثلاثة رجال من الموساد، انضموا إلى أربعة آخرين كانوا ينتظرونهم في فيلا معزولة، وقضوا ليلتهم يرسمون خطة تخريبية، وتوجهوا في يوم ٥ أبريل ١٩٧٩ إلى مرفأ صغير غربي طولون يدعى لاسين سومير، واستطلعوا

الموقع جيداً، ثم عادوا بعد نزول ستائر الليل الثقيلة من أجل سرقة قلبي المفاعلين العراقيين تموزاً وتموزاً، واللذين كانا ينتظران دورهما في الشحن إلى العراق، إلا أن الظروف لم تكن مواتية، فلجأوا إلى تدميرها، وهربوا تحت جناح الليل دون أن يُعثر لهم على أثر..

لم يكن بوسع أحد من العلماء القيام بمهمة إصلاح الفرن النووي سوى د. المشد، الذي نجح في إصلاحه والإشراف على عملية نقله لبغداد بطريقة آمنة وسرية..

بعدها أصبح د. يحيى المشد المتحدث الرسمي باسم البرنامج النووي العراقي، ثم ترأس البرنامج النووي العراقي الفرنسي المشترك، وكانت أول وأهم وأخطر إنجازات المشد هي تسهيل مهمة العراق في الحصول على اليورانيوم المخصب من فرنسا.. بعد قيام الثورة الإيرانية عجز النظام الإيراني الجديد عن سداد ديونه لدى شركة «الكونسرتوم» الفرنسية لإنتاج اليورانيوم، فعرض د. المشد على هذه الشركة شراء أسهم الحكومة الإيرانية باسم حكومة العراق، ونجح في ذلك، وأصبح باستطاعتها الحصول على اليورانيوم من أجل إتمام البرنامج النووي العراقي..

كان دكتور المشد يقوم كل فترة بإرسال كشف اليورانيوم الذي يحتاجه كمّاً وكيفاً، وكان يطلق على اليورانيوم اسماً حركياً «الكعك الأصفر»، يتسلمه مندوب البرنامج في العراق، ويبلغ د. المشد بما تم تسلمه، ولكن آخر مرة أخبره أنه تسلم صنفاً مختلفاً وكمية مختلفة عما طلبه د. المشد، فأرسل هذا الأخير للمسؤولين في فرنسا، في برنامج العمل النووي، ليخبرهم بهذا الخطأ، فردّوا عليه بعد ثلاثة أيام وقالوا له: لقد جهّزنا الكمية والصنف الذي تطلبه، وعليك أن تأتي بنفسك لفحصها، ووضع الشمع الأحمر على الشحنات بعد التأكد من صلاحيتها.

هل كانت المؤامرة تحاك خفية من أجل اغتيال العالم العبقرى الشاب.. فقد تم إرسال د. المشد إلى باريس في مهمة عادية يستطيع أن يتكفل بها أي مهندس أو خبير عادي.. أم هي الأقدار كانت تسوقه ليسافر إلى هناك، فيقع تحت قبضتهم الغاشمة..

وصل د. المشد إلى فرنسا في السابع من يونيو ١٩٨٠، ونزل بفندق الميريديان بباريس، وهناك أنهى أعماله في سرعة، وكان مقرراً أن يعود إلى بغداد يوم ١٢ يونيو، إلا أن ظروف الطيران حالت دون ذلك، واضطر للانتظار إلى اليوم التالي ليلقى حتفه بطريقة بشعة كما أسلفنا..

ذكر راديو «إسرائيل» تعليقاً على وفاة د. المشد نقلاً عن مصادر إسرائيلية: «إنه سيكون من الصعب جداً على العراق مواصلة جهودها من أجل إنتاج سلاح نووي في أعقاب اغتيال د. يحيى المشد».. وفي صحيفة «يديعوت أحرونوت» جاءت المقالة الافتتاحية بعنوان «الأوساط كلها في إسرائيل تلقت نبأ الاغتيال بسروراً» أما فانونو أشهر علماء الذرة الصهاينة فقال: «إن موت د. المشد سيؤخر البرنامج النووي العراقي سنتيمتراً واحداً على الأقل»، هذا هو الجزء المعلن من شعور إسرائيل تجاه الحدث.

من ناحية أخرى، صرحت الحكومة الإسرائيلية بأن مقتل المشد سيؤخر العمل الذري العراقي لمدة عامين على الأقل، لكنهم اكتشفوا بعد عام أن العمل العراقي لا يزال مستمرًا، وأنهم كانوا على خطأ، وبناء عليه قاموا بقصف المفاعل العراقي في يونيو ١٩٨١ بعد اكتشافهم أن عمليات القتل والقرصنة والتخريب لم تُعق تقدم المشروع النووي العراقي، هذه الخطوة تثبت وتؤكد تورط الموساد في قتل د. المشد باعتبار أن ما قدّمه للعراق كان مخيفًا وجعلهم يشعرون بالخطر.

لم تكن العلاقات المصرية العراقية على خير ما يرام في ذلك الوقت بعد اتفاقية كامب ديفيد التي وقعها السادات مع إسرائيل، ومحاولة صدام حسين وقتها أن يجعل من نفسه البطل المغوار حامل شعلة جمال عبد الناصر في توحيد الأمة العربية، وإبراز السادات في دور الخائن المتحالف مع اليهود، إلا أن ذلك لم يكن مبررًا للمشهد المهين الذي سارت به جنازة يحيى المشد، والتي لم يحضرها من المسؤولين أو من زملائه بكلية الهندسة إلا قلة معدودة، مما جعل الأسرة المكلمة في مهب الريح، لا يقوي من عضدها إلا المعاش الذي قرر صدام حسين أن يصرفه للراحل،

وقدره ثلاثمائة دينار، وقرر بأن يكون مدى الحياة، إلا أنه توقف بعد حرب الخليج،
ومعاش ضئيل من الشؤون الاجتماعية التي لم تضع في اعتبارها القيمة العظيمة
للعالم الكبير..

الحقيقة أن الموقف الذي اتخذته الرئيس العراقي مع أسرة المشد كان مشرفاً وعظيماً،
فقد استضافهم في صالون منزله، واستقبلهم خير استقبال، ثم قال: أنا فقدت أخاً..
أخاً عزيزاً عليّ، وهو الدكتور المشد، لا يمكنني حتى أن أفديه بروحي.. أنتم أهلي
وعشيرتي، وإن طلبتم أن تقيموا في العراق سأقوم بتشديد قصر لكم بجوار قصري،
وأحقق لكم كل أمانيتكم.

1. الغلاف
2. حواديت أهل المحروسة
3. مقدمة لا نهاية لها
4. قولوا لعين الشمس
5. كُلُّ شَيْءٍ بِقِضَاءٍ
6. خلف الميكروفون أكاذيب
7. إنهم بعمر أحفادي
8. قُرَّةَ عَيْنٍ لِي. وَلَكَ
9. قَدِّيسِ الْمَقَاوِمَةِ
10. صُرَاعٌ وَعُزْلَةٌ
11. أَرْضُ الْخَرَابِ
12. كُلُّ يَوْمٍ جُمُعَةٌ
13. طريقة إرضاء ساري عسكر
14. الهروب إلى الموت
15. الكاهن الذي بُعث من جديد
16. خاتم سليمان
17. مَضْرَعُ أَنْسَةِ مِصْرِيَّةٍ
18. من أبي زعبل إلى بلجراد
19. رحلة إلى المدينة
20. في شبّاك الموساد
21. كَيْدُهُنَّ
22. حين شَدَّتِ الإِذَاعَةُ
23. فِينُوَيْسِ الْمِصْرِيَّةِ
24. هَدِيَّةٌ مِنْ مِصْرٍ

25. بين الوجوه السمرَاء
26. صوت صارخ في البرية
27. ولتصنع على عيني
28. شيخ من فرشوط
29. ثوب أبيض مُحترق
30. الجريمة الكاملة